سلسلة الاعمال المجهولة

ابراهيم اليازجي

ميشال جحا

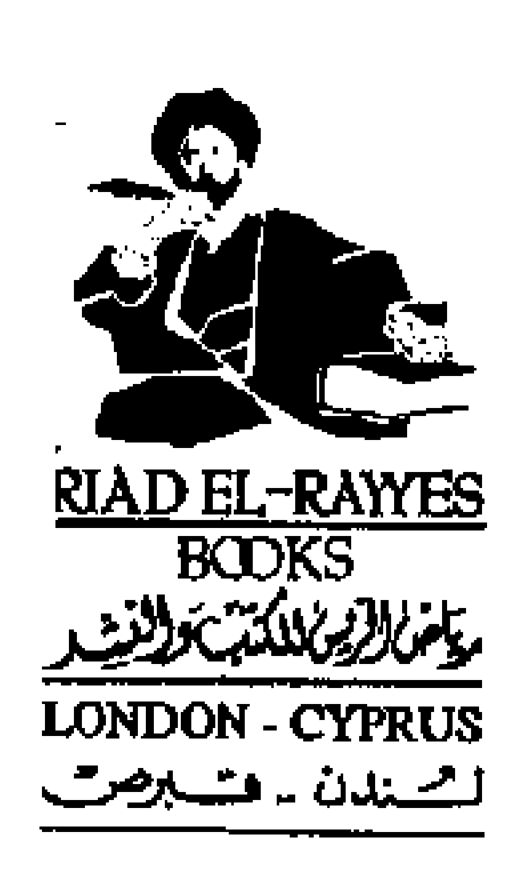
RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

ابرَاهِيمُ اليَازِجيُ

سلسلة الاعمال المجهولة

ابراهيم اليازجي

ميشال جحا



THE UNKNOWN WORKS OF:
IBRAHIM AL-YAZIJI

Compiled and edited

by

MICHEL JEHA

First Published In the United Kingdom In 1992
Copyright ©Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge, London SW1X7NJ

U.K.

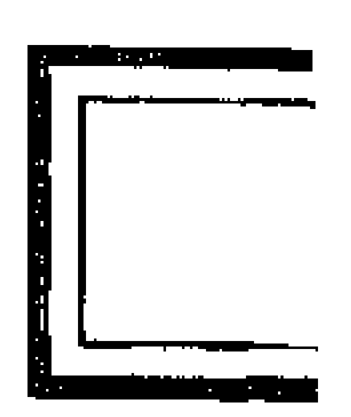
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-131-5

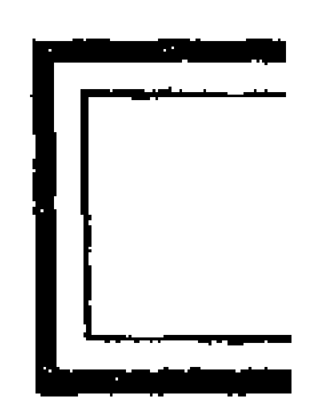
الطبعة الأولى: كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢





محتويات الكتاب

الملاحـق

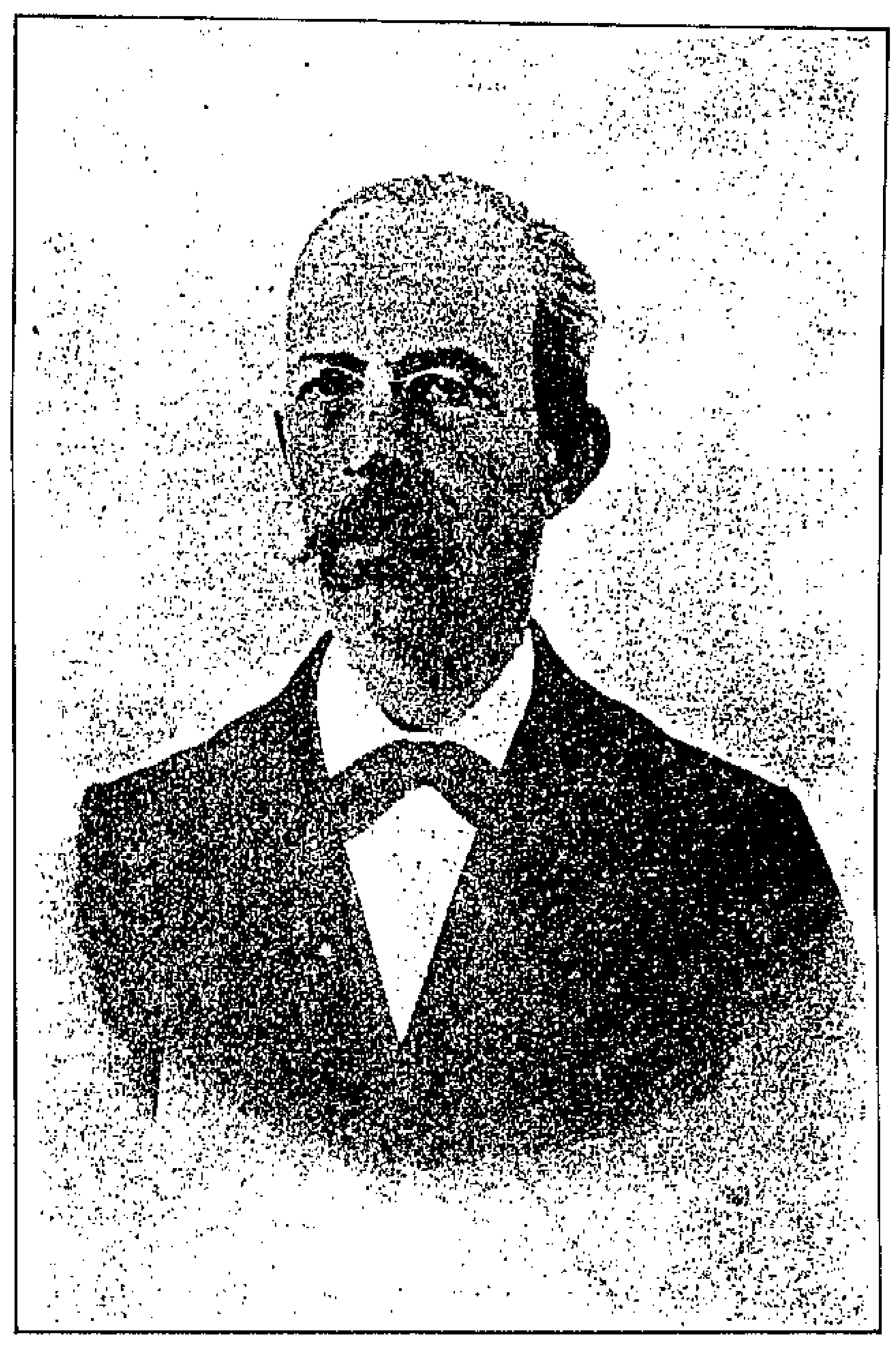


هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب الشيخ إبراهيم اليازجي، أحد رواد النهضة البارزين في لبنـان والعـالم العربي. ويسلّط الضوء على إسهام اليازجي في حقول الأدب والشعر والصحافة كافة.

نال شهرة واسعة كلغويّ اسهم في خدمة اللغة العربية وإحيائها وضبط قواعدها ووضع المفردات والمصطلحات العلمية الجديدة... وإلى ذلك هو كاتب وصحـافي له أسلوبه المتين، وشاعر وناقد أدبيّ وصاحب آراء جريئة في النقد وافكار تقدمية، وداعية إلى التطوّر والتقدّم والتعلّم والرقيّ والاصلاح والتنوير.

منـذ قرن ونيّف دعـا العرب ليستفيقوا وينهضوا وحثّهم على الأخذ بركب الحضارة والتحرر فكان عن حق أبرز روّاد النهضة في المشرق العربيّ.



أنت في الدنيا كضيفٍ نازلٍ حلّ في الاحياء حيناً وانصرف
فاحي بالذكر إذا العمر انقضى واجعل الرسم من الجسم خلف

القِسم الأوّل

ابراهيم اليازجي

١

تمهيد

لماذا الكلام على إبراهيم اليازجي اليوم؟

سبق لي وأن أجبت على هذا السؤال في الكلمة التمهيدية التي وضعتها لكتابي عن سليم البستاني[1] فقلت:

«إننا نرى أن البحث في هذا الموضوع، والعودة إلى الكلام على رجالات النهضة، ضروري خاصة في يومنا هذا، وذلك لإظهار الأعمال التي قام بها هؤلاء الرواد الذين كانت لهم رؤيا، وكانوا سابقين لعصرهم، ولتبيان المواقف التي وقفوها والجهود التي بذلوها في سبيل إصلاح المجتمع الذي عاشوا فيه، وإظهار دعوتهم الى التحرر والوحدة والتآلف وإحياء اللغة العربية والحثّ على التعلّم والتطور ومواكبة العصر، والحضّ على تحرير المرأة وتعليمها ونشر المعرفة وتهذيب النشء والأخذ بركاب العلم، والتشبّه بالبلدان الراقية، وتمثّل الدول المتطورة، وإلا بقينا نعاني من تسلّط الاستعمار والتبعيّة والتخلّف.

وكذلك يتوجب علينا أن نحيي ذكرى هؤلاء الرجال العظام الأفذاذ، وان نبيّن ما بذلوه من جهد وما قاموا به من عمل، وما نبّهوا اليه وما حذّروا منه.

والأهم من ذلك كله أن نتعظ بما فعلوه، ونأخذ العبر مما سعوا اليه ونستفيد مما حققوه. فقد أدركوا بحدسهم أن الوحدة خير للوطن، وان لا خلاص لنا إلا بالوحدة، وان التحرّر هدف يستحق أن يموت الانسان من أجله.

... لقد كان هؤلاء الرجال العظام في ما كتبوا وألّفوا وحققوا بمثابة مشاعل مضيئة تنير السبيل وتمهّد الدرب للأجيال التي جاءت بعدهم فكأنهم منارات تُهدي التائهين، وصُوَىً ترشد الضالين، وحافزاً يحث المتلكّئين.

فما أحوجنا اليوم إلى أن نهتدي بهديهم ونضحّي في سبيل أوطاننا كما ضحّوا هم، ونعمل كما عملوا، وندعو إلى الوحدة والإلفة وترك التعصب ونبذ التفرقة. ونسعى إلى رقي مجتمعنا. ونعمل لخير أمتنا، ونتوحد لصدّ أعدائنا ونذود عن حياضنا وندافع عن كرامتنا، وإلا سنبقى عالةً على الآخرين ومطمحاً للدول الامبريالية الطامعة بنفطنا وثرواتنا الهائلة، غافلين عن خطر الصهيونية الذي يتهددنا شرّ تهديد.

... فلهذه الأسباب مجتمعة، ولسواها، نرى أن إحياء تراث هؤلاء الرواد ونشر ما لم يُنشر من كتبهم ومؤلفاتهم، وإبراز دورهم النهضوي، أمر يهم أمتنا جمعاء، ويجعلنا نتمثّل أعمالهم ونهتدي بهديهم ونعمل مخلصين لخير أوطاننا ورفع شأن أمتنا، وذلك لن يكون بالكلام الفارغ والأعمال الهامشية والشعارات، بل بالجد والمثابرة والإقبال على العلم ومواكبة العصر، وبالوعي الاجتماعي وتحرير المرأة العربية واعطائها حقوقها لتلعب دورها في المجتمع، وبالتطور التكنولوجي الذي لا مناص لنا منه اليوم لكي نتبوأ مكانة مرموقة بين الأمم. فها ان ثقل التطور والتقدم العلمي أخذ ينتقل من أوروبا وأميركا إلى اليابان، وهي دولة آسيوية، فاليابان ـ وهي ليست أغنى منا بثرواتها الطبيعية، وليس تاريخها أهم من تاريخنا ـ ستكون الدولة الأولى في القرن الواحد والعشرين. فماذا ينقصنا نحن العرب ـ وفي وسط أمتنا زرعت دولة إسرائيل المغتصبة ـ أن نُقدم على العلم ونلحق بركب الحضارة؟ وإلى متى سنبقى متخاذلين نعيش على هامش الحياة؟ أو نظل عالة على الآخرين؟!».

هذا الكلام ينسحب أيضاً على إبراهيم اليازجي الذي كان متشعب النشاطات متنوع المزايا والمواهب. فهو أديب وعالم ولغوي وصحافي وشاعر وناقد أدبي وداعية تحرر نهضويّ وواضع مصطلحات لغوية جديدة.

وقد ورد في مجلة المقتطف[٢]:

«لا مشاحة في أن شمس المعارف التي غربت عن بلاد المشرق منذ قرون كثيرة بزغت أشعتها ثانية في أوائل القرن التاسع عشر ثم زادت إشراقاً منذ نحو أربعين عاماً لما أخذت مطبعة بولاق الأميركية في مصر ومطبعة المرسلين الأميركيين في بيروت تنشران الكتب العلميّة، التي ترجمت في مصر والشام من اللغات الأوروبية وتطبعان كتب الخط القديمة والكتب الحديثة التي ألّفها بعض النابغين في القطرين. ويُعبّر عن ذلك بالنهضة العلميّة الحديثة. وقد زادت هذه النهضة ظهوراً بعد أن كثرت المدارس والمطابع في بيروت ونُشرت الجرائد العلميّة فيها وفي القطر المصري. والفضل الأول في هذه النهضة للمرحوم محمد علي باشا أصل العائلة الخديوية ورجاله، ثم للمرسلين الأميركيين والأوروبيين في القطر السوري والقطر المصري، ثم للذين تعلموا وعلّموا وعكفوا على التحرير والتحبير في القطرين».

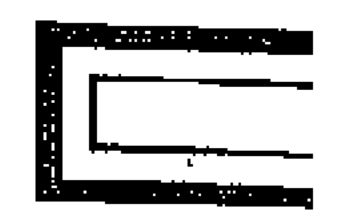
يتضح من هذا الكلام أنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد ـ أي يوم مولد إبراهيم اليازجي ـ بدأ ما أخذ يعرف بعصر النهضة أو اليقظة العربية الذي تجلّت فيه الدعوة إلى الإصلاح والميل الى استعادة الوعي والمطالبة بالتغيير والنهوض والعصرنة، وكذلك بالوحدة والترقي والتطور ومواكبة العصر والأخذ بركاب العلم والدعوة إلى العقلنة كما نجد عند الدكتور شبلي الشميّل (١٨٥٣ ـ ١٩١٧) مثلاً.

والنهضة لا تأتي طفرة بل هي نتيجة عمل دؤوب متواصل. والتقدم ليس له مفهوم خاص ثابت في كل زمان ومكان. ولكن هناك ثوابت وأشياء مشتركة لا بد للتقدم في أن يأخذ بها مثل: الدعوة إلى التعلم وتسخير العلم في خدمة الإنسان والاقبال على الثقافة والتكنولوجيا والاقتصاد والسياسة والعقلنة والتأثر بروح العصر. فالثقافة ليست جامدة بل هي متحركة ومتطورة. وهناك إلى ذلك التحرر من الرواسب والتقليد والتبعية والجهل.

ولكي نفهم واقعنا اليوم يجب أن نقف على المراحل التي مرّت بها ثقافتنا ونتلمس طريق الحضارة التي تسعى إلى تحرير الفكر من الجمود واتباعه السلفية والتقليد وشق سبيل يؤدي إلى الوعي.

ونحن في كتابنا هذا سنقف عند سيرة الرجل دون استطراد واسترسال ونتناول مكانته في عصره من خلال كتاباته ومواقفه وآرائه التي عبر عنها في مقالاته العديدة التي نشرها في الصحف وخاصة في المجلات التي شارك في إصدارها أو التي أصدرها والتي سنتناولها فيما بعد.

ولئن كان اليازجي الكبير قد عُرف أكثر ما عُرف في إسهامه في القضايا اللغويّة، واهتمامه باللغة العربية واحيائها وضبط قواعدها ووضع المفردات العربية والمصطلحات العلمية الجديدة، فهو إلى ذلك كاتب وصحافي له أسلوبه المتين، وشاعر وناقد له آراء جريئة في النقد، وصاحب أفكار تقدمية، وهو داعية إلى التطور والتقدم والتعلّم والرقيّ والإصلاح والتنوير، وفوق ذلك كله مترجم قدير.



٢ إبراهيم اليازجي الرجل

يورد المؤرخ العلّامة عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩ ـ ١٩٥٦)(٢) أن أصل أسرة اليازجي يرجع إلى حوران ومنها انتقلوا إلى حمص في القرن الخامس عشر للميلاد حيث قام بعضهم بوظيفة كتّاب لولاة حمص فلقب جدّهم بـ «اليازجي» وهي كلمة تركيّة تعني «كاتب» فأصبح هذا اللقب عَلَماً لشهرتهم. ثم انتقل بعض فروع هذه الأسرة إلى دمشق ومرمريتا في حصن الأكراد ومنها إلى لبنان ووادي التيم.

وفي أواخر القرن السابع عشر للميلاد (١٦٩٠) جاء من حمص سعد اليازجي حيث نزل في بلدة الشويفات وأصبح كاتباً للأمير أحمد المعني آخر حكام لبنان من المعنيين. فنال حظوة لديه وفاز بلقب «شيخ» فلزم هذا اللقب الأسرة فيما بعد.

أنجب سعد ثلاثة أولاد ذكور هم جنبلاط ونجم وبان. ترك جنبلاط ثلاثة ذكور هم ناصيف ونصار وأبو زيدان.

وناصيف اليازجي هذا هو الجد الأكبر للعائلة الذي أعقب عبدالله الذي أنجب ثلاثة ذكور هم ناصيف ونصار الذي توفي ولم يتزوج، وراجي.

والشيخ ناصيف المشهور بمعارفه اقترن بالآنسة صابات الشامي من آل الطويل الدمشقيين نزلاء دير القمر عند الأمير بشير الشهابي حاكم لبنان في تلك الأيام. رزق الشيخ اثني عشر ولداً: ستة ذكور وست إناث عرف أكثرهم بالأدب والشعر.

وفي ذلك يقول الشاعر قيصر بك المعلوف كما ينقله لنا عيسى اسكندر المعلوف (ص ١٢٨ ـ ١٢٩) مشيراً إلى الذين نبغوا من اليازجيين ابناء الشيخ ناصيف ذاكراً اسماءهم واسماء المجلات التي انشؤوها:

اليازجيون الكرام بعلمهم ملكوا البيان وشرّفوا التأليفا

فلهم على لغة الاعارب نعمة   لم ينسَها من يذكر المعروفا
هذي مآثرهم سمت بنبوغهم   فإذا عددت فقد عددت الوفا
وإذا وصفتهم فرادى لم تجد   إلّا مثقفة النُهى وثقيفا
من (وردة) حبت الرياض بعرفها   نفحتك من طُرَف البديع طريفا
أو من (حبيب) أو (خليل) حلّقا   نثراً ونظماً شائقاً وشريفا
بيراع (ابراهيم) تبرٌ سائلٌ   أغنى (البيان) وأشبع التصريفا
فإذا جرى في الطرس وقع صريره   خطُّ (الضياء) مباحثاً و(حروفا)
أما فروع (اليازجي) فكلهم   حَذِقَ الفنونَ وزادها تعريفا
وكفى بهم فخراً اذا انتسبوا زها   مجدُ العروبة إنْ ذكرتَ (نصيفا)
بحر العلوم وجهبذ الشعراء كم   أدنى الثمار الطيبات قطوفا
لا بدع يا عيسى إذا عززتهم   فالحر بالأحرار بات شغوفاً
فاهنأ بسفر خالد غذيته   فغدا بطيّب ذكرهم (معلوفا)

ثم يتناول عيسى اسكندر المعلوف في سلسلة مقالات نشرت في مجلة المقتطف[٤] سيرة ابراهيم اليازجي فيقول (ص٤٨٤ ـ ٤٨٥):

«هو ابراهيم بن ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي الحمصي ولد في بيروت في ٢ آذار (مارس) سنة ١٨٤٧م في بيت كان عماده اليازجي الأكبر نجعة الطلاب وشرعة الآداب مكباً على التأليف والتصنيف ونظم القصائد والتواريخ الشعرية واجابة مراسليه من كبار أدباء عصره في الشام والعراق ومصر وبعض مستشرقي الأوروبيين وكثيراً ما كان ذلك البيت مجمعاً لكبار مرسلي الافرنج وأدباء بيروت ولبنان يختلفون إليه لاقتباس المعارف وتصحيح ما يكتبون من منظوم ومنثور إلى غير ذلك مما انشأ في «البنين رغبة في العلم والتحصيل فنشأ (ابراهيم) على آسال والده وتلقى عليه اللغة العربية وعكف على المطالعة فبرع فيها على حد قول ابن شقيقته الشيخ نجيب الحداد:

ورث العلوم وزادها من عنده   كالمال زيد عليه من أرباحه

فنبغ في المنثور والمنظوم والآداب وهو بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من سنيه ونظم بعض القصائد وكان يختلف إلى مطبعة الأميركان في بيروت أيام كان والده يصحح مطبوعاتها فولع بمعرفة تركيب آلاتها والوقوف على حروفها ونقوشها ونحو ذلك فشبّت فيه رغبة في الصناعة وكان شقيقه المرحوم الشيخ نصار متقناً لصناعة

الصياغة وكثيراً ما يساعده في بعض النقوش فمال إلى اتقان الحفر وصنع الحروف وتأنق في إجادة الرسم والخطّ فأصبحت حياته أشبه بمثلث ملأت أعمالُه فراغه وكادت أضلاعه تكون متساوية لحرصه على اتقان كل ما يرغب فيه ونقطه الثلاث هي النظم والنثر والتفنن (معرفة الفنون الجميلة) فمن هذه النقط الثلاث اشتهربأنه ناظم وناثر ومتفنن».

أما فؤاد أفرام البستاني فيقول عنه ما يلي(٥):

«ولد إبراهيم بن ناصيف بن عبدالله اليازجي في ٢ آذار (مارس) سنة ١٨٤٧(*) في بيروت، حي زقاق البلاط، حيث نزل والده، بعد رحيل الأمير بشير، منتقلاً من كفرشيما، وكان إبراهيم الثامن من أولاده. والخامس في صبيانه. (أنجب ناصيف اليازجي ١٢ ولداً نصفهم من البنين وهم: حبيب ونصار وفارس وعبدالله وإبراهيم وخليل والنصف الآخر من البنات وهنّ: حنّة ومريم ووردة وسارة وآسين وراحيل). نشأ في جوّ من الأدب واللغة فتمرن على النظم والنثر منذ ترعرعه، دالاً على ألفة للغة، ومقدرة على التصرّف بأساليب الكلام، وذوقٍ أصيل في التعبير الأنيق التقليدي، مع رغبة في الموسيقى، وميل إلى الصناعات الدقيقة من نقشٍ وحفرٍ وصياغة وتصويره».

وقد ذكر مترجموه أنه كان يحسن الضرب على العود، وانه كان أول من خط روزنامة عربية تعلّق على الحائط.

بدأ الشيخ إبراهيم يمارس التعليم وهو دون العشرين من عمره. فعلّم في المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني التي أسسها سنة ١٨٦٣ في بيروت، وفي المدرسة البطريركية المجاورة للمدرسة الوطنية، في زقاق البلاط. وتخرج عليه عدد من خيرة رجال الأدب والشعر. (منهم الشاعر الكبير خليل مطران).

واشتغل في الصحافة محرراً في جريدة «النجاح»، الأسبوعية في

(*) يذكر الدكتور عمر فروخ في كتابه، **اربعة ادباء معاصرين**، ط ٢ منشورات مكتبة منيمنة، بيروت ١٩٥٢ (ص ٥١) أن مولده في ٢ آذار/مارس ١٨٤٨.

بيروت، لصاحبيها يوسف الشلفون ورزق الله خضرا[٦]. كما كان يكتب في جريدة «التقدم»[٧] وفي مجلة «الجنان»[٨].

بينما يقول عنه الدكتور شبلي الشميّل ما يلي[٩]:

«كان الشيخ إبراهيم كأبيه في ما خصّ المحافظة على اللغة وهو إمام المنشئين العصريين الواسعين. وأول ما ظهرت مقدرته الكتابية في مناقشة احتدمت بينه وبين الشيخ أحمد فارس الشدياق على أثر وفاة أبيه وانتقاد أحمد فارس له في معرض التأبين وكان موضوع الانتقاد على ما أذكر لفظة «فطحل»[*] لأنها وردت في مقامات الشيخ ساكنة الثاني وقد يكون ذلك غلطاً مطبعياً وهو من المباحث اللاهوتية الأدبية. فانتصر الشيخ إبراهيم لأبيه فحمل عليه الشيخ أحمد فارس وقابله بكلام جارح على أسلوب الناس في المناقشة في ذلك العهد فقام الشيخ إبراهيم وردّ عليه رداً طويلاً بليغاً ظهر فيه أنه كاتب مقتدر وضمّنه بيتين دلّا على أدبه الجمّ ونفسه الكبيرة:

ليس الوقيعة من شأني فإن عرضت   أعرضتُ عنها بوجه بالحياء ندي
إنـي أضنُّ بعـرضي أن يُلِمّ بـه   غيري فهل أتولّى خرقه بيدي؟!

وكان شاعراً مجيداً إلا أنه ترك الشعر لأنه رآه كما كان حتى عهده صناعة التبذل في المدح والاستجداء. ولطالما قلت له لما كان في مصر أن ينظم ديواناً على نسق شعراء الافرنج والطبيعة واسعة والآثار كثيرة والعبر التاريخية شهيرة. ولكنه لم يكن به ميل إلى ذلك ولو كان به لما استطاع وسوق الأدب غير نافقة وأسباب المعيشة غير متسعة له».

ثم يتابع قائلاً:

«وفضـل الشيخ إبراهيم في علوم اللغة وآدابها لا ينكر وإنما فضله الأكبر في نظري هو في صنع حروف الطباعة. فقد عمل لذلك

(*) الصواب ان الكلمة هي «فحْطَل» التي وردت في كتاب الشيخ ناصيف اليازجي، مجمع البحرين، محرّفة بدلاً من «فطْحَل» وهو خطأ مطبعي. ولعله اتخذ من هذه الكلمة ذريعة لمهاجمة الشيخ ناصيف بعد وفاته فهبّ ابنه الشيخ إبراهيم يدافع عنه ويرد على أحمد فارس الشدياق صاحب **الجوائب**. وينتقد ما ورد من أخطاء في كتابه، **سرّ الليال في القلب والإبدال**. وقد نشرت هذه المناظرة اللغوية على صفحات مجلة الجنان، المجلد ٢ (١٨٧١): ٤٠٨، ٥٢٢، ٧٢٩، ٧٦٥، ٨٠٦، ٨٣٥ و٨٤٢.

عدّة أجناس أكثرها شيوعاً جنس ٢٤ وجنس ١٦ عملهما في بيروت وجنس عشرين عمله في مصر أو بالحري صبّ حروفه في مصر. ومعظم الحروف الخارجة من معمل سركيس في بيروت والمسماة باسمه والمنتشرة كثيراً في المطابع العربية في الأقطار السورية والمصرية والأميركانية هي من صنعه».

وإلى ذلك يذكر عيسى اسكندر المعلوف[١٠] عنه انه كان يمارس الرسم فيقول إنه رأى عنده بعض رسوم رسمها بريشته منها صورته التي صوّر فيها نفسه على المرآة فكان الناظر اليها يدهش من اتقانها ولا يكاد يصدّق ان صاحب الصورة هو المصوّر. ثم يضيف:

«ومن مميزاته نبوغه بعلم الفلك ورصد الأجرام السماوية».

أما عيسى ميخائيل سابا فيقول عنه[١١] مضيفاً:

«وكتب أيضاً في مختلف أغراض الكيمياء والفيزياء والطبيعيات والطب، فأظهر في كل منها اطلاعاً واسعاً ونظراً ثاقباً وفهماً بعيداً لشوارد الأمور ودقائقها، وقد نبّه إلى فوائد علمية كان قد اكتشفها باختباره وانصبابه على المطالعة والبحث».

ولا شك في ان في هذا الكلام مبالغة كبيرة فاليازجي كان يترجم وينقل هذه العلوم لينشرها في مجلاته وخاصة في «الضياء». ولا شك في أنه كان ميالاً إلى العلوم وكان مطلعاً على بعض ما ينشر في هذا الحقل في زمانه.

أجمع الذين كتبوا عنه انه كان رجلاً بسيطاً متواضعاً لا يأبه بالغنى ولا يطلب الشهرة. وكان ربع القامة نحيف البنية عصبيّ المزاج ذكي الفؤاد حاضر الذهن سريع الخاطر لا يمل مُجالسه في محادثه. وكان شديد الحرص على كرامته. وقد انتدب سنة ١٨٨٢ ليكون قائم مقام على مدينة زحلة فرفض - بينما يتزاحم سائر الناس على نيل المناصب وتحقيق الشهرة والجاه -. يستدل من ذلك كله أنه كان رجلاً فذاً في سيرته يعمل لخير وطنه وشعبه. ولم يتزوج بل نذر حياته لخدمة أمته. وكان من جراء العمل المتواصل والكدّ أن أصابه المرض فتوفي ولم يبلغ الستين من عمره. كانت وفاته في القاهرة مساء ٢٨ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٠٦. قيل بسرطان الكبد، وقيل بداء المفاصل. فأقيم له حفل تأبيني ضخم شارك فيه

كبار الشعراء والأدباء العرب.. يذكر لنا عيسى اسكندر المعلوف في كتابه السابق الذكر (ص ٩٧) أنه وضع كتاباً جمع فيه المراثي التي قيلت فيه أسماه «مراثي الشيخ إبراهيم اليازجي» يقع في ثلاثمئة صفحة. ذكر فيه أقوال الصحف من مجلات وجرائد وأقوال الشعراء والكتّاب نثراً ونظماً في مأتمه ونقل رفاته وتمثاله وما يتعلق بذلك مما امتاز به أو وجد من آثاره غير مطبوع ويذكر أكثر من خمسين مرثية، وهذا الكتاب لازال مخطوطاً، ومن بين الذين نظموا في رثائه القصائد شبلي الملاط وخليل مطران الذي نظم في رثائه ثلاث قصائد الأولى يوم وفاته يقول في مطلعها:

ربّ البيان وسيّد القلمِ وفّيت قسطك للعلى فنمِ[١٢]

والثانية قالها بمناسبة نقل رفات اليازجي من مصر إلى لبنان سنة ١٩١٣ ومَطلعها:

أحَنَنْتَ من شوقٍ إلى لبنانِ؟ وارَحْمَتا لك من رميمٍ عانِ[١٣]

والثالثة أنشدها في الحفل الكبير الذي أقيم لازاحة الستار عن تمثال اليازجي في بيروت سنة ١٩٢٤ ـ وهو اليوم موجود في حديقة الأونيسكو ـ يقول في مطلعها:

عُدْ لابساً ثوبَ الخلود وعلّمِ بفمِ المِثال الصامت المتكلّمِ[١٤]

فيكون قد عطف على قوله مستخدماً فعل الأمر في قافية مطلع القصيدة الأولى «فنَم » بفعل أمر آخر هو «عُدْ». ويمكن أن نضع مكان «عُدْ» «قُمْ» ليكون الطباق بين «نَمْ» و«قُمْ». ولكن الميت هيهات له أن يقوم. ولم يكتف بهذه القصائد الثلاث بل قال فيه نثراً يظهر اعجابه به واحترامه له ـ وهو من قد تتلمذ على الشيخ في المدرسة البطريركية في بيروت وأخذ عنه تمكنه من اللغة العربية:

«راعني الشيخ بكمال سيرته ورجاحة عقله وسعة معارفه وإحاطة خبرته بالناس، فلزمته لزوم المتأدب والمريد زمناً طويلاً، ولا أبالغ بقولي إنه كان الإنسان في ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب، فقد كان الشيخ من أقل الناس عيوباً، بل أقول ولا أبالي عاقبة التصريح على سمته، إنّ كل ما تمنيت على الله أن يزيده في مناقبه

ومحامده هو خلّة العفو، فقد كان منتقماً لشرفه وشرف بيته، ينتقم مدافعاً لا مبادئاً، وإذا ضربَ ضربَ بتؤدة وتبصّر، ناظراً إلى المقاتل، وقلما تصدّى لخصم إلا تركه صريعاً جريحاً جرحاً مشفياً، على انه لم ينبرِ لأحد الا عن عدل وحق».

ثم يخلص شاعر القطرين إلى القول:

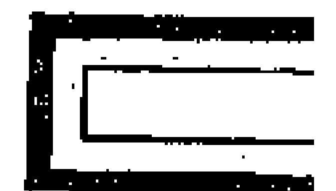
«إن للشيخ مذهباً عاماً في الشعر والنثر وسائر ما يتولاه وهو مذهب الاتقان، لا يخلق جديداً ولكنه يتقن ما يصنعه إلى حد أنك تعزوه إليه وتعرفه بطباعه، فلم ينظم مرتجلاً ولم يكتب إلاَّ محتفلاً، وكان التحقيق فيه خلة لم تبلغ من باحث أو عالم مبلغها منه»[١٥].

ويذكر عيسى ميخائيل سابا (ص ٢٥) ان:

«مبادىء الماسونية آنست قلبه فانخرط في سلك اعضائها وأعجب الناس بجرأته الأدبية ونزوعه إلى المبادىء الحرة والأخذ بكل جديد عن عقل وفهم وإدراك».

ولعل ما يقوله عنه جرجي زيدان يلخص لنا اخلاقه وشخصيته فهو يصفه لنا في كتابه «تراجم مشاهير الشرق» في القرن التاسع عشر[١٦]:

«كان عفيف النفس كثير الإباء ظاهر الأنفة إلى حد الترفع ولا سيما في ما يتعلق بالارتزاق يعد مجاملة الناس في سبيل الكسب تملقاً وكلما قلَّ ماله زادت أنفته وعظم اباؤه وكثيراً ما أراد اصدقاؤه اقناعه ان سُنّة الارتزاق تقضي بمجاملة الناس والتقرب من كبارهم بالحسنى. فربما أطاع ناصحه برهة ثم يعرض له خاطر فيعود إلى الإباء. ولولا ذلك لعاش في سعة وراحة ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته».



٣ مكانته في عصره

بعد ان استعرضنا سيرة الرجل بإيجاز متوقفين عند البارز منها لا بد لنا من ان نضعه موضعه في عصره لتبرز لنا أهميته ومكانته التي يستحق.

لا شك في انه يعد من كبار رجالات القرن التاسع عشر في وطنه ومن الذين طبعوا عصرهم بطابعه. فهو إلى خدماته الجلّى التي قدمها للغة العربية وللطباعة بوضع الأحرف التي تستخدم في الطباعة، قام بوضع مصطلحات ومفردات عربية مستحدثة لنقل المصطلحات العلمية الجديدة عن اللغات الأجنبية التي وضعت أصلاً فيها، لأن الاكتشافات والاختراعات الحديثة كانت من ثمرات جهود علماء الغرب. فإنه قام بضبط ترجمة التوراة إلى العربية ترجمة صحيحة اللغة فقد كلفه الآباء اليسوعيون في غزير(*) سنة ١٨٧٢ الاسهام في ذلك المشروع لوضع ترجمة دقيقة للتوراة نقلاً عن العبرية واليونانية والسريانية واللاتينية إلى العربية وقد عمل في ذلك طيلة حوالي تسع سنوات، مما أسهم في نشر العربية بين النصارى وروّج للكتابة بلغة عربية صحيحة وطليّة وفصيحة ذات أصول عربية عن طريق الاشتقاق والاستعارة والمجاز.

(*) نشرت مجلة المشرق، في سنتها الخامسة والستين الجزء الأول والثاني ١٩٩١ (ص ١٢٨ ـ ١٢٩) مقالاً بعنوان «الشيخ إبراهيم اليازجي والمطبعة الكاثوليكية بين (١٨٧٣ ـ ١٨٨١)»، للأب سامي خوري اليسوعي جاء فيه ما يلي:

«في غزة ١٨٧٢ اقرّ اليسوعيون في بيروت المباشرة بترجمة عربية جديدة للعهد القديم. وكان الاب جوزف روز (Roze) (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) (يسوعي فرنسي)، من اشد المتحمسين للمشروع، فأناط به الرؤساء مسؤولية هذا العمل الطويل المدى، يعاونه الآباء جوزف فان هام (Van Ham) (١٨١٣ ـ ١٨٨٩) (أب يسوعي هولندي)، وأوغسطين رُوده (Rodet) (١٨٢٨ ـ ١٩٠٩) (يسوعي فرنسي)، وفيليب كوش (Cuche) (١٨١٨ ـ ١٨٩٥). وأجمع الراي على الاستعانة بالشيخ إبراهيم اليازجي لصياغة هذا النص الجديد: تهيّىء اللجنة ترجمة حرفية تبرز دقائق الأصول بأمانة كليّة فيضفي الشيخ عليها ديباجته العربية الفخمة.

وتمّ الاتفاق على أن يتقاضى اليازجي من المطبعة الكاثوليكية عن كل ملزمة مطبوعة من ٨ صفحات ستين قرشاً، منها أربعون بدل تنقيح الترجمة وعشرون لتصليح النصّ المنضّد وتسليمه صالحاً للطبع».

[راجع جريدة البشير، ١٦ حزيران ١٨٨١، ومجلة الضياء، ١: ٤٦٧/٤٧١].

ولقد كان لأسلوبه المميز في الكتابة أثره على لغة الكتابة الصحافية. كما عمل أيضاً في التعليم فكان له أبعد الأثر في طلابه الذين أخذوا عنه حب اللغة العربية واتقانها والتضلّع منها والغوص على أسرارها والوقوف على دقائقها. وهذا ما يعترف به طلابه له وعلى رأسهم الشاعر خليل مطران. كما انه راجع كتب الصرف والنحو أو شرح ما كان قد وضعه والده في هذا الميدان مما ساعد على تعلّم العربية. وعمل على ضبط القواميس وتبيان الأخطاء التي وردت فيها. ولغة الجرائد كان لها النصيب الأوفر من اهتماماته فبيّن الأخطاء الشائعة والألفاظ الركيكة التي كان يقع فيها الكتّاب والمنشئون. ويكفي ان نشير إلى مراجعته كتاب «عقود الدّرر في شرح شواهد المختصر» للمعلم شاهين عطية[١٧]. والتعليق على محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني[١٨]. وتصحيح وتنقيح « الفرائد الدريّة» وهو معجم عربي/فرنسي. وكتابه «نجعة الرائد في المترادف والمتوارد» وهو في ثلاثة أجزاء صدر منه جزءان عن مطبعة الآباء البولسيين، في حريصا. كما نقد قاموس «لسان العرب» الشهير ومعجم «تاج العروس». ووضع قاموس «الفرائد الحسان من قلائد اللسان» الذي احترق في مطبعة سركيس.

وفي هذا السياق يقول ميخائيل صوايا[١٩]:

> «إن اليازجي بحبه اللغة العربية وارتياده أصولها وتفهمه عبقريتها أدّى، بمفرده، في أبحاثه الموضوعية والنقدية وفي كتبه المؤلفة لهذا الغرض، عملاً كان منه جلاء جمال هذه اللغة، وظهور قدرتها على الاغتذاء ومجاراة سائر اللغات الحية في النمو والبقاء».

وفي يقينه ان العربية التي استطاعت ان تعبّر عن أدق المعاني والأفكار في العصور الغابرة فانها تستطيع ان تنهض اليوم بنقل المصطلحات الحديثة ومواكبة مستلزمات العصر. وهو لا يرى ان العجز كامن في اللغة نفسها بل هو في تزمت البعض وإحجام البعض الآخر عن النهوض بها، ان العلة في العرب أنفسهم وليست في اللغة العربية. وهو يرى انه يجب النظر إلى اللغة على انها كائن حيّ ينمو ويشيخ، وعلى عالِم اللغة تقع مسؤولية تشذيبها وتطويرها وتحديثها بحيث تصبح قادرة على استيعاب

المعاني الجديدة والمصطلحات الحديثة والمستحدثات العصرية.

اليازجي الكبير كان النموذج الذي احتذاه أدباء عصره وكتّابه فنسجوا على منواله وتأثروا به وحاولوا تقليده فكان بمثابة المشعل الذي أضاء لهم السبيل والبوصلة التي هدتهم إلى التمكن من اللغة العربية.

وباختصار فإن الشيخ ابراهيم اليازجي كان معلماً وأديباً ولغوياً فذّاً وناقداً أدبياً طليعياً وشاعراً وصاحب أثر بارز جعله يعد عن حق رائداً من رواد النهضة في القرن الماضي. وقد أسهم إلى ذلك بوجه خاص في وضع مصطلحات لغوية جديدة وفي صنع حروف الطباعة.

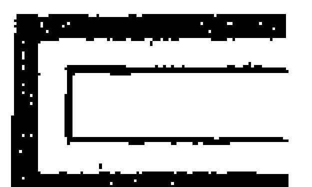
ونكتفي بأن نورد ما قاله عنه فؤاد افرام البستاني[٢٠]:

أما المنشيء فلا نخال كاتباً عربياً، منذ عهد ابن المقفع وبديع الزمان، أدرك ما أدركه اليازجي من سرّ اللفظة والمفردة في مجموع الجملة، ومن سرّ الجملة في الفقرة، ومن سرّ الفقرة في المقالة... متجنباً تكلّف الأناقة إلّا فيما ندر، تاركاً أسلوبه الرائع مثالاً أعلى لمنشئي العرب على اختلاف العصور».

ولا بأس من أن نختم هذه النبذة عن مكانته بأن نورد ما قاله هو عن جمال الدين الافغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) بمناسبة وفاته في مجلته «البيان» السنة الأولى (١٨٩٧ ـ ١٨٩٨) الجزء الثاني أول نيسان/أبريل ١٨٩٧ (ص ٨٦) مما ينطبق عليه هو شخصياً:

«وعجيب من مثل السيّد على استضاءة بصيرته بنور اليقين وضمه بين حاشيتي علوم المتقدمين والمتأخرين ووقوفه على يفاع من الحكمة يجمع الدنيا منه بنظرة ويستقصي أطرافها بلمحة وقد تجردت له عن زينتها وزخارفها وماطت له اللثام عن أباطيلها وسفاسفها ان يبقى في نفسه مكان لشيء منها يقال له الرئاسة وتنزع همته إلى حال من أحوالها تسمى بالسياسة بل ما كان أجدره وقد رزق من توقد الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله وأوتي من قوة الحكم وسرعة الخاطر ما انفرد فيه عن النظراء والأشباه ووعى في صدره من أصناف العلوم العقلية والنقلية ما كان فيه نسيجَ وحده ومن سياسات الممالك وتواريخ الأمم ما عزّ على غيره من بعده أن يُنزل نفسه من دنياه حيث انزلته الفطرة ولا يتعدى ما

قسم له القدر ووجد من نفسه عليه القدرة فيجعل أيامه وقفاً على الاشتغال والنفع واستزادة ما شاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبع وتسطير ما يُفتح به عليه مما غَفَل السلف عن تدوينه أو فاتهم الوصول إليه من علوم هذا العصر وفنونه».



هوامش القسم الأول

(١) **منشورات رياض الريّس للكتب والنشر**، لندن ١٩٨٩ (ص ١١ ـ ١٣).
(٢) مجلة **المقتطف**، المجلد الحادي والعشرون (حزيران/يونيو) سنة ١٨٩٧ (ص ٤٢٥).
(٣) **المشايخ اليازجيين وأصهارهم**، مختصر من كتابه، **الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية**، في مجلدين كبيرين مخطوطين ـ الجزء الأول، في **المشايخ اليازجيين**، والجزء الثاني، في **أصهارهم وبناتهم**، طبعة ثانية منقحة، المطبعة المخلصية دير المخلص ـ قرب صيدا (لبنان) سنة ١٩٤٥. (ص ٦ ـ ٧).
وهو يصدّر كتابه هذا بهذه الأبيات التي يمدح فيها العائلة اليازجية فيقول:

لآل اليازجي جميل ذكر ... بقطر الشرق ذاع إلى المغارب
فكلٌ منهمُ عالي المزايا ... وكلُ منهمُ سامي المراتب
لهم كتبٌ حسانٌ خلّدتهم ... فنالوا السبق في لغة الأعارب

(٤) مجلة **المقتطف**، مجلد ٣٣ (١٩٠٨) الصفحات: (٤٨٤ ـ ٤٩٢) و(٥٥٣ ـ ٥٥٩) و(٦٢٥ ـ ٦٢٨).
(٥) مجلة **الروائع**، عدد ٤٢، الطبعة الأولى المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٢، (ص ٦٧).
(٦) هذا ما يذكره البستاني، بينما جاء في، **مدونة الصحافة العربية**، إعداد الدكتور يوسف قزما خوري، معهد الانماء العربي، مجلد ٣ ط ١ ١٩٨٥ (ص ٣١٧) أن صاحبيها هما يوسف الشلفون ولويس صابونجي.
(٧) أسسها يوسف الشلفون (١٨٧٤)، المرجع السابق (ص ٧٧).
(٨) أسسها بطرس وسليم البستاني (١٨٧٠).
(٩) مجلة **فتاة الشرق**، لصاحبتها لبيبة هاشم، مصر، الجزء الثالث ١٥ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩١٢ (ص ٨٦).
(١٠) **المشايخ اليازجيين وأصهارهم**، الجزء الأول (ص ٦٧).
(١١) **الشيخ إبراهيم اليازجي**، دار المعارف ببيروت ١٩٥٥ (ص ٣٧).
(١٢) **ديوان الخليل**، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان ط ٣ ١٩٦٧، ج ١ (ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢).
(١٣) **ديوان الخليل**، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان ط ٣ ١٩٦٧، ج ٢ (ص ٢٩ ـ ٣١).
(١٤) **ديوان الخليل**، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان ط ٣ ١٩٦٧، ج ٣ (ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨).
(١٥) عيسى ميخائيل سابا، **الشيخ إبراهيم اليازجي**، دار المعارف ببيروت ١٩٥٥ (ص ٣٢) نقلاً عن مجلة **النفائس**، (ص ٢٦).
(١٦) منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت (لا. ت) الجزء الثاني ص ١٤٩.
(١٧) نشر في بيروت سنة (١٨٨٧ ـ ١٨٨٨).
(١٨) نشر تعليقاته هذه، **تنبيهات اليازجي على محيط المحيط**، الدكتور سليم شمعون (ابن شقيقته الشاعرة وردة اليازجي) وجبران النحاس، صدر عن الاسكندرية ١٩٣٢.
(١٩) **إبراهيم اليازجي حياته ـ آثاره**، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت ط ١ ١٩٦٠ (ص ٤٣).
(٢٠) مجلة **الروائع**، عدد ٤٣ (ص ١٤٤).

القسم الثاني

اليازجي ناثراً

١

اليازجي صحافياً

مارس اليازجي الصحافة باكراً بدءاً بمجلة «الجنان» للبستاني ثم في مجلة «النجاح»[1] ليوسف الشلفون والقس لويس صابونجي سنة ١٨٧٢. وكتب في جريدة «التقدم» التي أصدرها يوسف الشلفون في سنة ١٨٧٤، كما تولى تحرير مجلة «المصباح» لنقولا نقاش وجان نقولا نقاش التي صدرت في أول سنة ١٨٨٠. ثم أصدر مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة مجلة «الطبيب»[2] (١٨٨٤) ولكنها لم تعمر طويلاً. ولما اشتدت الرقابة على الصحافة وحرية التعبير رحل إلى مصر، شأن العديد من اللبنانيين، حيث أنشأ مع صديقه الدكتور بشارة زلزل مجلة «البيان» (١٨٩٧) التي لم تدم أكثر من عام. ثم انصرف بمفرده الى إصدار مجلة «الضياء» الشهيرة التي صدر عددها الأول في ١٥/٩/١٨٩٨ فعاشت إلى حين وفاته في سنة ١٩٠٦ فصدر منها ثمانية مجلدات.

هذه هي رحلة اليازجي مع الصحافة التي استمرت من ١٨٧٠ إلى ١٩٠٦. لم يكن اليازجي صحافياً عادياً أو مجرد محرر أو كاتب يدبّج المقالات بل كان استاذاً في هذا الفن ومجدداً في هذا الحقل الذي لم يكن إلاّ في بداياته.

يفيدنا جرجي زيدان عن سبب هجرة اليازجي إلى مصر لمتابعة أعماله الصحافية التي كان قد بدأها في بيروت فيقول[3]:

> «رأى اليازجي الآداب العربية والصحافة قد تحولتا إلى مصر بما أطلق فيها من حرية الاقلام والأقوال فعزم على المجيء إليها لإنشاء مطبعة ومجلة علمية، واتفق على ذلك مع الدكتور زلزل شريكه في «الطبيب» فبرح الشيخ مدينة بيروت سنة ١٨٩٤م وعرّج ببلاد الافرنج أعد بها بعض ما يقتضيه مشروعه من الآلات ونحوها ثم جاء القاهرة وانشأ مع زميله المشار إليه مطبعة البيان وأصدرا مجلة «البيان» سنة ١٨٩٧م ثم حجباها بعد سنة وافترقا. واستقل الشيخ بانشاء «الضياء» سنة ١٨٩٨م وهي مجلة علمية أدبية صحيّة صناعية اشتهرت بمتانة انشائها وفصاحة عبارتها وبلاغة اسلوبها».

وهكذا نجد ان اليازجي عندما قرر مغادرة بيروت إلى القاهرة(*) لمتابعة عمله الصحافي قد فعل ذلك لأنه لم يعد يستطيع ان يمارس مهنته تلك في جو من الحرية بسبب القمع والاضطهاد والتضييق على الحريات، كان قد أصبح صحافياً بارزاً راسخ القدم واسع الشهرة. وهو بقراره الذي اتخذه هذا قد فعل ما فعله العديد من كبار زملائه اللبنانيين امثال جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) الذي أنشأ مجلة «الهلال» (١٨٩٢)، ويعقوب صروف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧) وفارس نمر (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) اللذين أنشآ مجلة «المقتطف»(**) والأخوين سليم تقلا (١٨٤٩ ـ ١٨٩٢) وبشارة تقلا (١٨٥٢ ـ ١٩٠١) اللذين أسسا جريدة «الأهرام» (١٨٧٥) وكثير غيرهم فكانوا أصحاب الفضل في بعث النهضة الصحافية في مصر. وبعض هذه الصحف والمجلات لا يزال مستمراً في الصدور حتى يومنا هذا مثل

(*) حول هذا الموضوع يقول الدكتور عبداللطيف حمزه في كتابه، الصحافة والأدب في مصر، محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية (١٩٥٥) (ص ٢٤ ـ ٢٥):

> «لا ينبغي للباحث المنصف أن يغفل الاشارة إلى (السوريين) الذين نزحوا الى الديار المصرية ليتمتعوا فيها بحرية نسبية كانوا محرومين منها في بلادهم الاصلية وفي مصر اعان السوريون على ظهور (الصحافة) واتخذوا منها ومن جهودهم الأدبية الأخرى اداة لنشر الثقافة الاوروبية التي تعلموها في بلادهم. وكانت هذه الثقافة الاجنبية فرنسيّة الطابع في اكثرها».

(**) تأسست في بيروت سنة ١٨٧٦ ثم انتقلت إلى القاهرة سنة (١٨٨٥) وليس سنة (١٨٨١) كما يقول يوسف اسعد داغر في، مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الثاني (ص ٥٢٤).

«الهلال» و«الاهرام». وقد اصبح عمرهما قرناً من الزمن أو يزيد.

وإلى ذلك يكون لجو الحرية النسبية في مصر اسهام في انتقاله من بيروت إلى القاهرة.

وهو يقول لنا في افتتاحية «الضياء» في سنتها الأولى عن سبب إنشائه «البيان» ومن ثم «الضياء»:

«فأنشأنا لذلك مجلّتنا المعروفة بالبيان وأصدرناها لنشر كل ما تمثلت لنا فيه فائدة للأذهان أو دُربة للفكر واللسان مما ارتاح إليه كل عارف من ذوي الأبصار واعترف له كل منصف بالاستحسان والإيثار. غير انه لقدر من الأقدار طرا عليها ما أوجب توقفها قبل استيفاء سنتها الأولى».

ثم يضيف:

«وهذا صنوه الضياء نبرزه من بعده متحلياً بآساله جارياً في طريقته وناسجاً على منواله نتابع العمل فيه على وجهه من انتقاء المباحث العلمية والأدبية والتنقيب عن الفوائد الصناعية والمكتشفات العصرية مع ايراد فصول صحية نعتمد فيها على أقلام بعض ثقات الأطباء وزيادة أغراض اخرى مما يلائم ذوق عامة القراء».

ثم يقول في مقال له عنوانه «الجرائد في القطر المصري»[٤] ينتقد فيه الجرائد والصحف التي كانت موجودة في القطر المصري لأنها لم تكن تعبر عن طموحات الشعب ولا تأبه لمصالحه وإصلاحه ولا تهتم بنهضته ولا تلبي حاجاته بل هي تتلهّى بنشر أخبار سياسية بعيدة عن اهتماماته. فمن واجب الصحف ان توجّه الناس وتقدم لهم الأخبار المفيدة وترشدهم إلى سواء السبيل:

«... بيد انك إذا تفقدت تلك الجرائد وجدت أكثرها بعيداً عن المنزع الذي تقتضيه حالة القطر غير متلق تلك النهضة بما يرفع الأمة من كبوتها ويقتادها في الوجهة التي هي طريق سعادتها وفلاحها لأن أكثرها على تعدد نزعاتها واختلاف مذاهبها لا خطة لها إلاّ أحاديث السياسة ومزاعم أربابها تتلو على القراء في هذا القطر

ما يُتحدث به في مجالس لندرا وبرلين وما يتخرّص به سياسيّو باريز وبطرسبرج...».

إلى أن يقول:

«لكنك تجد كل ما هناك من الخلل في أحوال الأمة والفساد في أخلاقها وآدابها مسكوتاً عنه لا تكاد تذكره الجرائد إلّا عندما تلطخ وجوهها بشيء من سيئات بعض الجهلة وما يجري على ايديهم من المنكرات والفظائع ثم لا تجري له من بعدُ ذكراً ولا تتنبّه لشيء تُدخله على نفوس قرائها وتدعوهم للتنبه إليه والتضافر عليه سوى ما أومأنا إليه قبلُ من الطامة التي سال سيلها في البلاد وامتدت بها اعراق الشرّ والفساد ألا وهي ما أولع به بعض الصحف الحالية من دسّ روح الشقاق في صدور الأمة وايقاد نيران التعصب الديني الذي هو احدى آفات الشرق بل أعظم أسباب ما لحق به من الدمار والاضمحلال ومنبع ما انبثق عليه من الشؤم والوبال. كأن تلك الصحف لم تجد في كل ما ذكرناه من المفاسد المُحيقة بالبلاد ما هو حقيق بأن تتداركه بالتعديل والاصلاح سوى هذه المصافاة بين القلوب ترميها بالمنافرة والشقاق وهذه الهوادة في الدين تبدلها بالتعصب والتحمس على ما بين القوم من التلازم والجوار وعلى ما ببعضهم من الجهل والتهوّر وأنهم ليس عندهم من معرفة حدود الدين والائتمار بأوامر العقل ما يقف بهم عند حد الرفق والاعتدال وكأنها لا ترى في كل ما ناب البلاد من التأخر والوهن والتهافت في دركات الخمول والهوان والانغماس في ردغات الذل والفقر مصرفاً لتلك الأقلام عن هذا السبيل الذي يزيد الأمة على وهنها وهناً ويفتّ في اعضاد جامعتها ويوهن ركن اتحادها ويفصم عروة اجتماعها ويقذفها في هوة الخراب».

واضح من هذا الكلام أنه فهم رسالة الصحافة الإصلاحية والتوجيهية فهي لا تقف عند حد نقل الأخبار ونشرها. وليس من أهدافها بث الفتن وزرع الشقاق والتفرقة بين أبناء الوطن بل الدعوة الى التماسك والاتحاد وعدم السكوت عن المفاسد والمظالم. وهو لا يكتفي بأن يلوم هذه الصحف على تقاعسها بل إنه يحمّلها مسؤولية إفساد الأخلاق لأن الجرائد من العوامل الأساسية التي تؤثر في أخلاق الناس وعاداتهم

ومعارفهم وهو يطالب بأن تكون لغتها لغة صحيحة لأن القراء يتأثرون بأسلوب الجريدة التي يقرؤون وباللغة التي تكتب بها فإذا كانت ركيكة أو فيها خطأ أو لحن انتقلت عدوى ذلك إليهم مما يؤدي إلى فساد لغتهم.

إذن إنه ينظر الى الصحافة على أنها مدرسة للأخلاق والوطنية والوحدة والتآلف والتوعية والحث على مكارم الأخلاق بين المواطنين. وهو لا يبعد عن جادة الصواب في ما يقول لأن للصحافة دوراً هاماً في توجيه المجتمع ورصّ الصفوف بين المواطنين وردع صاحب السلطة عن التمادي في الغيّ والأثرة. ثم ينهي مقالته هذه مستثنياً رجال الصحافة القادرين والواعين الذين يشرفون المهنة. ومطالباً بسن قانون للمطبوعات يكون الرادع للمتطفلين والعابثين والمفسدين لأن التقييد في مثل هذا المقام خير من الحرية فعسى أن:

«تتمخض بعد ذلك للخير وتعتصب على ما يرفع شأنها بين القراء وفي عيون الحكومة نفسها».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كتب سلسلة مقالات نشرت تباعاً في مجلته «الضياء» تحت عنوان «لغة الجرائد» ينتقد فيها اللغة الركيكة التي يكتب بها البعض ويبين الهنات والأخطاء الشائعة ويصوّبها وقد جمعت هذه المقالات بعد وفاته وصدرت في كتاب[*].

ولكي تظهر لنا مكانته في حقل الصحافة يتوجب علينا أن ندرك حال الصحافة في ذلك الوقت ولنترك عيسى ميخائيل سابا يحدثنا عن ذلك[٥]:

«نشأت الصحافة في لبنان وعليها طابع من الركاكة كان نهاية المطاف للانحطاط الأدبي في العصر العثماني فضلاً عن الأوضاع العامية وألفاظها، فأنقذها من غثاثة عباراتها رجال أعلام كانوا في طليعة النهضة، أمثال أحمد فارس الشدياق والمعلم بطرس البستاني وولده سليم، وأديب اسحاق، على أن ذلك النشاط كان بحاجة قصوى إلى من يسدد الأقلام ويسدّ الثلمات التي اتسعت

(*) لغة الجرائد، جمعها مصطفى توفيق المؤدي، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٠١. كذلك طبعها الأب جرجي جنن البولسي.

في ما يكتبه الكتّاب، فانبرى له اليازجي وكان أول ما أخذ نفسه به هو إصلاح لغة الجرائد».

وخلاصة القول إن اليازجي مارس الصحافة على أنها رسالة غايتها خدمة مصالح أمته وليس جني الأرباح أو تحقيق أهداف شخصية. ولما كان وطنياً في توجهاته فهو يهاجم الجرائد التي تكرر نشر الأخبار الأجنبية التي تردها على شكل برقيات منقولة عن لغات أجنبية. وهو يطالب هذه الجرائد بدلاً من أن تنقل أخبار السودان مترجمة عن مراسلي الصحف الأجانب أن تهتم بشؤون السودان وأن تتولى مهمة التوجيه ونشر المواضيع التي تهم الناس والحثّ على إحياء المصانع وتنشيط الزراعة ونبذ التعصب ودسّ سموم التفرقة. إن رسالة الصحافة في رأيه توجيه الناس وتنويرهم وتهذيبهم وإصلاح أخلاقهم وأحوالهم.

وهو يحمّل بعض الجرائد تبعة إذكاء الخلاف الذي ذرّ قرنه بين الناس ويطلب من الكتّاب أن يكتبوا الأخبار الصادقة وينقلوا ما يفيد الناس ويهدف إلى الإصلاح وخدمة المصالح العامة.

فالجرائد في وطن من الأوطان هي مرآة لرقيّه وللمستوى الذي بلغه الناس من العلم والرقي والتقدم.

وهو مدرك أيضاً أن الجرائد تؤثر في الناس بلغتها وأسلوبها لذلك يجب أن تكون لغتها صحيحة حتى لا تكون وسيلة لتعليمهم على الخطأ واللحن والأسلوب الركيك. كما سبق وأشرنا.

وهو يقول في افتتاحية مجلة «البيان» [٦] داعياً إلى الأخذ بركاب العلم ومبيناً الدور الهام الذي يلعبه في حضارة العصر ان المجلات (ومنها البيان) هي الوسيلة لنشر العلوم وتنوير الناس وتثقيفهم:

«وليس في سرعة انتشار العلم أعون من هذه المجلّات العلمية على أصنافها الموكلة بنشر كل ما يحدث في عالمي العلم بأنحائه والصناعة بأطرافها فإنها لم تبرح العامل الأعظم في شيوع المباحث العلمية بين طبقات الناس على العموم وتقريب مداركها على غير المتعلم فضلاً عمن شدا شيئاً من العلوم إذ هي تلقّن العلم أجزاءً

متفرّقة يتناولها المطالع من أيسر سبيل وتلقي إليه زبدة الحقائق محصلة دون أن تكلفه معاناة التحصيل وذلك مع ما فيها من تنوّع الأغراض بحيث يجد فيها كل واردٍ مشرعاً وتشعّب طرق البحث بما لا يعدم منه كل رائدٍ منجعاً فهي جليس العالِم وأستاذ المُريد والموعد الذي يتلاقى فيه المفيد والمستفيد بل هي خطيب العلم في كل ندوة وبريده إلى كل خلوة والمشكاة التي تستصبح بها بصائر أولي الألباب والمنار الذي تأْتمُّ به المدارك إذا اشتبهت عليها شواكل الصواب».

ثم يقول:

«فأنشأنا هذه المجلة التي دعوناها بالبيان نضمنها من ذلك كل ما فيه تثقيف للأذهان أو تحضيض على الجدّ في سُبل العرفان وننشر فيها جميع ما يتصل بنا من مبتكرات هذا العصر الزاهر وما طواه كرور الأيام من حسنات الدهر الغابر خصوصاً ما كان من مآثر الأمة العربية وما لها من الآثار العلمية والأدبية مع إعمال الجهد في إحياء لغتها التي هي افصح ما اختلج به لسان وتدارك ما طرأ عليها من النقص بما اعتور أوضاعها من الإهمال والنسيان أو ما خلت عنه من الأوضاع العصرية التي زادت بزيادة مدارك العلم ومطالب العمران».

٢ اليازجي لغوياً

من المعروف عنه أنه كان لغوياً متمكناً من العربية وانه أسدى اليها خدمات جُلّى. ليس فقط في أسلوبه وفي ما ألّف من كتب في اللغة أمثال: «نجعة الرائد في المترادف والمتوارد» و«الفرائد الحسان من قلائد اللسان» وهو معجم ضمّنه ما وضعه من أسماء وصفات المستحدثات العصرية. و«تنبيهات اليازجي على محيط المحيط للبستاني». و«لغة الجرائد»(*) و«مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد» وهو شرح على مختصر أبيه في الصرف والنحو. إلى «العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب» الذي كان قد بدأه والده الشيخ ناصيف، واختصار وتنقيح أرجوزة والده في النحو «نار القِرى» مختصر «نار القِرى في شرح جوف الفرا» ومختصر كتابه «الجمانة في شرح الخزانة».

• بالإضافة إلى ذلك كله مقالات عديدة تناول فيها موضوع اللغة ـ سوف ننشر شيئاً منها في قسم المختارات النثرية.

بل في ما وضع من مصطلحات جديدة أغنى بها اللغة. ففي «الضياء»[٧] يورد ٦٨ مصطلحاً له منها ٤١ مصطلحاً، أي ما يقارب الثلثين، نورد منها بعض المصطلحات التي أصبحت شائعة:

البيئة:	Milieu
الحساء:	Soupe
الحُوذي	Cocher
الدرّاجة:	Bicyclette
اللّولب:	Vis
المأساة:	Tragedie

(*) جمعها مصطفى توفيق، القاهرة، مطبعة المعارف ١٣١٩هـ. وعلي محمود الحطاب، الاسكندرية (١٩١٢) ثم جمعه وقدمه نظير عبود طبعة أولى، دار مارون عبود (١٩٨٤).

الطلاء:	Vernis
المجلّة:	Révue
المقصف:	Buffet
المقصلة:	Guillotine

لا بأس من أن نورد هنا رأيه حول مسألة تعريب المصطلحات الحديثة في سياق تعليقه على تعريب أحمد زكي بك كلمة «أوتوموبيل» بـ «سيّارة»:

«السيّارة(*) هي اللفظة التي اختارها حضرة صديقنا الفاضل أحمد زكي بك الشهير لتعريب كلمة أوتوموبيل وزفها إلى جرائد القطر ومجلاته بغية استعمالها في مكان الكلمة الأعجمية. وقد أكثر كتاب الجرائد ومكاتبوها من الكلام في هذه اللفظة فمنهم من استحسنها وجرى عليها في كتابته ومنهم من اختار استبدالها بالجوّالة أو الجوّابة أو الدوّارة أو الدوّامة أو... الخذروف أو المغزل...... ورأينا أمس كلاماً لأحد الأدباء في جريدة المؤيد الغرّاء يقول انه قرأ في القاموس أي في المعجم الفرنساوي العربي تعريب كلمة أوتوموبيل بعَرَبة سبوح وهو الذي يسبح بيديه في سيره (كذا) إلى غير ذلك مما يطول استقراؤه وبيانه.

ونحن لا نحب أن نتعرض هنا للتفضيل بين هذه الألفاظ ولا كان من رأينا الدخول في هذا البحث لولا أن وردنا من حضرة صديقنا المشار اليه كتابٌ يتقاضانا فيه أن نقول كلمتنا في هذا الشأن فأقامنا بين امرين كلاهما علينا عزيز. على أنه لا يخفى أن كل واحدةٍ من هذه الكلمات لا تؤدي المعنى الوضعيّ للفّظة الأعجمية ولا ذلك مما يمكن في لغتنا لأن هذه اللفظة مركبة من كلمتين كما سبق لنا الكلام في غيرها فلا سبيل الى التعبير عن مدلولها بلفظةٍ واحدة فضلاً عن أن أوضاع اللغة لا يمكن أن تتناول جميع المعاني ولكن المدار في اكثرها على العُرف والمجاز كما هو معلوم وحينئذٍ فأي لفظةٍ وقع الاختيار عليها وتواطأ الكتاب على استعمالها بهذا المعنى أدّتهُ بلا خلاف ولا التباس. على أنه لابد والحالة هذه من اختيار أقرب الألفاظ إلى المعنى المقصود بحيث يصحّ نقلها اليه على أقل ما

(*) مجلة الضياء، المجلد ٣ (ص ٧٥٦ ـ ٧٥٧).

يمكن من التكلف وهذا لا بد لتحقيقه من أن يتولى البحث فيه أناسٌ من ثقات علماء اللغة الواقفين على سرّ وضعها واشتقاقها بحيث يكون لهم فيه الحكم الفصل الذي لا معقّب عليه.

ولا يخفى أن مثل هذا لا يمكن الحصول عليه بواسطة الجرائد أما أولاً فلما في ذلك من تعريض هذا البحث لأن يتناوله من ليس من أهله إذ ليس كل كتّابنا عارفين بأسرار اللغة ومعاني الأوضاع فيكثر اللغط على غير فائدة، وأما ثانياً فلأن البحث على هذا الوجه لا يلبث أن يصير مناظرةً إذ كل من يبدي في إحدى المسائل رأياً ويعلن به في الجريدة لا بد أن يتعصب لرأيه ويودّ تأييده وحينئذ يصبح البحث عقيماً بل مضراً لأنه يؤدّي إلى ضياع الأمر بتةً وذهاب السليم بجريرة السقيم. ولكن إذا كان ثمة نهضةٌ صادقةٌ لتلافي أمر اللغة وسدّ ما طرأ عليها من الثُلم فالذي عندنا أن الأمر لا يستغني عن تأليف مجمع لغوي يُختار لهُ أناسٌ من جهابذة أهل اللغة والعلم ويوكل اليهم النظر في هذه المسائل فيدور البحث فيها بين جدران المجمع لا على صفحات الجرائد وما يقع الاجماع عليه يُعلَن به في الجرائد أو في كتاب مخصوص ليكون عليه الاستعمال لا ليجري فيه البحث والجدال وإلاّ فليضع كل كاتب ما يتفق له ويُترك الحكم فيه لاختيار ذوي الأقلام وهذا القدر كافٍ في هذا المقام والسلام».

وقد جاء في مجلة «المقتطف»[8] حول ضرورة وضع قاموس للطالب في اللغة العربية تقترح أن يقوم اليازجي بذلك:

«غير أنه لا يقدر على هذا القاموس إلا عالم لغويّ طويل الباع في مفردات العربية وآدابها مجارٍ لأبناء هذا العصر في المشرب خبير بالتعليم وبحاجات التلامذة. هذا لو فُوّض الينا إعطاء هذه القوس باريها لانتدبنا اللغوي الشهير الشيخ إبرهيم اليازجي لما يعهد فيه من الإجادة في انتقاء الألفاظ ووضوح العبارة ومكانة الجمل وبلاغة الإنشاء والتدقيق والتحقيق في المطالعة والمراجعة».

يقول الدكتور نبيه أمين فارس في مقدمته لكتاب «يقظة العرب»[9]:

«وقد وقف اليازجي الكبير حياته على إحياء العربية والتنقيب عن كنوزها الأدبية الدفينة الغنية. وعمل جاهداً، وبنجاح، على تنقية اللغة مما كان قد شابها من عجمة وركاكة، فأقام بذلك الأساس لمن

تبعه من العلماء وأعانهم على الأخذ بأداة الفكر هذه وجعلها لغة طيعة لإستيعاب الآراء الحديثة والتعبير عنها بدقة وجمال».

أما الأديب أنطون قازان فيقول عن فضل اليازجيين على العربية وخاصة الشيخ إبراهيم ما يلي(١٠):

«... تعهدها رجل (الشيخ ناصيف اليازجي)، وفتح لها بيته، وضمها اليه كما ضم حبيباً وإبرهيم وخليلاً ووردة (اولاد الشيخ ناصيف) فنمت من جديد بينهم، وترعرعت يازجية فصحى... ولا عجب أن يكون إبراهيم اليازجي قبلة الضاد... بيت اليازجي، محج أهل الفكر، من عرب ومستشرقين، يؤمونه ليقفوا على رأي أربابه في مشكلات اللغة ومعضلات الأدب».

الحديث عن اليازجي اللغوي يطول ونحن كما سبق وذكرنا لن نقف طويلاً عند هذا الموضوع بل إننا سنقف عند أهمية اليازجي والدور الذي لعبه عن طريق اللغة للحفاظ على القومية العربية، إذ لا شك في أن اللغة عنصر هام في القومية. فاللغة العربية هي الرابط الأساسي في القومية العربية، والحفاظ عليها حفاظ في الوقت نفسه على هذا الرابط. وهنا تكمن في ظني أهمية اليازجي الذي كان، من خلال دعوته الى بعث العربية، يدعو إلى بعث الأمة العربية وإحياء حضارتها والعمل على استعادة أمجادها وتراثها. وهذا ما يشير اليه ميخائيل صوايا في كتابه عنه (ص ٤٣) حيث يقول:

«إن اليازجي بحبه اللغة العربية وارتياده أصولها وتفهمه عبقريتها أدّى، بمفرده، في أبحاثه الموضوعية والنقدية وفي كتبه المؤلفة لهذا الغرض، عملاً كان منه جلاء جمال هذه اللغة، وظهور قدرتها على الإغتذاء ومجاراة سائر اللغات الحيّة في النمو والبقاء».

واليازجي لا يرى العجز في اللغة العربية، في نقل العلوم المستحدثة والمصطلحات الجديدة ومجاراة الفكر، بل في القيمين عليها فالعلّة فيهم وليست في اللغة. فقد استطاعت اللغة العربية في العصور السابقة أن تواكب الحضارة وتنقل العلوم والأفكار وتحفظ التراث العربي وتراث الأمم

الأخرى مترجماً اليها فلماذا تقصّر اليوم عن القيام بذلك؟ إذن التقصير ليس في اللغة العربية بل في العرب أنفسهم.

وهـو يتناول في كتاباته مجمل القضايا التي تتعلق باللغة: من قضية اللغة العامية واللغة الفصحى ودعوة البعض إلى اعتماد العاميّة لأنها لغة الحياة، إلى مسألة التعريب وما يعترضها من مشكلات، والكتابة العربية. وهو الحريص كل الحرص على اللغة ـ ربما أكثر من أي كاتب نهضوي سواه.

يقول في مقال له عنوانه «اللغة والعصر»[١١]:

«لم يبق في أربـاب الأقلام ومنتحلي صناعة الإنشاء من هذه الأمـة مَن لم يشعـر بمـا صارت اليـه اللغة لعهدنا الحاضر من التقصـير بخـدمة أهلها والعُقم بحاجات ذويها حتى لقد ضاقت مُعجماتها بمطالب الكتّاب والمعرِّبين وأصبحت الكتابة في كثير من الأغراض ضرباً من شاقّ التكليف وباباً من أبواب العنت. واللغة لا تزداد إلا ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التفنّن في المخترعات والمستحدثات...».

إلى أن يقول:

«ويـا ليت شعـري ما يصنـع أحـدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ورأى ما ثمة من المسميات العُضوية وغير العُضـويـة من أنـواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن وعاين ما هناك من الآلات والأدوات وسائر أجناس المصنوعات وما تتألف منه من القِطع والأجزاء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات.

ثم ما هو فاعل لو أراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلميـة والصنـاعيـة والمكتشفـات الطبيعية والكيماوية والفنون العقلية واليدويّة وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلاً ولا دقيقاً إلا تدلّ عليه بلفظه المخصوص.

لا ريب أن الكثير في ذلك لا يتحرك له به لسان ولا يعهد له بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبّر بها عنه ولا يغنيه في هذا الموقف ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ومئتي اسمٍ للخمر وخمس مئةٍ للأسد وألف لفظةٍ للسيف ومثلها للبعير وأربعة آلاف للداهية».

هذا الذي يقوله كلام صحيح لذلك وجب على علماء اللغة تشذيب اللغة العربية من الشوائب الكثيرة التي علقت بها على مرّ العصور. فما هو النفع من أن يكون للسيف مئات الأسماء وللداهية ـ وما أكثر الدواهي التي ألمت بالعرب ـ آلافها؟! وليس هناك من أسماء للعديد من الاكتشافات أو الاختراعات أو العلوم الحديثة من طبيعيات وفيزياء وكيمياء وكمبيوتر وما إلى ذلك.

ثم يتطرّق الى موضوع اللغة والقومية فيقول في (ص ٢٥٣) من المجلة عينها:

«... ولذلك كان من أوجب الواجب في المحافظة على بقاء الأمة وصيانة الجنسيّة بينها إحياء لغتها بين عامة أهلها وتكثير سواد أهل العلم منها والتجافي بها ما أمكن عن لغات الأعاجم إلا الخاصة الذين عليهم المعوَّل في نقل علومهم الينا ونشرها بلغتنا بحيث نلحق بهم في الحضارة دون الجنسية».

وهذا موضوع هام جداً ألا وهو ترك اللغة العربية والإقبال على تعلم اللغات الأجنبية بحيث يتم التغريب ويكون ذلك على حساب اللغة الأم فتنشأ الأجيال بعيدة عن تراثها نافرة من لغتها لا تجمعها جامعة وتشدها عصبة ولا توحد بينها عروة وثقى. وكما يقول منبهاً إلى مكانة اللغة من الأمة:

«انها هي عنوانها والفصل الذي تتميّز به من سائر الأمم بل اللغـة هي الأمة بعينها فكما تشخّص تأريخها وعلومها وعاداتها وعباداتها فإنها تشخص الأمة بنفسها وبها يشار اليها ويُدَلّ عليها فضلاً عن انها هي مجمع أُلفتها والوُصلة الحسيّة بين آحادها وجماعاتها».

وهكذا يبدو لنا حرصه على اللغة العربية وتقويم اللسان جلياً لا لبس فيه، فهو يدعو إلى الإقبال على تعلم العربية واتقانها بدلاً من اتقان اللغات الأجنبيـة لأن ذلك يسيء إلى اللغة العربية ويضرّ بالقومية العربية. فلا يجب أن يكون اتقان اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية.

ولا بأس في أن نختم الكلام على اليازجي اللغوي بما يورده عيسى ميخائيل سابا[١٢] حيث يقول:

«ولا يحط بنا المطاف هنا بل نسير مع الشيخ فنرى كَلَفه باللغة العربية التي كلف بها وأحبها حباً جماً وانكبّ على تفهمها تفهماً رياضياً بفكر نيّر ورأي صائب، فاستوعب ما في المعاجم والآثار الأدبية وما خلّفه غير واحد من أساطين اللغة والأدب الأقدمين من الأبحاث، فتغلغل في مطاوي عبقرية اللغة، واستجلى منها ما لم يسجّل لأحد سواه، فتفتحت بين يديه كنوزها وأسرارها، فتصدّى لكلام العرب الأقحاح جاهليين وإسلاميين وقدماء ومحدثين، وقوّم من اعوجاج أخطائهم. وحمل حملة صادقة على ناشري «لسان العرب» و«تاج العروس» وأشار إلى ما وقع في ذينك المعجمين من الخطأ الفاضح، فأرجعه إلى الصواب، وعارض أيضاً الواضعين وذهب في تبصره دقائق اللغة إلى أبعد مما ذهبا هما انفسهما إليه.

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد بل تخطاه إلى درس معاني الألفاظ وتراكيبها الأصلية، وعلاقة أصوات الحروف بالمعاني التي ترمز اليها، وثنائية الألفاظ وطرائق تفرعها، مع ما يطرأ على الأصل من قلب وإبدال، كما أنه بحث في نشأة اللغة وقد ماشاها حتى بلغ بها إلى عصره. فوقف يستقري ما يعترضها من معضلات جسام، ويجدّ في تذليل ما اعتورها من تلك المعضلات ليحفظها من خطر الهدم والإضمحلال، ويجعلها في مستوى سائر اللغات الحيّة.

والناظر في مجلدات «الضياء» يرى تلك المقالات الضافية التي عالج بها ما أشرنا اليه، فنشر أمثالاً من المستحدثات التي وضعها للدلالة على معاني ألفاظ أعجمية، واصطلح على وضع علامات لمخارج الأصوات التي لا وجود لها في العربية ليسهل على المترجمين الترجمة وكتابة الأعلام الفرنجية في اللغة العربية.

وذكر لي الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف أنه وضع معجماً لغوياً بدأه سنة ١٨٧٠ م وسماه «الفرائد الحسان في قلائد اللسان» ثم وقف عن متابعة تأليفه في أثناء تنقيحه الكتاب المقدس، فعاد اليه سنة ١٨٨١ م بإيعاز مجلة «المقتطف» لوضع معجم مدرسي حديث، فحال دون إتمامه ازدحام الأعمال وتسارع المنيّة».

وللدكتور كمال اليازجي رأي في أسلوب الشيخ إبراهيم يورده بعد أن

يذكر مقطعاً من مقالة له في وصف القمر(١٢):

«ففي هذا الأسلوب ميل ظاهر إلى تخيّر الألفاظ، وحرص شديد على جودة السبك، وعناية بالغة في استحضار التشابيه والاستعارات، وتوفّرٌ كثير على المطابقة بين المتخالفات والمقارنة بين المتجانسات. ولا يخفى أن بعض ذلك انما هو من رواسب البيان التقليدي القديم، وبقايا النهج المتكلف المستحدث. فلئن كان هذا الأسلوب الأنيق قد تحرر من التكلف المطلق، وتخلّص من الحشو الباطل، فإنه قد استبقى ضروباً مستملحة من زينة اللفظ، ووجوهاً مستساغة من أناقة التركيب».

مع العلم بأننا لا نجد هذا النوع من السجع والتأنق واختيار الألفاظ والتشابيه والاستعارات دائماً في أدب الشيخ. فهو في أكثر ما كتب في «البيان» و«الضياء» يميل إلى السهولة والبساطة وعدم الأخذ بهذا التأنق.

٣ اليازجي ناقداً أدبياً

لم يضع إبراهيم اليازجي كتاباً في النقد الأدبيّ ولكنه تناوله في كتاباته في مجلة «الضيـاء» وهو كان يمارس النقد من زاويتين: الزاوية النظرية والزاوية التطبيقية. وكان يعرض إلى بعض الكتب والدواوين ويعلق عليها مظهراً رأيه بدون تملّق أو محاباة. وكان أحياناً يشكو من تخلف صناعة الأدب في بلادنا السورية ومرد ذلك في ظنه[١٤]:

«ليس نقصاً في الغرائز ولا فتوراً في الذكاء وإنما هو من نقص العلم وسوء التلقين وفقد المنبهين على العثرات والمسدّدين في طريق العمل مما سوّل للقاصر أن يتطاول إلى ما يَفُوت يده من الغايات وأراه طريق الفضل سهلاً فوطئه وهو لا يدري ما أمامه من المهاوي والعقبات فكثر المتطفلون على موائد العلم والمجترئون على مقامات الشعر والإنشاء على حين لا وازع يَزَع ولا هادي يدعو فيتبع وما كان أحوج البلاد الى مسيطرين على أقلام الشعراء والكتاب كما أن فيهـا مسيطرين على أقلام أصحاب الجرائد السياسية وصحف الأخبار لأنه ان خيف من تلك أن تضر بالمصلحة الوطنية من الجهة السياسية فإن هذه ولا جرم تضرّ بها من الجهة الأدبية بما تؤدي اليـه من فساد اللغة التي هي أعظم أركان الوطنية وأهم روابط الجامعة الأميّة.

ومعلوم أن الشعـر من أعـلى طبقـات الكلام وأبعدها غاية لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهة المعاني وسلامة الذوق والمبالغة في التنقيح والتهذيب. فابتذاله على ألسنة غير أهله مما يزري به ويُفسد رونقه ويُسقط مزيته بل ربما أفضى إلى دفن كثير من جواهره في صدور أربابه لأنه إذا أصبح متداولاً بين أيدي العامّة وابتذله من لا يُحسنه أنف المجيدون له من انتحاله وتجافى كبراء أهل القول عن نزول كنفـه. وهـذا ولا ريب أحد أسباب عقم الشعر في هذه الأيام. وانصراف الرغبة عنه الى النثر الذي لا يجلّي في حلبته إلا كل من أعـطتـه البلاغة قيادها وملّكته الفصاحة عنانها ولذلك ترى المتعرّضين للشعر أكثر من المتعرّضين للنثر حتى في الأعصر الأولى وأيام كانت الفصاحة شائعة بين طبقات المتأدبين على العموم».

واضح من هذا الكلام حرصه على سلامة اللغة العربية لأن اللغة هي أعظم أركان الوطنية وأهم روابط الجامعة الأميّة، وعدم تساهله مع الذين يدّعون الأدب والشعر وهم ليسوا من أهلهما. ذلك لأن للشعر أصوله وقواعده ولا يجوز لكل متطفّل أن ينتسب اليه ويدّعي شرف الانتماء اليه. ومن هنا إنه يقف موقف الناقد الموجّه الذي يطلب من الذين ينتسبون الى دوحة الشعر ان يتقنوا اللغة أولاً ويعرفوا قواعدها ويقرأوا جيّد الشعر قبل أن يبدأوا بنظمه، فالشعر ليس عملية سهلة ولا هو تسلية بل هو عملية جادّة ترتكز على الموهبة والمراس.

إلى أن يقول:

«ولقد مرّ بنا كثير من ركيك الشعر وساقط القول ولا سيما في هذه السنين المتأخرة التي لم يبقَ فيها من عرف قاعدة من قواعد الصرف أو قرأ ديواناً من دواوين الشعراء إلا تصدّى للنظم وطيّر قصائده في البلاد إلّا ان جلّ ما كنا ننكره على أولئك الشعراء خلوّ كلامهم من مبتكر المعاني وجليل الأغراض وبُعد ألفاظهم عن مقام الجزالة العربية التي هي حلية الشعر ورونقه ولم نكن نتوهم أن نرى من الشعر ما يبلغ أن ينتظم في سلك اللغو ويُعدّ ضرباً من التخليط والهذيان مما لم نرَ له مثيلاً إلا في كلام بعض الجرائد عندنا مما سبقت لنا الإشارة اليه في غير هذا الموضع. لا جرمَ ان هذا من فاحش التأخر بل هو نهاية السقوط والانحطاط ولولا أن تكون تلك القصائد مطبوعة متداولة بين أيدي المطالعين لما كنا نؤثر إلا سترها على أربابها تفادياً من هذه المعرّة الشنعاء».

وبعد أن يأتي بالأمثلة والشواهد على انحطاط هذا الشعر الذي ينتقد وكيف أن الشاعر لا يعرف أبسط قواعد اللغة ويقع في العديد من الأخطاء وان فساد الذوق الشعري وجهل أساليب القول وبراعة النظم هي الصفات المسيطرة على هذا الشعر المهلهل الركيك الساقط. وبعد أن يعرض لأبيات في المديح ليس فيها أي مديح بل هي مجلبة للسخرية والاستهزاء يقول:

«وأنت تدري أن المقصود بالمدح والرثاء وسائر الأغراض

الشعـريــة تصوير المعنى بأظهر ألوانه وأشدها تأثيراً في النفس والمبـالغــة في الوصف إلى آخر حدٍّ ممكن على ما هو المعروف من مذهب الشعـراء فإذا برز ذلك المـدح في صورةٍ مضحكة وقالب مستهجن غلب ما فيه من الهُجنة على محاسن أوصاف الممدوح وانصرفت النفس عن الاشتغال بتصوّر فضائله والإعجاب بمناقبه الى اللهـو بمـا ورد في كلام الشاعر من المضحكات فتوارى ذكر الممدوح وراء هذا الستار المتهن».

ثم يخلص في نهـايـة مقـالته الى تبرئة نفسه من تهمة تثبيط الهمم والتجني على أصحاب القلم فيقول:

«والله يعلم أن ليس من غرضنا فيما أوردناه تثبيط أقلام أولئك الأدباء وأمثالهم عن الجري في هذا المضمار فانه ليسرّنا أن نرى في قومنا من يهتم بالأدب واللغة ويشتغل بالشعر والانشاء وهو ولا شك مما تفخر به البلاد ويحيا به تمدّن الأمة ولكن لا أقلّ من أن يكون ما يأتـون به صحيح التركيب مفهوم المعنى. ولا نطالبهم بالفائق والجيّد وإلا فقد كانت الأمة أجمل وأستر. وإنما الذي نتوخاه هنا تنبيههم الى التثبّت فيما يكتبون وأن لا يعجلوا إلى نشر ما يبدر من قرائحهم قبل تنقيحه وعرضه على من يقيم من أوده أو ينبه الى ما فيه من خطأ أو لحن وإلا فلا أقلّ من أن يطلع الواحد منهم صاحبه على ما يجود به خاطره فإن للمرء في شعر غيره نظرة غير نظرته في شعر نفسه وإن لم يكن هذا ولا ذاك فليطوِ ما ينظمه عن نفسه أياماً حتى يتناساه ثم يعاوده فانه حينئذٍ يكونَ نظره فيه كنظر الأجنبي ويتنبه فيه لأشياء لم يتنبه لها حال النظم».

وهو حريص على أن تكون للأدب قيمته وللشعر حرمته فلا يتصدى أي كان إلى ذلك ويـدعي أنه كاتب نحرير وشاعر كبير. فتنشر له الصحف نتاجه الأدبي الساقط هذا على أنه أدب راقٍ وإبداع مميّز وتقوم فوق ذلك بتقريظه ومدحه.

وهو حريص كذلك على اللغة العربية أن تكون لساناً عربياً مبيناً وليس مجـرد كلام ركيك وسفاسف ساقطة يستخدم في غير موضعه ويسخّر للمديح والتقريظ والاستجداء.

وهو يقول في نقده لإحدى القصائد السخيفة[١٥]:

«كنا نطالب شعراءنا بالمعاني المخترعة والأساليب البليغة والعدول عن التراكيب الركيكة واللفظ المبتذل فصرنا نقنع من بعضهم بالكلام المعقول والتعبير المفهوم. وما كان يخطر لنا أنّا سنصير على عهدٍ نرى الشعر فيه ضرباً من اللغو والخلط وسرداً لألفاظ لا معنى لها وكأن هذا من ابتكارات هذا العصر حتى صار طريقة يجري عليها بعض شعرائنا ثم لا يكفينا منهم ذلك حتى ينشروا شعرهم في الآفاق وحتى يتلقاه بعض من يُتخيّل فيهم التمييز بين صحيح القول وسقيمه بالقبول والإعجاب ويكونوا هم الساعين بنشره بين أهل الأدب مما يدل على عموم الجهل بين عامّة طبقات الأمة».

ثم يلوم أصحاب الصحف والمجلات الذين ينشرون مثل هذا السخف على أنه شعر ويكيلون المديح والتقريظ لناظمه رياءً وتملقاً فيقول:

«... ولكننا نكتفي بذكر بعض أبيات القصيدة عبرة لذوي الألباب من أهل هذا اللسان وحثّاً لحملة الأقلام منهم وأصحاب الجرائد على الخصوص أن يقفوا سدّاً في طريق أمثال هذه السفاسف الساقطة بل الفضائح الشائنة وأن يبادروا لتدارك هذا الداء الوبيل قبل استحكامه فقد كفى اللغة ما تسلط عليها من دواعي الوهن والفساد».

ثم يضيف:

«ولسنا نلوم الشاعر على أن أتى مثل هذا السخف فإن ذلك مبلغ ما عنده... ولكن الذي حدانا على كتابة هذا الفصل أنّا رأينا هذه القصيدة على ما أبنّا من حالها مصدّرة بعنوان فخيم ظننّا وراءه أن المتنبي قد بعث في هذا العصر ليحيي ما عفا من دارس الشعر فلما شرعنا في تلاوتها ادركنا من القشعريرة والانقباض ما يدرك القارىء من العجب والاستغراب إذا تلونا عليه العنوان المذكور بعدما سمع من الأبيات وهذه صورة العنوان بنصه:

«نظم حضرة العالم الفاضل واللوذعيّ البارع الكامل مكرمتلو الشيخ فلان فلان أفندي الفلاني من علماء مدينة كذا قصيدة غرّاء ـ وهي بحرفها الرائق ومعناها الشائق...».

فلا جرم أن مثل هذا الوصف في مثل هذا الشاعر لا يعد إلا ضرباً من التغـريـر يُجـرَّأ به هو وأمثـاله على الاسترسال في مثل هذه الركـاكات ونشرها بين أظهر القوم لا يحذر فيها رقيباً ولا حسيباً فيكون ذلك ذريعة إلى إفساد ذوق الشعر وابتذاله بين المتطفلين عليه فضلاً عما فيه من رمي عامّة الأمة بالجهل إذا كان أفاضلها والقـابضـون على أزمّـة الأدب فيهـا يقبلون مثل هذا الكلام ثم يخـدمونه بالطبع والتوزيع في أطراف البلاد بعد أن يقلّدوه بمثل الوصف المذكور».

فهو مصيب في إلقاء اللوم على وسائل النشر التي تفسد الذوق بنشر مثل هذا الشعر الساقط وتتجنّى على الأدب والشعر بدلاً من أن تكون الرادع لنشر مثل هذا السخف فتقف في وجهه سداً منيعاً وتنتقده وتروّج لما يستحق من النتاج الأدبي.

وهو كذلك في موقف آخر وفي مقال يتناول فيه ديوان الشاعر المصري المعروف حافظ إبراهيم (١٨٧١ ـ ١٩٣٢) يلوم شارح الديوان محمد بك هلال إبراهيم الذي يشرح كلمات لا حاجة الى شرحها وأحياناً ترد أخطاء صرفية ونحوية عديدة في الشرح فيقول[١٦]:

«بيد أنّا لا نجد في هذا المقام بدّاً من الإشارة إلى شيء مما يتعلق بهذا الشرح وهو ما نظنّ أنّا نترجم به عن رأي أكثر من اطّلع عليه من الأدباء. وذلك اننا عند تصفحنا للديوان لم نكد نجد فيه ما يدعو إلى الشرح أو التفسير لتوخي الناظم الألفاظ المأنوسة والتراكيب السهلة والمعـاني القـريبـة المأتى دون الإيغال في عويص اللغة والإبعاد في المغازي الى ما يفوت ذهن المطالع وهي المزية التي عرف بها هذا الشاعر والحلية التي يوصف بها شعره واللون الذي تتمثل به صورة كلامه في الأذهان ولذلك لم يكد الشارح يجد ما يخدمه به ولم يرَ أن يقتصر على تفسير الغريب وحده لأنه لا يتعدى ألفاظاً معدودة أكثرها يعرف بالقرينة فانصرف إلى تفسير المعروف بالمعلوم والواضـح بالبـيّن والجليّ بالظاهر وربما فاتته هذه المنزلة أحياناً فألقى المطالع في إشكال لو خلّى بينه وبين لفظ الشاعر لم يكن له اليه سبيل».

مع العلم أنه يكنّ للشاعر كل احترام وتقدير فيقول عن «ديوان حافظ»:

«هذا الديوان اللطيف وهو مجموع المنظومات التي جادت بها قريحة الشاعر العصريّ المشهور حافظ أفندي إبراهيم وفي شهرة الناظم ما يُغني عن إطراء وبيان منزلته من الرقة والابداع وما أودعه من محاسن التفنن ودقائق الاختراع. وقد صدّره بمقدمة نفيسة في تعريف الشعر وبيان أغراضه ذهب في الكثير منها مذهب الشعر نفسه مما دلّ على أن من النثر شعراً وان من الشعر سحراً».

لعل أهم ما قدمه اليازجي في موضوع النقد هو شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي بعنوان «العُرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب» الذي بدأ به والده الشيخ ناصيف ثم أتمه هو سنة ١٨٨٧. وهو يرى أن المتنبي يغالي في الخيال والمجاز أحياناً مما أدى إلى فساد بعض شعره كما أدّى إلى الغموض والابهام. وإلى ذلك فهو يرى لو أنه كان يُعنى بتنقيح هذا الشعر لما كان قد سقط في التعقيد والتكلّف. ورغم كل هذه الشوائب التي يراها في بعض قصائد أبي الطيب فإن حكمه عليه يظهر في شرحه للديوان حيث يقول(١٧):

«وجملة القول إن شعر المتنبي، على ما في بعضه من التكلف والتعقيد، من أرصف الكلام تعبيراً وأحكمه وضعاً وأكثره طيّاً للمعاني تحت أثناء اللفظ حتى لا يكاد يرمي بلفظةٍ إلّا وفيها إلماعٌ إلى غرض مخصوص وتمثيلٌ لوجهٍ من المعاني فهو بالمتون العلمية اشبه منه بالعبارات الشعرية. ولذلك كثرت فيه الأبيات الموهمة واحتيج في شرح مشتبهاته إلى مزيد نظر وفضل تأمل في تحقيق أغراضه وتصوير ملاحنه والقطع بالمقصود منها في مواضع الاحتمال مما يقضي على الشارح أن يستعير أداة الشاعر في نقد المعاني وتخيّر الأشبه منها وترتيب بعضها على بعض وناهيك به شوطاً تزلّ في مجاله سوابق الأفكار وتيهاً تضل في مجاهله ثواقب الابصار وهو عذر كل من أُخذ عليه من شرّاح هذا الديوان...

علماً بأن الاسماع عندنا لم تألف للاخلاص صدىً غير التقريظ والاطراء ولا تعتقد في ذكر غير الإحسان إلا التقريع والازراء وما أنا في شيء من الأمرين انما ذكرت ما ذكرته مجراةً للعصر في النقد الذي هو اليوم أحد أركان العلم وحكاية للحق التزمت فيها ذكر الشيء على وجهه تسديداً لوجه الحكم وان وُجد ثمّة ما يقدَّر فيه

الخلاف فالنية براء منه والقصد بمعزل عنه وأنا أبرأ إلى الله عزّ وجلّ من دعوى العصمة وأستغفرهُ مما طغى به القلم واسأل أُولي النظر تَلَقِّيَّ بالحلم والكرم».

وفي هذا الكلام الذي ننقله عنه يظهر بوضوح فهمه الصحيح لمهمة الناقد المتجرد الذي لا يحابي ولا يمالىء، يقول رأيه بجرأة وبدون تلجلج. وفي موقفه هذا الجريء يتفرّد عن سائر أهل زمانه الذين عرفوا النقد إطراءً ومديحاً وتقريظاً عن حق وعن غير حق.

ثم إنه متواضع لا يدّعي - رغم غزارة علمه - انه معصوم عن الخطأ.

وكذلك يرى أن النقد علم له أصوله وليس هوىً ومزاجية ونزوة من النزوات. وهذه كلها مفاهيم حديثة بالنسبة إلى عصره.

وإلى ذلك يشير الدكتور هاشم ياغي حين يقول(١٨):

«ومهما يكن من شيء فإن هذه المحاولة التي حاولها اليازجي في دراسته شعرالمتنبي تكاد تكون أحسن محاولة نقدية رأيناها بين محاولات أصحاب هذا التيار النقدي المحافظ، وأصلها وأعمقها وأدقها نظراً، وأبعدها تمثلاً لما تتناول».

ونحن بدورنا نقول: إن الشيخ إبراهيم اليازجي كان من رواد النقد الأدبي في القرن الماضي في لبنان.

وهذا ما يشير إليه توفيق الجرّاح(١٩):

«... كان اليازجي يربط ما بين بيت وآخر لفهم معانيه خلال نقده الذي ارتكز على النواحي اللغوية واللفظية، وهذا ليس بغريب عن لغوي كالشيخ إبراهيم اليازجي.

وبعد، فقد أظهر اليازجي في فصله النقدي هذا علماً ودقة وعمقاً لا يستهان به بالقياس إلى عصره...

وكان بذلك من روّاد النقد العربي المعاصر».

وهو لم يقف عند حدود شرح ديوان أبي الطيب شرحاً لغوياً بل تعدى ذلك بأن جاء بفصل نقدي وافٍ (من صفحة ٦٥٢ إلى صفحة ٧٠٣) يبلغ حوالي الخمسين صفحة. وهو لا يشير إلى المثالب عند المتنبي، وينتقد

بعض أشعاره التي شغلت النقاد والشرّاح منذ القدم وحسب ويحاول أن يفسرها، بل يمتدح شعره الصافي الرائع وأبياته الجميلة التي باتت شائعة على كل شفة ولسان ويشير إلى معانيه وصوره الشعرية واستخدامه للغة استخداماً موفقاً. وهو يقول لنا في (ص ٦٥٢):

«إنّ الغرض من هذا الفصل الكلام على شعره من حيث هو كلام تراد منه المطابقة بين المسموع والمفهوم فأذكر حاله من إجادة أو تقصير في استخدام الألفاظ من حيث هي قوالب للمعاني مع بيان الحدّ الذي جرى اليه في ذلك ومنزلة شعره من هذا الوجه مما يرجع في الأكثر إلى أدب الكاتب وصناعة اللغوي ويكون مرميً لنظر علماء المعاني وأصحاب الترسّل في صياغة اللفظ وتقديره على المعنى».

وهو يرى في (ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥):

«ان ما ذُكِرَ للمتنبي من خفاء المعاني وغموضها وارد على الغالب من قبيل الابهام في اللفظ والتعمية في صور التراكيب و إلباس المعنى غير ثوبه الذي تظهر به تقاطيعه وإنزاله في غير منزله الذي يُقرع عليه بابه... بل قلّ أن ترى له بيتاً قد خفي سرّه وبَعُدَ مغزاه إلا وهو على الأكثر من ساقط شعره ومبتذل معانيه وكأنه يحاول أن يُخرجه إلى الإغراب وشتّان بين الإغراب اللفظيّ والإغراب المعنويّ وربما كان المعنى من مثل ذلك مسبوقاً فيحاول أن يبعد به عن أصله ويغيّر ديباجته بغير لونها فيفسد عليه وكثيراً ما يقع له ذلك من استعمال اللفظ في غير موضع استعماله أو حذف شيء في غير مواطن الحذف أو تشويش التركيب بالتقديم والتأخير فيما حقه العكس أو زيادة حشو يفرّق بين أجزاء المعنى ولذلك فإنك ترى أكثر هذه النظائر في شعره قد ظهر عليها أثر الصنعة وتجاذبها التكلّف والتعقّد حتى تخرج عن سَنَن الفصاحة وطريق البداهة الى ما يدخلها في الركاكة ويميل بها إلى اللغو والخطأ».

ولنستمع اليه يمدحه بجيد شعره الذي يمتاز بنسجه الأنيق ووشيه البديع ذلك الشعر الذي سارت به الركبان وتناقلته الناس وبقي على الدهر. حين يقول (ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦):

«... بمثله اشتهر المتنبي وارتفع قدره وأشير إلى موضعه في كل طبقة من الناس... والذي به صار ما تمثّله الأذهان وتسمع به

الآذان... ولو كان شعـر المتنبي بأسره من هذا النمط ما احتاج الديوان إلى الزيادة على الشرح الواحد شأن غيره من دواوين أكابر الشعراء. قلت وهذا في المتنبي من أعجب العجب وما أدري كيف يقع ممن يأتي بأمثال هذه البدائع الباهرة والروائع الساحرة التي انفـرد بها عن مواقف الأشباه وعجزت قرائح المتحدّين فيها عن بلوغ مداه أن ينشط بعدها لمثل تلك السفاسف التي لا يُتصوَّر في أضعف الشعراء أن تصدر منه ويأنس بتلك الطمطمانية التي لا يرضى مُحدَثٌ ولا جاهليٌّ أن تُروى عنه. وكأني بالمتنبي مع طول باعه في صناعة الأدب وفضل علمه بمواقع الإساءة والإحسان كان قليل النقد لشعره حريصاً على كل ما بدر من خاطره لا يسمح بشيء منه مع طول قصائده واستقلالها بعد حذف كثير من أبياتها لو اقتصر منها على الجيّد وحده وما كان أجدره ومنزلته من الأدب ما هي ولا صنعة له غير الشعر أن يتوفّر على تنقيح ديوانه وينفي منه كل بيتٍ لا يطّرد على مكانته ولو فعل لساد أمراء الشعر بلا مدافع ولم تجد في نَقَدة الكلام وجهابذة الأدب من يقدم شاعراً عليه».

وهـو يعلل ذلك الشعر الساقط من شعر المتنبي أنه كان في بداياته الشعرية ومن بواكير شعره وإلى أنه أراد أن يقلّد أبا تمّام الشاعر العباسي المعروف الذي كانت له المنزلة البارزة في عالم الشعر في زمانه.

«فكـان ينحـو نحـو أبي تمّـام في الحوم حول موارد الإغراب والتنقيب عن الوحشيّ في كَلِم الجاهلية والتورُّك على الصيغ الشاذّة والتراكيب الجافية والتحذلق في أسلوب الخطاب».

ثم يأخـذ بالتـدليل على بعض قصائده الجيدة السهلة الخالية من الصنعة والتعقيد كتلك التي مطلعها:

ضيـفٌ ألـمّ برأسي غيـرَ محتشمِ   والسيفُ أحسنُ فعلاً منه باللِّممِ

وهي من شعـر صبـاه. أو المرثية التي يرثي فيها محمد بن إسحق التنوخي ومطلعها:

إنـي لأعـلمُ، واللبيـبُ خبيـرُ   أنّ الحياةَ، وإن حرَصتُ، غُـرورُ

ثم يأخذ في تحليل شعره في سيف الدولة وفي كافور ويقارن بين شعره

هذا والشعر الذي سبقه وبين شعره في أبي العشائر وشعره في ابن العميد أو شعره في عضد الدولة.

ثم يخلص الى القول ان الغموض ليس صفة خاصة لشعر المتنبي بل انه يوجد عند العديد من الشعراء وهو أحياناً يوغل في استخدام المجاز حتى ليضيع المعنى وأحياناً يبالغ في الإيجاز فيضيّق اللفظ على المعنى. مما يضطر الشارح الى التأويل أو التبديل والزيادة على الألفاظ وحتى على المعاني في بعض الأحيان.

واليازجي الناقد لا ينظر إلى البيت منفرداً بل إنه ينظر اليه من ضمن القصيدة ككل. أي ان معنى البيت قد يكون مرتبطاً بما سبقه أو ما تبعه من الأبيات:

> «لأن منزلة الأبيات في القصيدة كمنزلة الكلمات في البيت فكما أنه لا يُفهم معنى البيت إلا بعد النظر في مفرداته وعلاقة بعضها ببعض، لا تفهم القصيدة إلّا بعد النظر في نسبة الأبيات وما بينها من الصلة المعنوية».

هذا، وانه يتضح مما أوردنا حول اليازجي الناقد انه قد فهم النقد فهماً صحيحاً وطبّقه في ما تناول من دواوين شعرية وهو لم يلتفت إلى نقد النصوص النثرية ربما لأنه لم يشأ أن يمتهن النقد أو أن ينقطع له لكثرة مهامه وأشغاله ويكفيه ما أخذت الصحافة من وقته وجهده. وهو ناقد صحافي قبل كل شيء.

قلائل هم الذين التفتوا إلى الشيخ إبراهيم اليازجي كناقد. فعسى أن نكون ألقينا الضوء عليه ناقداً ووفيناه حقه وأبرزنا ناحية هامة من نواحي جهده.

هوامش القسم الثاني

(١) يذكر أنور الجندي في كتابه، **المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مئة عام** (١٨٤٠ ـ ١٩٤٠)، مطبعة الرسالة ١٩٦١ (ص ١٠٨) خطأ بأن اليازجي هو الذي أصدرها.

(٢) التي كان قد أنشأها في بيروت الطبيب الأميركي المعروف جورج بوست (Post).

(٣) **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت الجزء الثاني (لا. ت) (ص ١٤٧).

(٤) مجلة **الضياء**، المجلد الأول (ص ٤ ـ ١٢).

(٥) **الشيخ ابراهيم اليازجي**، دار المعارف ببيروت، ١٩٥٥ (ص ٢٤ ـ ٢٥).

(٦) مجلة **البيان**، السنة الأولى، الجزء الأول، أول آذار/مارس سنة ١٨٩٧ (ص ٣).

(٧) مجلة **الضياء**، المجلد ٢ (١٨٩٩ ـ ١٩٠٠) (ص ٧١٠ ـ ٧١٢).

(٨) مجلة **المقتطف**، مجلد ٥ (١٨٨٠) (ص ٣٢٩).

(٩) جورج أنطونيوس، ترجمة الدكتور ناصرالدين الأسد والدكتور إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢، (ص ١٣).

(١٠) **ادب وادباء**، ج ٢، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٤ (ص ٤٧ ـ ٤٩).

(١١) مجلة **البيان**، السنة الأولى، الجزء الرابع، أول حزيران/يونيو سنة ١٨٩٧ (ص ١٤٥ ـ ١٤٦).

(١٢) **الشيخ إبراهيم اليازجي**، (ص ٣٠ ـ ٣١).

(١٣) **رواد النهضة الادبية في لبنان الحديث** (١٨٠٠ ـ ١٩٠٠)، نشر مكتبة رأس بيروت، لبنان ١٩٦٢، (ص ١٤٢ ـ ١٤٤).

(١٤) مجلة **الضياء**، المجلد الأول (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩)، (ص ١١٢ ـ ١١٩).

(١٥) مجلة **الضياء**، المجلد الأول (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩)، (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩).

(١٦) مجلة **الضياء**، المجلد الرابع (١٩٠١ ـ ١٩٠٢)، (ص ١١٦ ـ ١١٨).

(١٧) **العرف الطيب**، (ص ٧٠٣).

(١٨) **النقد الأدبي الحديث في لبنان**، دار المعارف بمصر ١٩٦٨، (ص ٩١).

(١٩) توفيق فوزي الجرّاح، **الشيخ ابراهيم اليازجي**، ومجلة **الضياء**، رسالة ماجستير الجامعة الأميركية ١٩٧٧، (ص ٤٠).

القِسم الثالِث

ابراهيم اليازجي شاعِرًا

١

اليازجي شاعراً

لليـازجي ديوان شعر هو «العِقد»[1]. وشعره بمجمله تقليدي يتناول المواضيع المألوفة في زمانه من رثاء ومديح وتهنئة بقران أو بنيل وسام أو بعيد ميلاد وحتى بالعام الجديد. كما نظم في التشطير ومناسبات التعازي وتقريظ الأعمال الأدبية وتأسيس الجمعيات والكنائس إلى أبيات تحفر على أنصاب الأضرحة والمقابر...

وهو مُقِلّ وديوانه يشتمل على ٩٢ صفحة. ٨٨ منها بخط يده الجميل. ويذكر لنا ابن شقيقه خليل، حبيب اليازجي الذي قام بنشر هذا الديوان في (ص ٩٣):

«إلى هنا انتهى ديوانه الشعري رحمه الله، وقد بقي هناك بعض قصائد ومقاطع محفوظة فيما هو محفوظ لدينا من أوراقه، ولكننا لم نثبت شيئاً منها لكونه رحمه الله لم يثبتها بيده في الديوان وقد حرصنا كل الحرص على تفسير إرادته فلم نثبت إلا ما أثبته وأهملنا ما أهمله. وقد أضفنا إلى ديوانه الخطيّ قصيدته المشهورة في الزُهرة ومرثية البطريرك الجريجيري وبعض أبيات أخرى، لكون هذه المنظومات كلها نشرت في مجلتي البيان والضياء».

ثم يضيف:

«ويلي هذا الديوان الشعري شيء من رسائله نثبتها أيضاً بخط يده وهي لا تبلغ الثلاثين صفحة، وقد حال الأجل دون أن يتمكن من تبييض ما آثره منها فاكتفينا أيضاً بإثباتها بالقدر الذي وصل

به اليها رحمه الله بدون زيادة ولا نقصان. وقد ذيّلنا الكتاب بما وجدنا له من التواريخ بعضها في أوراقه والبعض الآخر تكرّم بإهدائه الينا فريق من كرام الأصدقاء».

وفي ديوانه هذا نقرأ تمهيداً لإحدى قصائده تقع في ٧٣ بيتاً يقول فيه (ص ١٤):

«وقال يمدح السلطان عبدالعزيز بهذه القصيدة وقد ضمّن كل بيت منها تاريخين هجريين لسنة ١٢٨٤ وافتتح صدور أبياتها بحروف إذا جُمعت على الترتيب خرج منها بيتان يتضمن كل واحد منهما أربعة تواريخ للسنة المذكورة وجعل الأبيات المصدَّرة بحروف البيت الأول نسيباً والمصدّرة بحروف البيت الثاني مديحاً على ما جرت به العادة في مثلها».

فكيف نطلب منه في مثل هذه الحالة أن ينظم شعراً ذا قيمة وكيف يمكن أن ينتج عن ذلك شعر فيه إحساس وفيه شعور وله رونق؟!

ولكننا لن نقف عند هذا الشعر التقليدي لأنه لا يتعدى النظم ولا يختلف عن أنماط الشعر التي كانت سائدة في عصره.

بل إننا سنقف عند خمس قصائد فقط نشرها كاملة ثلاث منها لها قيمة وطنية وقومية، أولاها غير منشورة في ديوانه، والقصيدة الرابعة غزلية والخامسة توجيهية.

وهذه القصائد هي: الميمية والبائية والسينية والرائيتان.

١ ـ سلامٌ أيها العُرب الكرام (٤٢ بيتاً).
٢ ـ تنبهوا واستفيقوا أيها العرب (٤٨ بيتاً).
٣ ـ دع مجلس الغيد الأوانس (٦٠ بيتاً).
٤ ـ ما مرّ ذكرك خاطراً في خاطري (٥٢ بيتاً).
٥ ـ بعزمك لُذْ إذا عزَّ النصيرُ (٣٩ بيتاً).
بالاضافة إلى بعض الأبيات المختارة (ثمانية أبيات).

أما القصيدة الأولى «الميمية» فيبدأها بالقاء السلام على العرب ويخاطبهم بأدب واحترام فيقول في مطلعها:

سلام أيها العرب الكرامُ وجاد ربوع قطركم الغمامُ

وفيها يظهر لنا أنه واثق من أن العرب سيستعيدون أمجادهم الغابرة ومكانتهم التي كانت لهم تحت الشمس. وهو يرى الجمر تحت الرماد، وما بعد الظلام إلا سطوع الشمس، وان السيف لا يصدأ بل انه لا بد من أن يستعيد حدُّه مضاءه.

وإلى ذلك فهو يفاخر بتعداد أمجاد العرب في المشرق والمغرب وبما حققوه في تاريخهم المجيد من تقدم في العلوم والآداب ويغالي في ما يقول حتى انه يجعل العرب مصدر كل فضل فيقول:

لعمرك نحن مصدر كل فضلٍ وعن آثارنا أخذ الأنامُ

ويختم بمدح السلطان التركي عبدالعزيز.

أما القصيدة الثانية، وهي أشهر قصائده، اعتبرها البعض[٢] انها أول قصيدة في القومية العربية يدعو فيها العرب إلى اليقظة والنهوض والتحرر.

ويرى ميخائيل صوايا[٣]:

«ان اليازجي كان عربياً قومياً، عقيدة وعملاً لا محترفاً، أو طامعاً بمنصب من المناصب، أو رامياً من وراء ذلك إلى شهرة.

كان مندفعاً في ذاته، غيوراً على العرب، يفاخر بماضيهم ومآتي رجالهم: لم يقف حب اليازجي عند اللغة العربية بل تعداها إلى العرب».

ثم يقول عن هذه القصيدة إنها نظمت سنة ١٨٨٣ عند اندلاع ثورة عرابي باشا وانه قد نشرها تحت اسم مستعار وهرب إلى مصر.

بينما يذكر سليم سركيس[٤] (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦) ان هذه القصيدة قد نشرت على أنها من نظم «أحد مشايخ المسلمين الأعلام» ويورد نقلاً عن الدكتور خليل سعادة (١٨٥٧ ـ ١٩٣٤) قوله:

«الحقيقة أن القصيدتين (البائية والسينية) نظمهما الشيخ إبراهيم قبل اتصالي به ـ من المعروف أنه قد اتصل به في أوائل

الثمانينات من القرن الماضي واشترك وإياه في تحرير مجلة الطبيب (١٨٨٣ ـ ١٨٨٤) ـ وظل ناظمهما في الخفاء والكتمان ولم يذكر لي شيئاً عنهما في بيروت مع أنه لم يكن يخفي عني شيئاً بل لم يذكرهما أمامي قط رغماً من أن القصيدة السينيّة، وهي أشهرهما، كانت دائرة على الألسن. ولم يبح لي بسرّها إلا بعد قدومه إلى القاهرة (١٨٩٣)(*) ولا غرو في ذلك التكتم لأن حياته كانت تتوقف عليه».

(المرجع جريدة النهضة، العدد ١١٨ تاريخ ١٧/٣/١٩٣٨ ص ١).

بينما يذكر الدكتور نبيه أمين فارس في مقدمة كتاب «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس[٥] ما يلي (ص ١١):

«وقد اختار المؤلف هذا الاسم لكتابه الفريد متأثراً بمطلع بائية المغفور له الشيخ إبراهيم اليازجي التي ألقاها في اجتماع سرّي لنفر من أعضاء الجمعية السورية العلمية سنة ١٨٦٨. أما مطلع القصيدة فهو:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ[٦]»

ثم يذكر في هامش الصفحة عينها:

«لا يوجد نص كامل لمتن هذه القصيدة لأنها لم تدوّن بل تناقلها الناس على صفحات القلوب خوفاً من بطش الأتراك. ولم أرَ منها سوى واحد وأربعين بيتاً في كتاب أحمد عزت الأعظمي (القضية العربية) بغداد ١٩٣١ ص ٤٣ ـ ٤٨».

ثم يضيف (ص ١٢):

«وهي أول قصيدة ثورية، انطبعت على صفحات الأرواح وألواح النفوس، فأثارت الهمم من مكامنها وأخذت الناشئة العربية تترنّم بأبياتها الحماسية».

وهذا ما ينقله الدكتور كمال اليازجي في كتابه «روّاد النهضة الأدبية في لبنان الحديث (١٨٠٠ ـ ١٩٠٠)[٧]».

(*) يقول عيسى اسكندر المعلوف في كتابه، مختصر تاريخ المشايخ اليازجيين، (ص ٨٤) إنه دخل مصر سنة ١٨٩٦.

إن الدكتور نبيه أمين فارس يقع في أخطاء منها أن سنة نظم القصيدة ليست ١٨٦٨ وان عدد أبياتها ليس ٤١ بيتاً بل ٤٨ بيتاً. مما يدل على أنه لم يطّلع على ديوان «العقد» بل يأخذ عن كتاب الأعظمي. ورغم أن ديوان «العقد» غير مؤرخ، فإنه لا بدّ أن يكون قد صدر قبل سنة ١٩٦٢ وهي السنة التي كتب فيها الدكتور فارس مقدمته.

بينما يرى الدكتور يوسف قزما خوري، الذي نشر «أعمال الجمعية العلمية السورية»، ان القصيدة لم تلق في هذه الجمعية سنة ١٨٦٨ بل ألقيت في جمعيـة بيروت السريّة التي تأسست سنة ١٨٧٣(*) في بيروت واستمـرت حتى سنة ١٨٨٥ وكان عدد أعضائها ٢٢ عضواً كما يذكر أنطونيوس في كتابه (ص ١٤٩).

ومن المعـروف أن أعضـاء هذه الجمعيـة كانـوا يجتمعون في بناية «كولدج هول» في حرم الجامعة الأميركية في بيروت ولما شكّوا في أن أحد الذين يجتمعـون معهم كان يتجسس عليهم وضعوا أوراق الجمعية في صندوق أسود وهربوا إلى مصر خشية أن يتعرّضوا للقتل وكان من بينهم فارس نمر وشاهين مكاريوس وإبراهيم اليازجي ويعقوب صروف وكانوا قد لجـؤوا الى المحـافل الماسونية تستراً واخفاءً لنشاطهم المعادي للدولة التركية فالإخاء الماسوني يفترض فيه أن يحافظ على عدم إفشاء السر.

ومهما يكن من أمر، وسواء كانت القصيدة قد نظمت سنة ١٨٦٨ أم ١٨٧٣ أم ١٨٨٣ فإنها تبقى صرخة يطلقها الشاعر يهيب فيها بالأمة

(*) يذكر الدكتور أسد رستم في كتابه، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت، دار النهار للنشر، (١٩٧٣) (ص ٢٤٨ ـ ٢٥٣):

«إن صروف ونمـر بالاشتراك مع آخـرين مثـل سليم عمـون، وإبراهيم اليازجي، وإبراهيم الحوراني، وبشارة زلزل، ووليم فان ديك، اسسوا في سنة ١٨٧٥ جمعية سرية عربية هدفها الاسمى الوصـول إلى سلخ لبنـان وسوريا عن جسم السلطنة العثمانية. وخشي أعضاء هذه الجمعية أن تنكشف أعمـالهم ومآربهم فأخذوا أوراقهم وسجلاتهم وأحرقوها في ليلة دامسة من ليالي تشرين الثـاني/نوفمبر من السنة ١٨٨١ في قعر أخدود من الأرض بين مدرسة الطب في الجامعة وبيت الدكتور جورج بوست».

ويقول أسد رستم إنه استقى هذه المعلومات من فارس نمر نفسه خلال لقاء معه في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٣٠. وإن وليم فان ديك وآخرين أكدوا له صحة ما رواه فارس نمر.

العربية أن تنهض من سباتها الذي طال. وهو يعجب من استكانة العرب وصبرهم على الذلّ والهوان ويطلب إليهم أن ينبذوا التعصب وأن يتكاتفوا ويوحّدوا كلمتهم لكي يتمكنوا من الوقوف في وجه الأعلاج الطغاة الذين يتحكمون في رقابهم وهو يعني بهم الأتراك.

وهو يذكّرهم بأنهم أصحاب تاريخ مجيد وبأن أجدادهم العرب كانوا أعزاء فتحوا الأمصار وبنوا الصروح. ويقرّعهم لأنهم ألفوا الجهل والهوان ويطلب إليهم أن يُقدموا ويبادروا إلى الشجاعة؛ فإن الجبن ليس من شيمهم، وامتشاق السيوف للدفاع عن حقهم والذود عن كرامتهم فالنصر سيكون حليفهم وإن غداً لناظره قريب.

وهو يحذرهم من الخنوع والاستكانة والسكوت على البغي والظلم الذي يتعرضون اليه فقد فارقتهم النخوة وارتضوا كل ذلك فعلى الأقل أن يغضبوا. وهو يعجب من ذلك كله ويحثهم على أن يشمّروا عن سواعدهم ويعقدوا العزم على النهوض بأوطانهم ولينبذوا التعصب والتناحر وليقفوا صفاً واحداً لدرء الظلم. وهو يطالبهم ببذل نفوسهم، وهي أعز ما يملكون، في سبيل الدفاع عن حقهم وكرامتهم وعزتهم وحريتهم واستقلالهم، فالسيف وحده هو الوسيلة التي يجب أن تستخدم من أجل تحقيق ذلك.

وهو إلى ذلك يصف الذين يتحكمون بهم بأنهم أعلاج ما عرفوا سوى الفحشاء والمكر والكذب والخداع لا يحفظون عهداً ولا يقيمون وزناً للقيم. وهو يهدد أمة الترك الظالمة المستبدة من أنه سيأتي يوم تدفع فيه ثمن ما تقترفه من مظالم. واضح النقمة والعنف في هذه القصيدة والدعوة إلى الثورة.

أما القصيدة الثالثة «السينية» التي يبدأها بمطلع غزلي يقول فيه:

دعْ مجلسَ الغيدِ الأوانسْ   وهوى لواحظها النواعسْ[٨]

فهي لا تختلف عن سابقتها من حيث المدلول ففيها حث على ترك الغزل والتنعم واللهو وحياة البذخ والترف والانصراف إلى الجد وطرح الجهل وخلع نير الرق فإن الذليل لا يحترمه أحد ولا قيمة له فكيف يحق له العيش

الهنيء وهو في البؤس يرتع، مرابعه خراب ينعب فيها البوم، بعد أن كانت عامرة غناء فتحولت إلى قفر بلقع. فيحثهم على طرح الاستكانة والتبعية والتشبه بالشعوب الراقية التي حققت لها موقعاً تحت الشمس بفضل بطولة رجالها وعزيمة أهلها ويطلب إليهم أن يهبوا إلى محاربة الأتراك كما فعل سواهم من بلدان أوروبا، وأن ينبذوا التفرقة والتعصب والعداوة بين الأديان التي يُذكي نارها رجال الدين من أصحاب العمائم واللحى ويرى أن «الشر كل الشر ما بين العمائم والقلانس». فهم أصل البلاء وسبب الفساد الذين ينصبون حبائل الدسائس مما ساعد الأتراك على الإمعان في التنكيل والتمادي في البغي فلا إصلاح ولا صلاح إلا بالثورة والمجابهة والاندفاع في سبيل تحرير الأوطان من نير الاستبداد والاستعباد والتسلّط. فهو في هذه القصيدة يحمل حملة شعواء على رجال الدين ما ألفناها عند سواه. مما أدى إلى مهاجمته من قبل رجال الدين وخصوصاً المسيحيين منهم.

أما القصيدة الرابعة «الرائية»[٩] وهي كما سبق وذكرنا يجيب فيها صديقه رزق الله حسون الموجود في بلاد المغرب. فهي غزل صريح. فكيف يصح أن يقولها في رجل مهما كانت وشائج المودة والصداقة بينهما؟!

ففيها الوجد والهوى والشوق والتغزل بحسنه، وحرقة اللواعج والقلب المعذب ورغم ذلك فهو صابر يصبو إلى رضى حبيبه. ثم يسترسل في شكوى الزمان والقدر ومعاملة الناس إلى أن ينتقل إلى مدح صديقه ووصفه باللوذعي، القطب، الأديب، والشاعر المبدع، وصاحب العقل الراجح، وينهيها بتأكيده على أنه باقٍ على العهد ما دام على قيد الحياة.

فإذا كانت العادة قد جرت منذ القديم أن يخاطب الشاعر حبيبته على انها مذكر فيقول: لي «حبيب» بدلاً من أن يقول «حبيبة». وإذا كان مبرراً أحياناً أن تخاطب الشاعرة حبيبها على أنه امرأة وذلك تقيّة وتستراً لأنها تعيش في مجتمع مغلق متزمت لا يسمح للمرأة بأن تعبّر عن شعورها وأحاسيسها بصراحة ووضوح[١٠] فما هو المبرّر للشاعر أن يكنّي أو يتستّر في شعره الغزلي؟!.

وما نريد أن نشير إليه، هو أن هذه العاطفة الجياشة، التي تتجلى في هذه القصيدة، ليس من المعقول أن تكون بين رجل ورجل.

وهذا ما يشير اليه عيسى اسكندر المعلوف عندما يقول عنها:

«إنها من رشيق غزلياته».

أما القصيدة الخامسة «الرائية»[١١] فيقول عنها عيسى اسكندر المعلوف (المقتطف ص ٤٨٥):

«فنظم في صباه منظومات رشيقة أهمها قصيدة بقيت في زوايا الكتمان نظمها على ما أظن في أوائل سنة ١٨٦٩ وتلاها في أحد المنتديات ننشرها برمتها لندرتها»[١٢].

والواقع أن القصيدة ألقيت في أحد المحافل الماسونية في بيروت كما تشير مقدمتها في الديوان وهي في ٣٩ بيتاً وليس كما أوردها المعلوف من ٣١ بيتاً. والملاحظ أن في القصيدة التي يوردها المعلوف اختلافاً في النص فهناك تغيير في بعض الكلمات وحذف لبعض الأبيات.

والقصيدة توجيهية فيها مواعظ وإرشادات ناجمة عن تجارب في الحياة ـ مع أنه عندما نظمها كان في مطلع شبابه ـ. ثم ينتقل إلى الحث على النهوض مخاطباً أبناء وطنه:

بني أمي أفيقوا من سباتٍ لطول زمانه سئم السريرُ
إذا مضت الحياةُ على رقادٍ تشابهت المضاجعُ والقبورُ

هذا ما عاد وذكره في قصيدته «البائية»: تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ.

ثم يقول إن الأمور الجليلة تحتاج إلى جهود عظيمة. وإن وحدة اللغة بين أبناء الأمة العربية ليست بكافية، إذا اختلفت النيّات، لتوحيد الأمة:

فهبّوا بالتعاضد يا لقومي ليحسن من عواقبنا المصيرُ

يذكّر بأمجاد العرب ويطالب بأن يُتمثّل بهم وتُقتفى سبلهم ولا يُكتفى بالنوم على الأمجاد الغابرة.

ثم يحثّ السامعين على النهوض لبناء المعالي وإعادة مجد الأمة فهم

القيمون على هذا الأمر الجلل. وذلك في ظلّ الحكم العثماني فيقول مادحاً الدولة العظمى (الدولة العثمانية):

وظلُّ الدولة العظمى علينا بإدراك النجاح لنا بشيرُ

تقدم ورقي وصحوة ولكن في ظل الامبراطورية العثمانية!

وقبل أن ننهي كلامنا حول شعر اليازجي الوطني والقومي والثوري الذي استشهدنا عليه نورد ما يذكره الدكتور نبيه أمين فارس في مقدمته لكتاب «يقظة العرب» (ص ١٥ ـ ١٦) وهو انه يوافق المؤلف جورج أنطونيوس على أنه باستطاعة المؤرخ أن يحدد بداية اليقظة العربية الحديثة في هذه الفترة ـ فترة الجمعيات الأدبية والعلمية بين سنتي ١٨٤٧ ـ ١٨٦٨.

ثم يرد على الذين يخالفون هذا الرأي القائلين بأن العرب لم ينسوا يوماً أنهم عرب ولم «يناموا» البتة حتى يستيقظوا فيقال اليقظة العربية فيقول:

«وإذ نُقرّ أن العرب لم ينسوا يوماً انهم عرب وحافظوا دوماً على لغتهم على الرغم مما أصابها من لكنة ورطانة وما لحق تراثها الأدبي حتى كاد أن يدفن في غياهب النسيان، ونُقرّ أيضاً أن الداعين إلى البعث العربي في فكرة الجمعيات الأدبية والعلمية (١٨٤٧ ـ ١٨٦٨) كانوا في الغالب من النصارى، وانهم لم يمثلوا سواد الشعب، غير أننا مقتنعون بأنه لولا هذه الجمعيات الأدبية ولولا هذه القصائد الثورية لبقيت الفكرة القومية بعيدة عن العرب إلى حد كبير. (لقد غرس هؤلاء بذرة القومية والوطنية وبعثوا حركة مستوحاة من تاريخ العرب ومآثرهم تستهدف مُثلاً قومية بدلاً من المُثل الدينية والطائفية).

ومن الأدلة على أن القصائد الثورية والخطب الوطنية أذكت الروح القومية وأدت إلى تكتلات منظمة تعبّر عن أحلام العرب وخوالجهم القومية تلك الجمعيات التي قامت في السر والعلانية تطالب بحقوق العرب والحض على النهضة».

هنا تبرز لنا أهمية شعر إبراهيم اليازجي الوطني والقومي الذي كان

الشرارة التي انتشرت في الهشيم فأدت إلى انـدلاع نار الثورة كما كان النفير الذي دعا إلى الحرية والتحرر.

وإلى ذلك يشير مارون عبود في تقديمه لديوان اليازجي «العقد» الذي نشرته دار مارون عبود[١٣] (ص ١٦):

«فلابراهيم شعر حماسيّ قوميّ أهاب فيه ببني يعرب يوم كانوا يعملون لاسترداد المُلك المفقود. نظم قصيدتين شهيرتين (وهو يقصد «البائية» و«السينيّة») نشرتا غفلاً في بيروت، فاقضّتا مضجع الوالي فبثّ جلاوزته ورجال شرطته لينزعوهما عن الجدران».

ومهما يكن من أمر، فإن اليازجي شاعر مقل كما أشرنا، شعره تقليدي بمجمله ولا يتجاوز عدد القصائد الموفقة عدد أصابع اليد. وليس صحيحاً ما يقوله عيسى اسكندر المعلوف في كتابه الآنف الذكر[١٤]:

«على أن الشيخ إبرهيم تفرد بشعره كما تفرّد بنثره فكانت قصائده فرائد قلائد في جيد المنظومات».

وكذلك يبالغ كثيراً عيسى ميخائيل سابا[١٥] في ما يقوله عن شاعريته:

«فالناظر في شعره يتبين له أن هبة الشعر لم تندّ عنه، فنظمه يبدو حلواً جميلاً مسبوكاً بلغة أنيقة متخيّرة الألفاظ، فقد جمع بين السهولة والمتانة، والرقة والجزالة، والقوة».

فاته ان الشعر ليس مجرد لغة سهلة ومتينة وألفاظٍ جزلة متخيرة. الشعر معانٍ رائعة وأفكار وصور شعرية مبتكرة.

ومن المعروف أن اليازجي توقف عن نظم الشعر واستمر في الكتابة في حقول اللغة وسائر فنون الأدب والمواضيع العلمية. ولعله أدرك أن الشعر لا يطعم خبزاً وانه مطلوب من الشاعر في ذلك العصر أن ينظم الشعر في المديح والرثاء والمناسبات وما إلى ذلك، بينما الشعر وجد لأهداف أنبل وأشرف. وهو يعترف في رسالة وجهها إلى عيسى اسكندر المعلوف بتاريخ ١٨/٢/١٩٠٣ صادرة عن القاهرة يقول له فيها:

«طلبتم ما لي من الشعر العصري وهو أقل من القليل لأني قد تركت الشعر من زمنٍ طويل فلا أنظم إلا عن ضرورة ماسّة».

أما الدكتور عمر فروخ (١٩٠٦ ـ ١٩٨٧) فيقول عنه[١٦]:

«وبما أن نشاطه الأدبي كان في العصر الحميدي (عهد السلطان عبدالحميد الثاني)، فإنه قد انبرى لتقبيح الظلم والاستبداد ولدعوة العرب إلى التضامن والجهاد. وله في ذلك قصائد نشرها غُفلاً من التوقيع أشهرها بلا ريب قصيدته البائية التي يقول فيها:

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ»

ثم يعطي رأيه في شعره فيقول:

«ولا يعد الشيخ إبرهيم اليازجي في الشعراء المتقدمين، أما الذي حفظ قصائده فالعاطفة القومية العربية التي فيها وليس أسلوبها الذي يميل أحياناً إلى الضعف. أضف إلى ذلك أن شعره بعيد عن الطبع وان قوافيه قلقة...».

ورأي الدكتور عمر فروخ هذا في شعره مطابق لما سبق وذكرناه. وإن القيمة الأهم للقصائد الوطنية التي اخترناها انه يدعو فيها الشعوب العربية إلى التحرر والنهوض وتحطيم القيود ونبذ الذل والهوان.

ويكفيه أنه في شعره القوميّ هذا كان الرائد إلى الدعوة التحررية وباعث الهمم ونافخ روح التوعية.

[سلام أيها العرب الكرام][*]

القصيدة التي أنشدها الشيخ إبراهيم اليازجي
[في الحث على التقدم]

[المجموعة الثانية من اعمال السنة الأولى. ص ٤٤ ـ ٤٦]

سَلامٌ أيها العَرَبُ الكرامُ ... وجادَ ربوعَ قطركمُ الغمامُ
لقد ذكرَ الزمانُ لكم عهوداً ... مضت قِدَماً فلم يضع الذمامُ

(*) ألقيت مساء يوم الأربعاء الواقع في ١٢ شوّال سنة ١٢٨٤ هـ و٢٤ كانون الثاني/يناير [ش] و٥ شباط/فبراير [غ] ١٨٦٨. نشرت في اعمال الجمعية العلمية السورية (١٨٦٨ ـ ١٨٦٩)، إعداد وتحقيق الدكتور يوسف قزما خوري، دار الحمراء رأس بيروت ١٩٩٠ (ص ٤١ ـ ٤٢). وهي غير منشورة في ديوانه. العقد.

تناثرَ عقدُنا قدماً ولكن ... سيرجعُ بالبها ذاك النظامُ
وما غربت مآثرنا ولكن ... تعرَّض دونَ أوجهها لثامُ
أرى بين الرمادِ وميضَ جمرٍ ... يلوحُ فلا تقل خمد الضرامُ
إذا قُطعت غصونُ الدوح يوماً ... فلا تيأس إذا بقيَ الحُطامُ
وإنَّ الجسمَ يهزله سَقامٌ ... ولكن ليس يُفنيهِ السَقامُ
ونقصُ البدرِ ما لا بُدَّ منهُ ... ولكن بعدهُ يأتي التمامُ
وما بعدَ الظلامِ سوى نهارٍ ... يزولُ بنورهِ ذاك الظلامُ
فحيَّ على الفلاحِ فقد تجلَّى ... عمودُ الصبحِ وارتحلَ القَتامُ
قد انعقدت مجالسُنا ولاحت ... وصحَّ لها على الفضلِ التئامُ
مجالسُ للعلومِ غدت مناراً ... بهِ لغياهب الجهل انصرامُ
جلاها كلُّ ابلجَ أريَحيٍّ ... تقرُّ لهُ البلاغةُ والكلامُ
تُجزَّ من اياديهِ المواضي ... وتُرسَلُ من لواحظِه السهامُ
رجالٌ في انتشار الفضل جدُّوا ... وفي حب العلوم صبوا وهاموا
تلاعبت الحميَّةُ في نُهاهم ... كما لعبت بشاربها المُدامُ
تهزُّ الأريحيَّةُ كلَّ يومٍ ... معاطفهم كما اهتزَّ الحُسامُ
همُ الشُهبُ المطيرةُ فوق ارضٍ ... يلوح لنوئِهم فيها غمامُ
غمامٌ قد تخلَّلَهُ بُروقٌ ... يصافحها الرجاءُ متى تُشامُ
جهابذةٌ يقوم الفردُ منهم ... بما أعيى بهِ الجيشُ اللُّهامُ
إذا امتدَّت معاصمُهم لأمرٍ ... فليس يفوتها منهُ مُرامُ
كذلك جهدُ أهل الجهد حتى ... يصيرَ بهم إلى الذهب الرَّغامُ
وما يُعيي الفتى استحصالُ أمرٍ ... إذا نهضت به الهممُ الجسامُ
سيعلمُ من يفاخرنا بأنَّا ... من الدنيا الجهابذةُ العظامُ
وقد بَرِحَ الخفاءُ وكلُّ عينٍ ... لها من دون يقظتها منامُ
وما العَرَبُ الكرام سوى نصالٍ ... لها في أجفن العليا مقامُ
إذا غشيَّ صفائحها صداءٌ ... فليس بحدِّها الماضي انثلامُ
سنُرجعُ ما طَوَى غدرُ الليالي ... ونبني ما تداوَلَهُ انهدامُ
لعمرك نحن مصدرُ كلِّ فضلٍ ... وعن آثارنا اخذ الأنامُ
ونحن أولو المآثر من قديمٍ ... وإن جحدت مآثرنا اللئامُ

فقد علمَ العراقُ لنا قديماً — أيـاديَ ليس تُنكرها الشآمُ
وفـي أرض الحجازَ لنا فيوضٌ — يسيل لهـا إلى اليَمَنِ انسجامُ
وفـوق الأندَلوسِ لنا بُنودٌ — لهامـاتِ النجومِ بها اعتمامُ
وسلْ في الغربِ عن آثارِ فخرٍ — لها في جبهة الزَمَن ارتسامُ
ولسنـا القانعينَ بذكرِ هذا — وليس لنـا بعُروتِه اعتصامُ
ولكنّـا سنجهَدُ في المعالي — إلى أن يستقيمَ لهـا قِوامُ
ونُـرجعُ أعصُرَ الآداب تزهو — بدولة مـن هو الملكُ الهُمامُ
مـليكٌ بين أيديهِ الليالي — جوارٍ والزمانُ لـهُ غلامُ
على عبدالعزيزَ صـلاةُ رَبٍّ — يقارنهـا رضاهُ والسلامُ
أقامَ لواءَ المراحم فوق بابٍ — بهِ لركائبِ الحمدِ ازدحامُ
وشيَّدَ للتمدُّنِ كلَّ ركنٍ — لـهُ بسَنى عنايتهِ قيامُ
تُوَالي الشكرَ ألسنةُ البرايا — عليهِ والدعاءُ لهُ ختامُ

وهي مما نظمه عند مخاض الثورة العربية سنة ١٨٨٣(*)

تنبّهـوا واستفيقـوا أيها العـربُ — فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الرُكَبُ
فـيمَ التعلّل بالآمـالِ تخدعكم — وانتـمُ بين راحـاتِ القَنا سَلَبُ
اللـهُ أكبرُ مـا هذا المنـامُ فقـد — شكاكـم المهدُ واشتـاقتكم التُّـرَبُ
كم تُظلَمون ولستم تشتكون وكم — تُستغضَبون فلا يبدو لكم غضبُ
ألِفتُـم الهُونَ حتـى صار عنـدكمُ — طبعاً وبعضُ طباعِ المرءِ مُكتسَبُ
وفارقتكـم لطولِ الـذلّ نخوتُكـم — فلـيس يُؤلِمكم خَسـفٌ ولا عطبُ
للـهِ صبرُكم لـو أنَّ صبرَكم — في مُلتقى الخيل حين الخيلُ تضطربُ
كـم بين صبرٍ غدا للذلّ مجتلِـباً — وبيـن صبرٍ غدا للعـزّ يجتلِبُ
فشمّروا وانهضوا للأمر وابتدروا — من دهركم فرصةً ضنّت بها الحِقَبُ
لا تبتغـوا بالمنى فوزاً لأنفسكم — لا يصدق الفوزُ ما لم يصدقِ الطَلَبُ
خلّوا التعصبَ عنكم واستووا عُصَباً — على الوئامِ ودفعِ الظلمِ تعتصبُ
لأنتـمُ الفئةُ الكُثـرى وكم فئةٍ — قليلةٍ تـمّ إذ ضمّت لهـا الغَلَبُ
هذا الذي قد رمى بالضعف قوّتكم — وغادرَ الشملَ منكم وهو منشعبُ

وسلّط الجورَ في أقطاركم فغدت   وأرضها دون أقطار الملا خَرَبُ
وحكّم العِلجَ فيكم مع مهانته   يقتادكم لهواهُ حيث ينقلبُ
من كل وَغدٍ زنيمٍ ما له نسبٌ   يُدرَى وليس له دينٌ ولا أدبُ
وكل ذي خَنَثٍ في الفُحش منغمسٍ   يزداد بالحكّ في وجعائه الجَرَبُ
سلاحُهم في وجوهِ الخصمِ مكرهمُ   وخير جندهم التدليسُ والكَذِبُ
لا يستقيمُ لهم عهدٌ إذا عقدوا   ولا يصحّ لهم وعدٌ إذا ضَرَبوا
إذا طلبتَ إلى ودّ لهم سبباً   فما إلى ودّهم غيرَ الخَنى سببُ
والحقُّ والبُطلُ في ميزانهم شَرَعٌ   فلا يميل سوى ما ميّلَ الذهبُ
أعناقكم لهم رقٌّ وما لكمُ   بين الدُمَى والطِلا والنردِ مُنتهبُ
باتت سِمانٌ نعاجٍ بين أذرُعكم   وبات غيركم للدَرّ يحتلبُ
فصاحبُ الأرضِ منكم ضمن ضيعتهِ   مستخدَمٌ وربيبُ الدار مغتربُ
وما دماؤكمُ أغلى إذا سُفِكت   من ماءِ وجهٍ لهم في الفُحشِ ينسكبُ
وليس أعراضكم أغلى إذا انتُهِكت   من عِرضِ مملوكهم بالفلس يُجتَلَبُ
باللهِ يا قومنا هبّوا لشأنكمُ   فكم تناديكمُ الأشعارُ والخُطَبُ
ألستمُ مَن سطوا في الأرض وافتتحوا   شرقاً وغرباً وعزّوا أينما ذهبوا
ومن أذلّوا الملوكَ الصِيدَ فارتعدت   وزلزلَ الأرضَ مما تحتها الرَهَبُ
ومن بَنَوا لصروحِ العزّ أعمدةً   تَهوي الصواعقُ عنها وهي تنقلبُ
فما لكم ويحكم أصبحتمُ هَمَلاً   ووجه عزّكم بالهُون منتقبُ
لا دولةٌ لكم يشتدّ أزركم   بها ولا ناصرٌ للخطب ينتدبُ
وليس من حُرمةٍ أو رحمةٍ لكمُ   تحنو عليكم إذا عضّتكمُ النُوَبُ
أقداركم في عيون الترك نازلةٌ   وحقكم بين أيدي الترك مُغتَصَبُ
فليس يُدرى لكم شأنٌ ولا شرفٌ   ولا وجودٌ ولا اسمٌ ولا لَقَبُ
فيا لَقومي وما قومي سوى عربٍ   ولن يضيّع فيهم ذلك النسبُ
هبْ أنه ليس فيكم أهلُ منزلةٍ   يقلّد الأمر أو تُعطى له الرُتَبُ
وليس فيكم أخو حزمٍ ومَخبُرةٍ   للعقد والحلّ في الأحكام يُنتخَبُ
وليس فيكم أخو علمٍ يُحكَّم في   فصل القضاءِ ومنكم جاءت الكُتُبُ
أليس فيكم دمٌ يهتاجه أنَفٌ   يوماً فيدفع هذا العار إذ يَثِبُ
فأسمِعوني صليلَ البِيضِ بارقةً   في النَقعِ إني إلى رنّاتها طَرِبُ

واسمعوني صَدَى البارودِ منطلقاً — يـدوي به كلُّ قاعٍ حينَ يصطخبُ
لـم يبقَ عندكمُ شيءٌ يُضَنُّ بهِ — غيرَ النفوس عليها الذلّ ينسحبُ
فبـادروا الموت واستغنوا براحته — عن عيشِ من مات موتاً ملؤه تَعَبُ
صبراً هيا أمة التركِ التي ظلمت — دهراً فعمّا قليلٍ تُرفعُ الحُجُبُ
لنطلبـنَّ بحدِّ السيـفِ مأربَنا — فلـن يخيب لنـا في جنبه أرَبُ
ونتـركنَّ علوجَ التـرك تندب مـا — قد قدّمتـه أياديها وتنتحـبُ
ومَـن يَعِشْ يَـرَ والأيام مُقبلةٌ — يلـوحُ للمرءِ فـي أحداثها العَجَبُ

ومن ما نظمه عند مخاض الثورة العربية ١٨٨٣

تنبّهوا واستفيقوا أيها العربُ — فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الرُّكَبُ
فيمَ التعلّل بالآمال تخدعكم — وأنتمُ بين راحات القنا سَلَبُ
الله أكبر ما هذا المنام فقد — شكاكم المهد واشتاقتكم التُّرَبُ
كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم — تُستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
ألفتمُ الهونَ حتى صار عندكمُ — طبعاً وبعض طباع المرء مكتسَبُ
وفارقتكم لطول الذل نخوتكم — فليس يؤلمكم خسفٌ ولا عطبُ
لله صبركمُ لو أنّ صبركمُ — في ملتقى الخيل حين الخيل تضطربُ
كم بين صبرٍ غدا للذل مجتلَباً — وبين صبرٍ غدا للعزّ يجتلبُ
فشمّروا وانهضوا للأمر وابتدروا — من دهركم فرصةً ضنّت بها الحِقَبُ
لا تبتغوا بالمنى فوزاً لأنفسكم — لا يصدق الفوز ما لم يصدق الطلبُ
خلّوا التعصب عنكم واستووا عُصَباً — على الوئام ودفع الظلم تنتصبُ

لأنتم الغصة الكبرى وكم قصة	تليها تم اذ ضمت لها الغلب
هذا الذي قد درى بالضعف قوتكم	وعاب بالشمل منكم وهو منشعب
وسلط الجور في اقطاركم فغدت	وارضها دون اقطار الملا خرب
وحكم العلج فيكم مع مهانته	يقتادكم لهواه حيث ينقلب
من كل وغد زنيم ماله نسب	يدرى وليس له دين ولا ادب
وكل ذي خنث في الفحش منغمس	يزداد بالمكث في وجعائه الجرب
سلاحهم في وجوه الخصم مكرهم	وخير جندهم التدليس والكذب
لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا	ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا
اذا طلبت الى ود لهم سببا	فما الى ودهم غير الخنى سبب
والحق والبطل في ميزانهم شرع	فلا يميز سوى ما ميل الذهب
اغنياكم لهم رق وما لكم	بين الدنى والطلا والزد منتهب
باتت سباع نعاج بين اذرعكم	وبات غيركم للدر يحتلب

صورة لمطلع القصيدة بخط الشاعر كما نشرت في ديوانه، العقد (ص ٥٦).

كتبت عند مخاض الثورة العربية ١٨٨٣

دَعْ مجلسَ الغيدِ الأوانسْ	وهوى لواحظها النواعسْ
واسلُ الكؤوسَ يُديرها	رَشأ كغصن البان مائسْ
ودَعِ التنعّمَ بالمطا	عمِ والمشارب والملابسْ
أيُّ النعيم لمن يبيتُ	علَى بساطِ الذلّ جالسْ
ولمن تراهُ بائساً	أبداً لذيل الترك بائسْ
ولمن أزمّته بكفِّ	عِداهُ يُظلمُ وهو آئسْ

ولمن غدا في الرِّقِّ ليس ... يفوتُه إلا المناخسْ
ولمن تباعُ حقوقُه ... ودماؤُه بيعَ الخسائسْ
ولمن يرى أوطانَهُ ... خِرَباً وأطلالاً دوارسْ
كُسيَتْ شُحوبَ الثاكلا ... تِ وكنَّ قبلاً كالعرائسْ
عُجْ بي فديتكَ نادباً ... ما بين أرسُمها الطوامسْ
واستنطقِ الآثارَ عمّا ... كان في تلكَ البسابسْ
من عِزَّةٍ كانت تذلّ ... لها الجبابرةُ الأشاوسْ
وكتائبٍ كانت تها ... بُ لقاءَ سطوتها المتارسْ
ومعاقلٍ كانت تعزَّز ... بالطلائعِ والمحارسْ
ومدائنٍ غنّاءَ قد ... كانت تحفُّ بها الفرادسْ
أين المتاجرُ والصنا ... ئعُ والمكاتبُ والمدارسْ
بل أين هاتيكَ المرو ... جُ بها المزارعُ والمغارسْ
بل أين هاتيكَ الألو ... فُ بها فسيحُ البرِّ آنسْ
هلكوا فلستَ ترى سوى ... عِبَرٍ تثورُ بها الهواجسْ
بيدٌ صوامتُ ليس يُسمعُ ... في مداها صوتُ نابسْ
إلا رياحُ الجَورِ تكسحُ ... وجهها كسحَ المكانسْ
أمستْ بلاقعُ لا تُرى ... إلا بأبصارٍ نواكسْ
ضحكتْ زماناً ثم عا ... دت وهي كالحةٌ عوابسْ
غضبتْ على الإنسانِ واتخذ ... تْ عليها الوحشَ حارسْ
فإذا أتاها الإنسُ را ... حَ يدوسها دوسَ المُخالسْ
هذه منازل من مضوا ... من قومنا الصِيد القناعسْ
دَرَسَتْ كما دَرَسُوا وقد ... ذهبَ النفيسُ مع المُنافسْ
ماذا نؤمّل بعدهم ... إلا مُقارعةَ الفوارسْ
فإليكم يا قومُ واطّرحوا ... المُدالسَ والمُؤالسْ
وتشبهوا بفعالِ غيرِ ... كمُ من القومِ الأحامسْ
بعصائبٍ انِفوا فجا ... دوا بالنفوسِ وبالنفائسْ
هبّت طلائعُهم يليها ... كلُّ صنديدٍ ممارسْ
تركوا جموعَ الترك تعصفُ ... فوقها النُكْبُ الروامسْ

ملأوا البطاحَ بهم فدا ... سَ على الجماجمِ كلُّ دائسْ
فخذوا لأنفسكم مثا ... لَ أولئك القومِ المَداعسْ
أوَ لستمُ العربَ الكرا ... مَ ومن هم الشُّمُّ المَعاطسْ
فاستوقدوا لقتالهم ... ناراً تروّع كلَّ قابسْ
وعليهم اتحدوا فكلّكُم ... لكلّكُم مُجانِسْ
ودَعوا مقالَ ذوي الشّقا ... قِ من المشايخِ والقمامسْ
فَهُمُ رجالُ اللهِ فيكم ... بل هم القومُ الأبالسْ
يمشونَ بين ظهوركم ... تحتَ الطيالِسِ والأطالِسْ
فالشرُّ كلُّ الشرّ ما ... بينَ العمائمِ والقلانسْ
دبَّتْ عقاربُهم إليكم ... بالمفاسدِ والدسائسْ
في كلّ يومٍ بينكم ... يُصلي التعصبُ حربَ داحسْ
يُلقونَ بينكم التبا ... غضَ والعداوةَ والوساوسْ
نثروا اتحادكم كما ... نُثِرتْ من النخلِ الكبائسْ
سادَ الفسادُ بهم فسا ... دَ التُّرْكُ فيه بلا مُعاكسْ
قومٌ لقد حكموا بكم ... حكمَ الجوارحِ في الفرائسْ
وعَدَت عوادي البغي تعر ... قكم بأنيابٍ نواهسْ
كم تأملونَ صلاحَهم ... ولهم فسادُ الطبعِ سائسْ
ويغرّكم برقُ المُنَى ... جهلاً وليلُ اليأسِ دامسْ
أوَ ما ترونَ الحكمَ في ... أيدي المُصادرِ والمُماكسْ
وعلى الرُّشَى والزُّور قد ... شادوا المحاكمَ والمجالسْ
والحقُّ أصبحَ عند من ... ألِفَ الخلاعةَ والخلابسْ
من كلّ من يمسي إذا ... ذكروا له الإصلاحَ خانسْ
عمّت قبائحهم فأمست ... لا تحيط بها الفهارسْ
حالٌ بها طابَ التبسّمُ ... للوغى والموتُ عابسْ
وحلا بها بذلُ الدماءِ ... فسفكها للجَور حابسْ
بَرِحَ الخفاءُ ومن يَعِشْ ... يَرَ ما تَشيبُ لهُ القوانسْ

قال وقد أجاب بها السيد رزق الله حسون
في بلاد المغرب عن رسالة بعث بها إليه

مـا مرَّ ذكرك خاطراً فـي خاطري	إلا استيـاخ الشوقُ هتك سَرائري
وتصبَّبتْ وَجداً عليكَ نـواظرُ	باتت بليلٍ مـن جفائـك ساهرِ
بلغ الهوى مني فإن أحببتَ صِل	أو لا فدتك خُشاشتي ونواظري
قسمـاً بحسنكَ لم أصادف زاجـراً	إلا وحسنـكَ كان عنـهُ زاجـري
أوَ ما كفـاكَ من الذي لاقيتُـهُ	ولَهُ كسانـي الذلَّ بيـن معاشري
وضنىً يكادُ يشفُ عـن طيِّ الحشا	حتى خشيتُ به افتضاحَ ضمائري
اخذتْ عيـونُك من فؤادي مَوثِقاً	وعليَّ عهدُ هـواكَ لستُ بغـادرِ
كن كيف شئتَ تجد مُحبّكَ مثلما	تهـوى على الحالين غير مغايـرِ
صبـري عليك بما أردتَ مطـاوعٌ	ابـداً ولكن عنك لستُ بصابـرِ
عذَّبتَ قلبي بالصـدودِ وان يكن	لك فيه بعضُ رضىً فدونك سائري
واضعـتَ عمري بالـدلال وحبذا	ان صحّ عنـدك مطمعٌ في الآخـرِ
كَثُـرَ التقوُّلُ بيننـا وتحدّثـوا	يـا هاجري حاشاكَ انـك هاجري
وأطـالَ فيك معنِّفـي فَعذرتُهُ	وعسـاكَ في كلفي فديتـك عاذري
حسـبي رضاكَ إذا مننتَ بزورةٍ	يُدْرَى المـزورُ بها رفيقَ الزائرِ
مـالأتْ أيامي فقبِّـحَ وجهَهـا	جورُ الخطوبِ وكنتُ أحسن جائرِ
بـي يا وقـاكَ الله كـلُّ مُلِمّةٍ	أمسى بهـا جَلْدي كجرفٍ هائرِ
غيرُ يديرُ بهـا الحكيمُ لحاظَهُ	فتـردّه عنهـا بطرفٍ حـائرِ
بَكَرَت إلـيَّ الحادثاتُ فلـم أزل	منهـنَّ بيـن نواجذٍ وأظافـرِ
وتألَّفـت عندي الهمـومُ ففرّقت	هِممي ومـا برح القضاءُ مساوري
نـزلت بي الدنيـا على أربابهـا	فاقضتُ بيـن مواردٍ ومصـادرِ
وبلوتُ مـن اهلِ الزمانِ سرائـراً	هي مصرعُ الساهي ومَنْجى الساهرِ
فسمعتُ حتى لستُ أحمدُ مِسمَعي	ونظرتُ حتى لستُ أحمدُ ناظري
والعيـنُ آذى للبصيرِ ورُبما	سَلِمَ الضريرُ وكان عين العاثرِ
يا من يطـارحني المودّةَ غائباً	إيـهٍ وقاكَ اللهُ شرَّ الحاضـرِ
خِلَقٌ يمرّ بهـا الكريمُ ووجهُه	في أعينِ النُّظّـارِ أغربُ سافـرِ
من كـل خُنّاسٍ إذا استقبلتَـهُ	فـإذا انقلبتَ رنا بمقلةِ شـازرِ

ولقد رأيتُ فما رأيتُ أشدَّ مِن ... مرأى العزيزِ على حسودٍ صاغرِ

ومن المهانةِ أن تقابلَ هيّناً ... يقلاك إلا بابتسامةِ ساخرِ

وبِمَ اعتدادُ الأدعياء وجهدهم ... سرد الدعاوى وهي أضعفُ ناصرِ

كذب الغبيُّ أيبتغي دَرَكَ العُلى ... بفؤاد مزهوٍ ومنطق هاذرِ

أم يحسب الرتب المحسَّد فضلها ... عِدَةً بوصلٍ من حبيبٍ هاجرِ

كلّا قد انحسرَ الحجابُ وإنما ... أبصارُ قومٍ في حجابٍ ساترِ

وكذاك بعضُ الجهل يسترُ بعضهُ ... فاعذر إذا خُفِيَت كرامُ مآثرِ

وبمهجتي من ليس يبرحُ طيفهُ ... تحت الظلام مسامري ومحاوري

سبقت صنائعهُ إليّ ولطفهُ ... وهو السَبُوقُ بكلّ فضلٍ باهرِ

قد أذهلتْ لبّي الخطوبُ بوقعها ... عنه وكان على ذهولي ذاكري

فعرفتُ عجزي فيه غيرَ مكذِّبٍ ... وعرفتُ فضلَ عُلاهُ غيرَ مُكابرِ

ذِممٌ ظفرتُ بها لديه وانها ... إرثٌ قديمٌ من أجلّ ذخائري

تلك المواثق ما برحنَ وهكذا ... كان الوفاء لديه خير أواصري

اللوذعيّ الفاضلُ القطبُ الذي ... ملكت يداهُ الفضلَ دونَ مُناظرِ

أدبٌ حكى زَهْرَ الرُبى وشمائلٌ ... رقّت فكانت كالنسيمِ السائرِ

ومناقبٌ تتلو مدائحها على ... أكبادِ أهلِ الغيّ سورةَ فاطرِ

واري الزناد إذا جرت أقلامُه ... أرَت البصائر أيّ لمحٍ باصرِ

يجلو القوافي في الطروس كأنها ... غِيدٌ جلاها الحبرُ تحت غدائرِ

وله الفصول المُحكَمات كأنها ... شذراتُ دُرٍّ فُصِّلت بجواهرِ

ولرُبَّ زائرةٍ جعلتُ محلّها ... قلبي وإن باتت مناط الناظرِ

عربيّة النفثاتِ وافت تنجلي ... بفصاحة البادي وظَرْفِ الحاضرِ

بسمت فما كذّبتُ حين رأيتُها ... بَسْمَ الثغور عن الجُمان الناضرِ

وتلت عليّ حديثه فوجدت ما ... يجدُ الطروبُ لذكرِ دهرٍ عابرِ

يا نائياً أيانَ أعرَضَ ذِكرُه ... ترك الفؤاد على جَناحي طائرِ

لك ذمةٌ عندي وإن عزَّ اللقا ... تبقى على مَرّ الزمانِ الغابرِ

هي موثِق الأخرى فدونك عَقْدَها ... والله في القلبين أفضلُ ناظرِ

قال وقد أنشدها في محفل لبنان معرِّضاً بأغراض(*)

بعـزمك لُذْ إذا عزَّ النـصيرُ ... ولا يعبـث بهمّتكَ الفتـورُ
وأسهر فـي ظلام الخطب جفنـاً ... لـه من فكره قمرٌ منيـرُ
ولا تُكِل الأمورَ إلى بنـانٍ ... تكـون لغيرها تلك الأمـورُ
فأصدَقُ مـن سعي لك أنت فيما ... تحـاوله وأنت به الجـديرُ
وقـد تُلقى الأمورُ إلـى غيورٍ ... ولكـن ربما سئم الغيـورُ
أتـمُّ مُناك مـا تسعى إليه ... بنفسـك عامـداً لا تستعيـرُ
تناولت البـدورُ ضياء شمسٍ ... فلم تستغـنِ بالشمسِ البـدورُ
ولسنا الجاحـدين لفضلِ قومٍ ... لهـم ما بيننـا فضلٌ شهيـرُ
رجالٌ أحسنـوا صنعاً ولكـن ... بما فـي البيتِ صاحبُهُ الخبيرُ
بني أمي أفيقـوا من سُبـاتٍ ... لطـول زمانه سئمَ السريـرُ
إذا مضت الحياةُ علـى رقادٍ ... تشـابهت المضاجـعُ والقبـورُ
معاذَ اللـهِ من أمـرٍ عظيمٍ ... بغـى إدراكَهُ هـمٌ صغيـرُ
فإن الأمرَ حيثُ غـدا خطيراً ... يـرامُ ازاءهُ الجهدُ الخطيـرُ
فَقُم بالأمرِ عـن قلبٍ سليمٍ ... يعاضـد صدقَهُ العزمُ الجَسُوْرُ
ولا تذهب بـك الأهواءُ يومـاً ... فراكبُ سُبلها غاوٍ عثُـورُ
أرانا باللسانِ قد اشتبهنا ... وما يُجْدِي إذا اختلفَ الضميرُ
لكلِ الطيرِ أجنحةٌ وريشٌ ... ولكن بينها ما لا يطيرُ
وإن الحـقَّ بين الناس شمـسٌ ... علـى أفقِ العقولِ لهـا ظهورُ
فمنـهُ لأكبدِ الجهلاءِ نـارٌ ... ومنه لأعيـنِ العُقَلَاءِ نـورُ
فهبـوا بالتعاضدِ يـا لقومي ... ليَحسُنَ من عواقبنـا المصيـرُ
ونظفرُ بعـد طولِ عَناً وجَهـدٍ ... بما سلبتـهُ أيدينَا الدهـورُ
ونرفعُ للحضـارةِ كلَّ صـرحٍ ... تمرّ بـه السحائبُ إذ تسيـرُ
السنا مـن سُلالةِ من تحلّت ... بذكرهـم الصحائـفُ والعصـورُ
وأبدوا فـي المعارفِ كلَّ شمسٍ ... يـزانُ بحسنِ بهجتهـا الأثيـرُ
لِنقْـفُ سبيلَهم ونجـدّ دهراً ... بعـزمٍ لا يملّ ولا يخـورُ

(*) الديوان، (ص ٢٥ ـ ٢٧).

ولا نَفْخَر بمجدهِم قديماً ... فذلك عندنا عارٌ كبيرُ
أينشىء من تَقدّمنا المعالي ... فإن بلغت أيادينا تبورُ
كأني بالبلادِ تنوحُ حزناً ... وقد أودى ببهجتها الثبورُ
يَحنُّ الأرزُ في لبنانَ شجواً ... وتندب بعد ذاك المجد صورُ
وتدمرُ في دمارٍ مستمرٍ ... وما سكّانها إلا النسورُ
وأضحت بعلبكُ وليس فيها ... سوى خِرَبٍ لعزّتها تشيرُ
تهاجمها الحوادثُ كلَّ يومٍ ... كما هجمت على الرَخَمِ الصقورُ
فلو دَرت البلادُ بما عراها ... لكادت من تلهّفها تَمورُ
فيا لله من حَدَثٍ مُريبٍ ... به تُشجَى المآقي والصدورُ
ولذّةُ أعينٍ نامت ولكن ... سيعقب نومَها دمعٌ خَريرُ
بكم وبسعيكم تُبنى المعالي ... وينمى روضها الزاهي النضيرُ
فأنتم أهلُ نجدتها وإلاّ ... فليس لها بغيرِكُم ظهيرُ
وظِلُّ الدولةِ العُظمَى علينا ... بإدراكِ النجاحِ لنا بشيرُ
فذلك فوقَ دوحِ العدلِ غيثٌ ... وذلك حول روضِ العلمِ سورُ

وله بيتان قالهما في معرض رد على أحمد فارس الشدياق لما انتقد والده وشدد الطعن عليه فقال الشيخ إبراهيم:

ليس الوقيعة من شاني فإن عرضت ... أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
إنـي أضن بعرضي ان يلـمَّ به ... غيري فهل أتولى خرقه بيدي

ومن نظمه ليكتب على عود:

وعود صفا الندمانُ قدماً بظله ... وما برحت تصفو إليه(١٧) المجالسُ
تعشقه طيرُ الاراكةِ أخضراً ... وحَنَّ اليه ريشةُ، وهو يابسُ

ومن نكاته الشعرية:

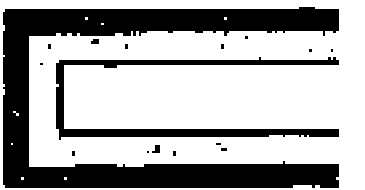
تَعَجَّبَ قومٌ من تأخر حالنا ... ولا عجبٌ في حالنا ان تأخرا
فمذ أصبحت أذنابنا وهي أرْؤُسٌ ... غدونا بحكم الطبع نمشي إلى الورا

وللشيخ إبراهيم اليازجي بيتان يصف بهما الساعة، قال:

ومحصيةٍ أعمارَنا، كلما انقضتْ ... لنا ساعةٌ، دقّت لها جرس الحزنِ

فيا بنتَ هذا الدهرِ سرتِ مسيرَه فهل أنتِ دون الناسِ منه على أمنِ

نقلاً عن «رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث ١٨٠٠ ـ ١٩٠٠»، للدكتور كمال اليازجي، الناشر مكتبة رأس بيروت، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٦٢ (ص ١٥١).



هوامش القسم الثالث

(١) ليس له ناشر أو تاريخ .وهو بخط يد الناظم .(هناك طبعة منقولة عنها صادرة عن دار مارون عبود، لبنان ١٩٨٣، مع مقدمة لمارون عبود).
فيه ترجمة للشاعر تقع في ٣٣ صفحة منقولة بتصرف عن مجلة الهلال تاريخ ١٩٠٧/٢/١.
يذكر لنا عيسى اسكندر المعلوف في كتابه، **المشايخ اليازجيين**، (ص ٧٨ ـ ٧٩) ما يلي:
«بقي ديوانه مخطوطاً إلى ان نشره الشيخ حبيب الذي ذهب إلى اوروبا سنة ١٩١٤ ونشبت الحرب الكبرى فاغتنم فرصة وجوده في باريس فأخذ ديوان عمه بالفوتوغراف بخطه الفارسي الجميل وحفره على الزنك ليطبعه، ولما سافر إلى البرازيل طبعه واضاف إليه ما كان منشوراً او مخطوطاً في اوراق منثورة».

(٢) «... الحركة العربية التي حدثت في سوريا أيام كان مدحت باشا زعيم الترك الاكبر والياً عليها... إن اللبنانيين كانوا في طليعة العاملين (فيها)، وبرهاننا على هذا قصيدتا اليازجي البائية والسينية». (المنار ج ٢٠ (١٩١٧)، (ص ٣٦).
وأنور الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع (١٨٣٠ ـ ١٩٥٩)، القاهرة مطبعة الرسالة ١٩٥٩ (ص ٣٢٢).

(٣) **إبراهيم اليازجي حياته ـ آثاره**، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٠ (ص ٥٧).

(٤) **سر مملكة، غرائب المكتوبجي**، إعداد وتحقيق د. يوسف قزما خوري، دار الحمراء، بيروت ١٩٩٠ (ص ١٥٣).

(٥) جورج أنطونيوس، **يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية**، قدّم له الدكتور نبيه أمين فارس، ترجمة الدكتور ناصرالدين الأسد والدكتور إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢. وقد صدر في اللغة الإنكليزية سنة ١٩٣٨ تحت **The Arab Awakening**، عن دار Lippincott للنشر في فيلادلفيا في الولايات المتحدة الأميركية.

(٦) **الديوان**، (ص ٥٦ ـ ٥٩).

(٧) نشر مكتبة رأس بيروت ـ بيروت لبنان ١٩٦٢ (ص ١٥٦).

(٨) **الديوان**، (ص ٥٩ ـ ٦٣).

(٩) **الديوان**، (ص ٤٤ ـ ٤٧).

(١٠) كما بيّنا في بحث لنا عن شقيقة الشاعر، وردة اليازجي (خنساء لبنان)، مجلة **الفكر العربي**، (١٩٩١)، عدد ٦٤ (ص ١٤٣ ـ ١٥٥).

(١١) مجلة **المقتطف**، مجلد ٣٣ (١٩٠٨) (ص ٤٨٦).

(١٢) **الديوان**، (ص ٢٥ ـ ٢٧).

(١٣) نشرت أصلاً في كتابه، **رواد النهضة الحديثة**، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٦.

(١٤) **المشايخ اليازجيين**، (ص ٧٩).

(١٥) **الشيخ إبراهيم اليازجي**، دار المعارف ببيروت ١٩٥٥ (ص ٢٣).

(١٦) **أربعة أدباء معاصرين**، (إبراهيم اليازجي، مصطفى لطفي المنفلوطي، ولي الدين يكن، وسليمان البستاني) منشورات مكتبة منيمنة، بيروت ط ١ ١٩٤٤، طبعة ثانية ١٩٥٢، (ص ٥٢).

(١٧) في رواية، لديه.

القِسْم الرّابع

مقالات مختارة من مجلّتي «البيان» و«الضياء»

١

أدب

وداع القرن(*)

من تأمل كرور الأدهار وتعاقب الليل والنهار ورأى الثواني تجرّ الأيام والأيـام تجـرّ الأعوام والناس يذهبون بين ذلك أفواجاً ويمرّون فُرادَى وأزواجاً. ورأى أن هذه الحركة التي نرى بها الشمس تطلع من المشرق ثم نراها تغيب في المغرب يتخللها من حركات دقائق الكون ما يمثّل دبيب عوامل الفناء حتى يردّ كل منظور إلى عالم الهباء وقف حائراً دَهِشاً يتأمل في الكـائنـات وفي نفسِه وقد اختلط عليه الوجود بالعدم حتى كاد يتّهم شواهد حسّهِ ثم نظر فتمثل وراءَهُ ماضياً تغيب أوائلهُ في ظلمات الأزل وأمامهُ آتياً تتصل أواخرُه بحواشي الأبد وهو بينهما كنُفَّاخةٍ قذفها التيّار فوق أديم البحـر فمـا كاد يقـع عليها ضوء الشمس حتى عادت إليه فغاصت فيهِ آخر الدهر فملكهُ من الرَهَب ما ارتعشت لهُ أعضاؤهُ ومن الاشفاق ما جمدت لهُ دماؤهُ ثم تمنى لو تخلّص من هذا الوجود المشوَّه وأيقن أن الكـون ضربٌ من الزور المموَّه إنما هي صُوَرٌ تتبدل وأشكالٌ تتحوَّل وهي المادّة الى أن تنحلّ الأرض وينتثر نظام السيارات والأقمار وتتبدد ذرّات الشمس في الفضـاء فيُمحَى رسمها من صحيفة الأدهار.

❊ ❊ ❊

(*) مجلة الضياء، عدد كانون الثاني/يناير ١٩٠١.

ملاحظة: نلفت انتباه القارىء إلى اننا قد حافظنا على النصوص كما وردت في الأصل وذلك حفاظاً على الأمانة العلمية.

ودّعنا القرن التاسع عشر كما يودّع المرء يومهُ عند انقضائه وقد تذكر ما لقي بين صبـاحه ومسائه وما تقلَّب عليه من حالي كدره وصفائه ثم استشفَّ من خلال ليله المقبل وميض صباح الغد باسماً عن ثغور الآمال مبشراً بما فاتهُ في يومه من الغبطة ونَعمة البال فبات يَعِد نفسهُ المواعيد ويرى كل بعيدٍ من الأوطار أقرب إليه من حبل الوريد وقد ذهل أكثرنا عن أنهُ يودّع شطراً من دهره وقد يكون من بعضنا أطيب شطري عمره فإذا التفت إلى خلفه رأى خيال نشأته وشبابه وتمثلت لهُ أوقات لذته ومجالس أترابه والصفحة التي ارتسم عليها تأريخ ميلاده ودُوّن فيها تذكار أبهج أعياده فحنَّ إلى أيامه السوابق حنين المحبّ المفارق وقد حِيل بينهُ وبينها وطُويت عليها صحيفة الفناء وخُتم عليها بطابعِ الأبد فهي هناك إلى يوم اللقاء.

* * *

نحن اليـوم بين فصلين من مصحف تأريخ الدهور وقد قرأنا الأول حرفاً حرفاً واستقرينا ما فيه من السطور والثاني مطويٌّ عنا نشتغل بهجاء الحـرف الأول من عنـوانه ولا ندري ما خطّ فيه قلم الغيب من غرائب حِدثانه فندَع التكهن عليه لخرّاصي السياسة وأصحاب الجفر والكواكب ونعود إلى تصفح ما مرّ بنا من صُحُف القرن الذاهب وما سُطّر فيها من البدائع والغرائب فلا جرم أنهُ كان من أعظم القرون آثاراً وأجلّها شأناً وأشرفها تذكاراً بل القرن الذي لم يمرّ بالأرض مثلهُ من يوم تحركت على محورها فنشأ الليل والنهار ومنذ دارت حول الشمس فتتابعت السنون والأعصار فهو على الحقيقة بكر الزمن وإن كان آخر ما مرّ بنا من أعقابه ومجدّد شباب الدهر بعد الهرم لا بل هو عين شبابه ففيه أخذت الدنيا كمال زخارفها وبرزت الحضارة في أبهى مطارفها وانتشر العلم في الأرض انتشار نور النهار فانبسطت أشعتهُ على كل قصيٍّ من الأقطار وتجلى به كل مكنونٍ من الحقائق والآثار وأصبح الانسان خِدن الطبيعة وقد حسرت لهُ من نقـابها وألقت إليه مقاليد جوّها وترابها بل استسلمت إليه بجملتها حتى كان من أربابها فبرز في حدٍّ جديد غير ما عرّفهُ به حكماء الدهر السابق

وأدرك بسطةً من العرفان يضيق بها نطاق تعريفهِ بالحيوان الناطق فهو اليوم الحيوان المكتشف المخترع المتفنن المبتدع الطيَّار على مناكب الهواء الماشي على صفحات الماء الذي زوى أطراف الأرض فهي بين يديهِ قيدُ ميلٍ أو شبر وطوى مسافاتها حتى كأنما يسافر فيها على أجنحة الفكر وقبض على عنان البرق فجعلهُ رسول خواطرهِ يسيّرهُ في البلاد وساح بين الكواكب فأدرك حركاتها وطبائعها وقاس ما بينها من الأبعاد وخلق لنفسهِ حواسّ لم تكن مما عهد أسلافهُ من قبل فأبصر من الخفايا ما لا تُذكر في جنبهِ مدارج النمل وسمع من الأصوات ما لا يقاس بخفائهِ صوت الحُكَل[1] بل خرق الحُجُب ببصرهِ فتخلل ما بين دقائق الأجسام واستبطن الضلوع والأحشاء وسافر بين الجلود والعظام بل تسلل إلى باطن الدماغ فاسترق السمع على ما يتناجى هناك من الخواطر والأوهام.

هذا هو إنسان القرن التاسع عشر وما ذكرنا من صفتهِ إلا مبلغ ما يتناولهُ الرمز ويسعهُ الايماء ولو شئنا الافاضة في أيسر تلك المعاني لكان غاية ما ننتهي اليه العجز والاعياء فما عسى أن نعدد من تلك العجائب الباهرات مما لو وُجدَ أقلّهُ في الزمن الغابر لاعتُقد ضرباً من السحر أو انتُحلت به الكرامات والمعجزات وحسبك من يلقّن الجماد فينطق لا كما نطق الببغاء ومن يُسمِعك كلام الغابرين فتعرفهُ بنغمتهِ وقائلهُ في قبضة الفناء ومن يريك الهواء ماءً سائلاً ثم يريكهُ جَمَداً معقوداً ومن يسخّر السحاب فيمطر في معمعان القيظ ماءً بَرُوداً ويصرفهُ متى شاء فيبدّد ما فيهِ من الصواعق تبديداً إلى غير ذلك مما يطول الكلام في استقصائهِ ويضيق هذا المقام عن احصائهِ.

* * *

وهنا قد يعرض للمتأمل أن ينظر أين كان موضع كل أمةٍ من القرن التاسع عشر وما الذي اكتسب الشرقيّ فيهِ من المآثر وما خلَّف فيهِ من الأثر فلا جرم أن أهل القرن الواحد وإن شاع بينهم فتنازعوا أيامهُ على السواء وكانت عناصر الحياة مُقتسَمةً بينهم على غير أَثَرةٍ ولا استثناء فهَيهات أن تستوي نسبة كلّ منهم إليهِ فيقفوا فيهِ مواقف الاكفاء وإنما

الذي يتساوون فيهِ شمسةُ وهواؤهُ وتربتهُ وماؤهُ وبقي وراء ذلك فضل المدارك والهمم والأعمال التي تتفاوت بها طبقات الأمم وتتفاضل باعتبارها الأقـدار والقيَم فإذا كان القرن التاسع عشر هو الذي نشأت فيهِ تلك العظائم وأقام للحضارة هذا البناء الرفيع الدعائم فهو من القرون التي ليس للشرق فيهـا ذكرٌ يُؤثَر ولا أثرٌ يُذكَر ولا خرج الشرقيّ منهُ إلا بما احتقب من ظلمات العصور الغوابر وازداد عليهِ ما لحقهُ في هذا العصر من الذلّ والمفاقر فلا اختطَّ لنفسهِ سبيلاً يبلغ به إلى مواطن الفلاح ولا أقام لهُ عزًّا يعصمهُ من تطاول الطامع والمجتاح فضلاً عن أن ينشيء لنفسهِ فخراً يدوَّن في صحيفة الأحقاب أو أثراً يرفع من بصر الذراريّ والأعقاب ولكن عصر الشرقيّ ان نشط للجري في سبيل الأمم الراقية والحصول على المجد الصاعد والمفاخر الباقية هو هذا القرن الذي ابتدأناهُ عن أَمَم إذا جعل رائدهُ إلى ذلك صادق الهمم ولم يتكل في بلوغهِ على الأقدار والقِسَم والله المسؤول أن يهدي خطواتنا إلى أقوم سبيل بفضلهِ تعالى وتسديدهِ انهُ بالنجاح كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

العلوم عند العرب(*)

لا يخفى أن العرب كانوا قوماً أهل باديةٍ وأنعام يقضون دهرهم في ارتياد مواقع الغيث وانتجاع منابت الكلأ فلا يزالون بين تطنيبٍ وتقويض وحلٍّ وترحال وهي حالةٌ منافية لطبيعة العلم وما يقتضيهِ من القرار والسكون والتوفر على البحث والاستدلال وذلك فضلاً عما كان بينهم من الغارات والمغازي المتواصلة وانقطاع كل قبيلٍ بنفسهِ بحيث لم تستتبّ بينهم الصلة الاجتماعية التي يكون عنها نماء المدارك واتساعها وأثر هذا الانقطاع بادٍ في لغاتهم حتى تجد للمسمى الواحد عدة أسماءٍ قد تبلغ إلى المئات وتجد اللفظ الواحد يُطلق على عدة معانٍ متباينة وقد يُطلَق على معنيين متضادَّين وهي نهاية البعد والاختلاف. فلما جاء الاسلام وضمّ شتاتهم وجمع أطرافهم اشتغلوا بالفتوح وانصرفت عزائمهم إلى توسيع

(*) مجلة الضياء، عدد تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٩٩.

نطاق ملكهم ولا سيما مع ما أُوتوا من الظفر والتغلب على الممالك فكانت تلك الحال أبعد عن الاشتغال بأسباب العلم والتفرغ لمباحثه وما زال أمرهم ذلك إلى أن قضوا نهمتهم من الفتوح ورسخت قواعد دولتهم ورأوا في أكثر الممالك التي وطئوها من أسباب الحضارة والتبسط في أنواع الفنون ما حبب اليهم معاناة العلوم والصنائع فانصرفوا إلى طلبها ولم يقع لهم ذلك إلا في أثناء المئة الثانية للهجرة بعدما دوّخوا الآفاق وزال ما كان بينهم من المناهضات والمشاحّات على الخلافة وغيرها. على أنهم لم يغفلوا في تلك الفترة عن العناية بتدوين لغتهم وتحرير أحكام شريعتهم وهو أمرٌ ضروريٌّ في مثل تلك الحال لتقرير قواعد دينهم وصيانة ألسنتهم من الفساد ولا سيما بعد اختلاطهم بالأعاجم مما دعاهم إلى تدوين ألفاظ اللغة وضبط أحكامها على ما هو مشهور من وضع التصانيف فيها مما لا حاجة الى بسطهِ هنا. قال أبو الفرج الملَّطيّ في تاريخهِ ونقلهُ صاحب كشف الظنون قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسيّ ان العرب في صدر الإسلام لم تعنَ بشيءٍ من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطبّ فإنها كانت موجودةً عند أفرادٍ منهم غير منكورةٍ عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا اليها وذلك منهم صوناً لقواعد الإسلام وعقائد أهلهِ عن تطرُّق الخلل من علوم الأوائل قبل الرسوخ والإحكام حتى يُروَى انهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد. فهذه كانت حال العرب في الدولة الأُموية فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبّت الفطن من ميتتها وكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور وكان مع براعته في الفقه كلفاً بعلم الفلسفة وخاصةً بعلم النجوم. ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبدالله المأمون بن هرون الرشيد تمم ما بدأ بهِ جدّهُ فأقبل على طلب العلم في مواضعهِ وداخل ملوك الروم وسألهم صلتهُ بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليهِ منها بما حضرهم فاستجاد لها مَهَرة التراجمة فتُرجمت لهُ على غاية ما أمكن ثم حرّض الناس على قراءتها ورغَّبهم في تعلمها. ا هـ.

هذه مبادىء النهضة العلمية عند العرب تقدمهم فيها الخلفاء واعزّوا العلم وأهلهُ فهبّت بهم ريحهُ وارتفع منارهُ ولم يمضِ حينٌ من الدهر حتى حفلت بغداد ونواحيها بالعلماء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة وامتدت شعلة الطلب والتدريس إلى سائر المدائن العربية حتى قيل ان الرشيد أمر أن يُبنَى بجانب كل جامع مدرسة. ولم يكن الحال بالمغرب على دون ما كان عليهِ بالمشرق وكان البادىء بنشر العلم هناك والداعي اليهِ الخليفة عبدالرحمن الأمويّ الملقب بالناصر فجعل مدينة قُرطُبة التي هي مقرّ الخلافة داراً للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق وحشد الكتب من أفريقيا وبلاد فارس ومصر والآفاق العربية حتى جمع فيما يقال أربع مئة ألف مجلد وقيل ست مئة ألف وانتشرت هذه الرغبة في العامة حتى كانت الكتب من أنفس ما يُتغالى بهِ واشتدّ حرص الناس على جمعها وانتساخها والمغالاة بأثمانها حتى يقال ان الأندلس كان فيها في أوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة والناس على دين ملوكهم.

وكان أول ما جنحوا اليهِ من العلوم الطبّ والتنجيم والفلسفة وذلك لما اشتهر عندهم من أن الانسان لا يكون طبيباً حتى يكون منجماً ولا يكون منجماً حتى يكون فيلسوفاً فأمر أبو جعفر المنصور طبيبهُ جرجيس بن بختيشوع فعرَّب لهُ كتباً في الطب استخرجها من الفارسية وعرَّب لهُ محمد بن الفُراويّ كتاباً من تآليف الهند في صناعة التنجيم يسمى بالسند هند وأمر عبدالله بن المقفَّع المشهور معرّب كتاب كليلة ودمنة فعرَّب لهُ كتباً في المنطق عن اليونانية ثم تتابع الخلفاء على ذلك من بعدهِ وأشهرهم هرون الرشيد وولدهُ عبدالله المأمون وكان الرشيد لما فتح أنقرة وجد فيها كثيراً من كتب العلوم فأمر بحملها إلى بغداد وأمر طبيبهُ يوحنا بن ماسوَيه بتعريبها وقام بعدهُ المأمون وكان أعظم الخلفاء وأعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعبرية والهندية والفارسية فضلاً عن تبحرهِ في الفلسفة والهيئة فأكثر من نقل كتب اليونان الى العربية وكان عندهُ عدةٌ من المترجمين منهم طبيبهُ حُنين بن إسحق

العباديّ وهو الذي عرَّب كتاب اقليدس وكتاب المجسطي لبطلميوس وكتاب أبولونيوس في المخروطات وكثيراً من كتب الحكمة والطب من تآليف أبقراط وجالينوس وغيرهما. وورد في بعض كتب الافرنج أن المأمون عقد عهد صلحٍ مع ميخائيل الثالث [٢] ملك الروم على أن يستنسخ لهُ جميع المصنفات اليونانية ووجه بعثاً يحمل اليهِ من جزيرة قبرس كل ما وُجِد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت من عهدٍ قريب في حوزة الإسلام.

ومن مشاهير المترجمين في الدولة العباسية خلا من ذكر اسحق بن حُنين المذكور وكان يعرّب كتب الحكمة والطب وثابت بن قُرّة وكان يعرّب كتب الحكمة وتوفي في أيام المقتدر ويعقوب بن اسحق الكندي وكان في أيام المعتصم ويوحنا بن البطريق وكان أميناً على ترجمة الكتب الحكمية وحُبَيش بن الأعسم وكان ينقل عن الكتب اليونانية والسريانية وقسطا بن لوقا البعلبكيّ الفيلسوف الرياضيّ وغيرهم. وأشهر الكتب التي ترجموها عن فلاسفة اليونان مؤلفات فيثاغورس في الحساب والموسيقى وغيرهما من العلوم الرياضية ومؤلفات أفلاطون في النفس والسياسة المدنية وكتب أرسطو في المنطق والحكمة والعلم الطبيعي والحيوان والنبات وكتب أبقراط وجالينوس في الطب ودسقوريدس في الأدوية واقليدس في الهندسة وبطلميوس في الهيئة وغير ذلك.

وكان عند المأمون جماعةٌ كبيرة من المنجمين منهم حبش الحاسب المَرْوَزيّ صاحب الزيج الممتَحَن وأحمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى علم هيئة الأفلاك ومنهم عبد الله بن سهل بن نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وكان قيّم خزانة كتب المأمون ولهُ مصنفٌ في الجبر والمقابلة ألّفهُ بأمر المأمون وهو أول كتابٍ كتب في هذا الفنّ ومنهم يحيى بن أبي منصور وعباس بن سعيد الجوهري وكانا كبيرَي المنجمين عند المأمون. قال في كشف الظنون قال القاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي في كتاب التعريف بطبقات الأمم لما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون وطمحت نفسهُ الفاضلة إلى درك الحكمة ووقف العلماء في وقتهِ على كتاب المجسطي

وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه جمع علماء عصرهِ وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الآلات وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها بها كما صنعهُ بطلميوس ومن كان قبلهُ ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بها بمدينة الشِمَّاسية وبلاد دمشق[٢] من أرض الشأم سنة ٢١٤ فوقفوا على زمان سنة الشمس الرصدية ومقدار ميلها وخروج مراكزها ومواضع أوجها وعرفوا مع ذلك بعض أحوال الكواكب من السيارة والثابتة ثم قطعهم عن استيفاء عملهم موت الخليفة المأمون سنة ٢١٨ فقيدوا ما انتهوا اليهِ وسموهُ الرصد المأموني. وكان الذي تولى ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في عصرهِ وخالد بن عبد الملك المروزي وسند بن عليّ والعباس بن سعيد الجوهري وألف كلٌّ منهم في ذلك زيجاً منسوباً اليهِ وكان ذلك أول رصدٍ في مملكة الإسلام. انتهى بتصرفٍ يسير.

ورصد المأمون ميل دائرة البروج رصدين أحدهما في بغداد تولاهُ يحيى بن أبي منصور وسند بن علي وعباس بن سعيد فوجدوا ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥′ وقيل ٢٣° ٣٣′. والثاني في دمشق تولاهُ خالد بن عبد الملك وسند بن عليّ وأبو الطيّب وعليّ بن عيسى الملقب بالأسطرلابي فوجدوا الميل المذكور ٢٣° ٣٣′ ٥٢″.

ومن أعمال المأمون المخلدة في كتب العلم والتاريخ قياسةُ للدرجة من خط نصف النهار على ما بسطنا الكلام فيه في الجزء السابع عشر من البيان (صفحة ٦١٠ وما يليها) تولى ذلك لهُ أبناء شاكر محمد وأحمد والحسن وكانوا من مشاهير علماء الهيئة. ولهؤلاء عدا ذلك رصدٌ لميل دائرة البروج وحركة نقطتي الاعتدال وكان لهم مرصدٌ على جسر بغداد فظهر لهم بالرصد هناك أن تكبد الشمس في المنقلب الشتوي سنة ٢٣٧ ليزدجرد وهي سنة ٢٤٨ للهجرة كان على ٣٣° ٥ ورصدوا في السنة التالية تكبدها في المنقلب الصيفي فكان على ٨٠° ١٥ فاستخرجوا أن عرض بغداد عند مرصد الجسر يكون ٣٣° ٢٥′ وان ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥ . ولتحقيق مبادرة الاعتدالين رصدوا قلب الأسد سنة ٢٢٦ وسنة ٢٣٣ فتبين لهم أنهُ في هذه الفترة تقدمت المبادرة ٦′ ١٥″ فتكون

كميتها ٥٣ً ٣٤ً في السنة وهي أكثر من الحقيقة بثلاث ثوانٍ ونصف ثانية على التقريب.

وجاء بعد هؤلاء ثابت بن قرّة وهو خرّيج محمد بن موسى بن شاكر أحد الثلاثة المذكورين ولهُ مصنفٌ طبَّق فيهِ الجبر على الهندسة وهو أول من تفطن للتغير في ميل دائرة البروج وكان هيرخس وبطلميوس قد وجدا أن ميل دائرة البروج ٢٣° ٥٢ً فلما أعاد الرصد وجدهُ ٢٣° ٣٣ً ٣٠ً أي أقل بمقدار ١/٢ ١٨ ً. ثم رصد نقطتي الاعتدال فوجد أن لهما حركتين احداهما مستقيمة والأخرى متقهقرة بحيث وجد أنهُ لا يمكن ضبط طول السنة برجوع الشمس إلى إحدى هاتين النقطتين فعاد إلى طريقة الكلدان من رصد الشمس بالقياس إلى الثوابت فخرج معهُ لطول السنة ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و٩ دقائق و١١ ثانية وهو يقرب مما حققهُ المتأخرون على فرق ٥ ثوانٍ.

أدب الدارس(*)

(بعد المدارس)

هو خطابٌ لصاحب هذه المجلة(٤) ألقاهُ في أثناء الاحتفال بتوزيع الجوائز على طلبة المدرسة البطريركية في بيروت في ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٠ ننشرهُ في هذا الموضع إجابةً لاقتراح بعض مشتركينا الأدباء. وهو هذا.

أيها السادة

قد دُعيت للكلام بين أيديكم بما يتنزل منزلة خطابٍ أصرف بهِ مسامعكم إلى غير ما يُتلَى عليكم من هذه الأسماء المتتابعة والأعلام المتناسقة استدعاءً لجمام الخواطر ودفعاً لما ينشأ عن مثل ذلك من ثقل الملل وان كان ولا ريب ممَّا ترتاح اليهِ نفس كل وطنيٍّ يرى سباق فتياننا الأذكياء ومباراتهم إلى نيل قصب السبق في مضمار الفلاح. غير أن ضيق الوقت واشتراط الايجاز في القول يمنعانني من تخيُّر غَرَضٍ ذي بال

(*) مجلة الضياء، سنة ١٩٠٤.

أُفيض فيــهِ في هذا الموقف الحافل ولا سيما ونحن في معمعان الفصل وتوقّد وطيسهِ مع اعترافي بقلّة البضاعة وقصر الباع. ولذلك رأيت أن أوجه كلامي الى الحلقات الأوَل من طَلَبة هذه المدرسة الماثلين في هذا المقام مقام الوداع ليكون بمنزلة درس أخير ألقيهِ عليهم في هذه السنة تثبت في محفوظهم آثارهُ ولا يذهب من نفوسهم تذكارهُ والله المسؤول أن يتولاّني وإياهم بهدايتهِ وتسديدهِ.

فإنكم أيها التلامذة النجباء بل الاخوان الأحباء قد قضيتم ههنا الشهور بل الأعوام حتى بلغتم الحدّ الذي فيهِ عرفتم من أنفسكم معنى تحمُّلكم مشاقّ الدرس والسهر وحمل طبائعكم على الجهد والنَّصَب وفطم أنفسكم عن ملاهي الحداثة واعطاء قياد أهوائكم لمن يسوسها دونكم ومهاجرة المنازل التي ألفتموها والأهل الذين نشأتم بينهم والاخوان الذين جمعتكم وإياهم دار المولد وألّفت بينكم وبينهم عشرة الصباء. وما فيكم من يجهل ما في انشاء هذه المدرسة من مهمات التكاليف بين تشييد بنائها وإعداد مُحِلاّتها وتوفير الرجال فيها على سياستكم وتهذيبكم والقيام عليكم في دروسكم وغذائكم ومنامكم وسائر أحوالكم وما يتجشم أولياؤكم من النفقات الطائلة والاهتمامات المتواصلة وان ذلك بأجمعه وقفٌ على مصلحتكم وسعيٌ في شؤون آتيكم وتبليغكم الطور الذي تكونون فيهِ أهلاً لأن تقبضوا على أزمّة عصركم وتحلّوا المحلات الأولى من مجتمعكم وتكون لكم القدم السابقة في نشر المدنية وتعزيز شأن الوطنية والسعي فيما يعود نفعهُ عليكم وعلى البلاد.

فإذا خرجتم من هذه المدرسة وفي أيديكم الاجازات المؤذنة باستكمالكم دروسها فأول ما أوصيكم بهِ المثابرة على درس ما تلقيتموهُ فيها وتعهُّد الذاكرة به مخافة أن يسرع اليهِ النسيان فان آفة العلم كما قيل اهمالهُ. فاجعلوهُ حديث النفس في خلواتكم وتذاكروهُ في مجالسكم وروضوا بأسرارهِ خواطركم حتى تستحكم ملكتهُ في أذهانكم وترسخ مسائلهُ في مخيّلاتكم وتمثل صورهُ في بدائهكم ولا تقنعوا منهُ بالقدر الذي بلّغتموهُ في حلقات الدرس ولكن استزيدوا ما وصلت اليهِ أيديكم منه

وخذوا أنفسكم بادمان البحث والاستقراء لادراك كُنه المسائل والاحاطة بأطرافها واستظهار نادّها وغريبها فإن المدرسة لا تضمن لأحد ممن تلقى علومها أن يخرج منها عالماً ولا ذلك في غاية شيءٍ من المدارس ولا في طوقه وانما العالم يصير عالماً في بيته وفي مقام شغلهِ وهو أستاذ نفسهِ على الحقيقة يبلّغها الكمال بادمان الجهد وتكرار المطالعة والاشتغال. ولست أنكر على آحادٍ منكم بلغوا في التحصيل مبلغاً عزيزاً واحصوا من الأصول والقياس حظّاً جليلاً غير أني لا أُطريء أحداً منهم بأنه قد استولى على شيء من غايات العلم ولا تقرَّب من حدود الكمال فيهِ ولكني أُبشر الذين بلغوا هذه المنزلة وانتهوا إلى آخر درجة من سلم الدروس بأنهم قد صاروا أهلاً لأن يضعوا قدمهم في أول درجة من سلم العلم ورجائي بما عهدت من ذكاء أفئدتهم وثبات عزائمهم انهم سيُحصَون عن قليل في سواد أهل العلم القائمين برفع منارهِ والتطريس على آثارهِ إذا لم تهبَّ عليهم ريح الكسل التي تطفيء نور الذكاء وتنسف حصونَ الثبات ألا وهو الآفة التي أُحـذّركم شرّهـا وأسأل لكم العافية منها وإذا جاوزتموها لم أخشَ على عزائمكم أن تُكسعَ بوهن ولا على جهدكم أن يُنال بضياع.

ولست أزيدكم بياناً أن العالم لا ينفع بعلمهِ إلّا إذا كان راسخ القدم فيهِ مستبطناً لأسرارهِ ودخائلهِ محيطاً بما تشعب من فروعهِ ومسائله وذلك مما لا يُنال إلّا بطول المزاولة وتكرار المراجعة وتفريغ الذهن لما يُتوخى حفظُه واخلاء الذرع لاحصائهِ. ولذلك فإني أنصح للمستزيد منكم أن لا يتعرض لما لا يعنيهِ من العلم ولا يتجاوز ما درسهُ إلى غيرهِ قبل أن يستوفي حظهُ منهُ ويرسخ في ملكتهِ. وإن وجد من نفسهِ قدرةً على التوسع وميلاً إلى المزيد فليكن فيما يجانس مأخذهُ وينضمّ في سلكهِ بحيث لا يكون انتقال الذهن بعيداً ولا تتعارض فيه صُوَر العلوم بما يُضعف ملكتها فيهِ وتضيق الحافظة عن احصائهِ. على أن المرء مفطورٌ على التطالّ مولعٌ بالاطلاع على ما لم يعلم ولكل علمٍ فائدة تتوفر بها مادة العقل ويتسع مذهب الفكر ويبعد مرمى البصيرة فلا يمتنع على من شاء منكم أن يزين علمهُ بما يضمّ اليه من سائر العلوم ويشحذ ذهنهُ بما يصل اليهِ اطّلاعهُ من المدارك ولكن

ليكن ذلك بحيث لا يصرفهُ عما هو فنُّهُ الجدير بالتوسع فيهِ وليقتصر فيهِ على حد المشاركة دون التبحر وقصد الاحاطة لئلا يقصر باعهُ عن تناول كل واحد من العلوم التي يتوخاها فيخرج متخلفاً في الجميع. وان سمعتم أن فلاناً المنعوت بعلامة العلماء وفيلسوف العصر قد أحاط بمتفرق العلوم وأصبح في كلٍّ منها إماماً فإنما هو تزيين المحال وتلقين الغرور وهؤلاء مشاهير علماء المتقدمين والمتأخرين لا تكادون تجدون واحداً منهم ممن يشار اليهِ بالسبق والتبريز الَّا وهو قد اشتهر بجنسٍ من العلم ولم يكن لهُ في سائر العلوم الأُخر إلا مشاركات.

وإذا ضمكم مجلس أدب وتشمرتم للبحث فيه فلا تتفرغوا للنقد والتخطئة والتنبيه على هفوات أهل العلم إرادة أن تكاشفوا الناس بمبلغ علمكم وتوهموهم انكم أرفع ممن تخطئونهُ مقاماً وأوسع علماً فإن ذلك يبعث النفار منكم في النفوس والاشمئزاز في الصدور وتُلحَظون بعين الكراهة من رصفائكم وأنماطكم وتنصبون أنفسكم أغراضاً للقارضين وأهدافاً للطاعنين وتغرون الألسنة بالغضّ من مزيتكم واحسانكم فيكون ذلك سبباً في حط مقامكم ونصب العداوة لكم والوقوف لكم بالمرصاد فيما تتوخونهُ من المقاصد وتتجهون اليهِ من الرغائب. وأحذّركم كل التحذير من الطعن على من اشتهر بفضلٍ أو مزيَّة واعترف لهُ سواد الناس ولا سيما أهل العلم بالتقدم فانكم إن فعلتم جعلتم أنفسكم غرضاً لكل من تشيَّع لهُ فأكثرتم أعداءكم ومناصبيكم في حين أنتم على حدثان أمركم أحوج الناس إلى الاستكثار من الصحابة والأصدقاء والمشايعين في أحوال الدنيا والدافعين إلى التقدم في مراتب الشهرة والفضل. ولا تحسبُنَّ الناس سواءً في معرفة الصواب فإن ذوي العلم فيهم نفرٌ معدود والمنصفون من أولئك قليل وفيهم من لا يهمهُ أن يعرف موضع الحق فلا يتفرَّغ للبحث في دعواكم وإنما يحكم بمجرَّد ما تقرر في علمهِ أو سبق إلى وهمهِ من أفضلية الأشهر فلا تحصلون منها على طائل. وإذا كان ذلك حال العلماء وهو الواقع في كثيرٍ من الأمر فما الظن بغيرهم ممن لا أداة لهُ للحكم ولا موقع عندهُ للفصل.

وإذا جالستم أهل العلم ولا سيما ذوي التبريز منهم فليكن مقعدكم منهم مقعد المستفيد وإياكم الاعتراض عليهم ولو غلطوا فإن في علمهم ما يخرجهم مما أخذتم عليهم ولا تأمنون أن يرموكم فيما لا تخرجون منهُ. وإذا اعترض عليكم عارف وأظهر لكم خطاءً بدَرَ منكم فلا تسرعوا إلى الاحتجاج والمكابرة أَنَفةً واستكباراً بعدما عرفتم الحق فإن ذلك يزري بعلمكم ويرميكم بالجهل ووهن التمييز ثم يكون سبباً في حرمانكم فوائد جمة. وإذا دُفعتم إلى جَدَل فتحاموا الصلف والتحقير وأخذ الخصم بالعنف والاستعلاء لاقناعهِ بالحق فإن ذلك مما يُضيع الحق ويخفي وجه الصواب ويعود عليكم بالتهمة لأن الصَلَف من سلاح العاجز. وإياكم ومساجلة من هو دونكم علماً والاشتغال بمغالطتهِ وجدالهِ ولكن ينبغي أن ترشدوهُ إلى الصواب إرشاد المفيد فإن أبى وكابر فأقلعوا عنهُ اقلاعاً جميلاً لئلا يشين علمكم ويستدرجكم إلى ما يستزلّ أقدامكم فتُؤتَون من الطريق الذي أخذتموهُ عليهِ وترجعون عنهُ بصفقة المغبون.

وأُحذّركم الدعوى فإنها آفة الفضل ومحل النكير ولو كانت حقًّا وقد اعتادت النفوس أن تنفر منها وتبخس صاحبها من حقهِ حتى لو كانت لهُ عشرةٌ وادَّعى عشرةً اجتهدوا أن يجعلوها لهُ تسعةً فما الظن بمن كان لهُ عشرة وادَّعى خمسين. وإياكم والتمويه في العلميات والخلط فيما لا تعلمون حِذارَ أن يقوم لكم في المرصاد من يزيّف علمكم ويردّ بضاعتكم عليكم فتقعون في النقصان من حيث تطلبون المزيد. ولا تحسبُنَّ أن العالم لا يسمى عالماً حتى يحسن الجواب عن كل شيء ولو في العلم الذي تجرَّد لهُ وقضى عليهِ أيامهُ فإن العلم لا ينتهي إلى حدٍّ يقف عندهُ بل قد تقرر أن من أعظم فضائل العلم أن يبصِّر ربَّه بقصورهِ ويطلعهُ على جهلهِ ومن اغترَّ بنفسهِ وظنَّ انهُ وَسِعَ كل شيءٍ علماً فقد دلَّ على قلة بضاعتهِ وضعف مداركهِ. فلا يخجلنَّ العارف منكم إذا سُئل عن شيءٍ فلم يحضرهُ أن يقول لا أدري فإن قول القائل لا أدري خيرٌ من أن يقال لهُ أخطأت. بل قد عُدَّ ذلك من جملة مناقب ذي العلم وأدلة كمالهِ فيهِ حتى أن السيوطي عقد باباً في كتابهِ المزهر فيمن سُئل من العلماء عن شيءٍ فقال لا أدري فذكر

عدَّةً من مشاهيرهم وكبرائهم كالأصمعي وابن دريد والأخفش وأبي حاتم وغيرهم من أهل هذه الطبقة. قال قال أبو عبدالله الزعفراني كنت يوماً بحضرة أبي العباس ثعلب فسُئل عن شيءٍ فقال لا أدري. فقال لهُ بعض من حضر أتقول لا أدري وإليك تُضرَب أكباد الإبل واليك الرحلة من كل بلد. فقال لو كان لأمّك بعدد ما لا أدري تمرٌ لاستغنت. قال وسئل الشعبي عن مسئلة فقال لا أدري فقيل لهُ فبأي شيءٍ تأخذ رزق السلطان. فقال لأقول فيما لا أدري لا أدري. انتهى بمعناه.

ويقرب من ذلك ما حكاهُ بعض علماء العصر من الفرنسيين قال ان إحدى خواتين الإشراف تصدّت يوماً لأحد مشاهير العلماء في مجلسٍ حافل فقالت لهُ أمطرٌ يكون بعد الهلال أم صحو. فقال لا أدري. قالت إذن فما علة اتصال الغيث في هذا العام. قال هذا مما لا نعلمهُ. قالت أتظن ان سكان المشتري يكونون على خلقتنا. قال أيتها السيدة إني لا أعلم شيئاً من ذلك. فقالت يا عجبا فلمَ يتبحر المرء في العلم إذن. فقال حتى يقول أحياناً إني لا أعلم شيئاً.

وإذا انتدب أحدكم للتأليف في علمٍ من العلوم فليتوخَّ الفائدة والنفع دون الشهرة ومكاشفة الناس بما أُوتيَهُ من فضل علم أو سعة اطلاع لئلا ينصرف همهُ الى التشاغل بما لا تدعو اليهِ الفائدة المقصودة من تأليفهِ ويحشو كلامهُ بما يفوت طور الدارس من غامض المسائل وغريبها فبينا هو يريد إثبات براعتهِ وطول باعهِ إذ يطرح المستفيد في لجج لا يدرك لها ساحلاً ويصبح كتابهُ ضرباً من المعاياة. وهذا مما سقط فيهِ كثيرٌ من أكابر العلماء وجلّتهم فأضاعوا فضل علمهم في سبيل أمثال هذه السفاسف ورغب الناس عن تآليفهم إلى غيرها فطُرحت في زوايا المهملات.

وسواءٌ ألّفتم أو حاضرتم فاياكم والتسرُّع في اثبات الأحكام العلمية خصوصاً من رُزق ثقة الناس منكم واطمئنانهم إلى الأخذ عنهُ لئلا يفشو الوهم وتفسد الحقائق العلمية. ولا تثبتوا حكماً قبل الوقوف على صحتهِ ومعرفتكم من أنفسكم القدرة على ايضاحِهِ متى سُئلتم عنهُ لئلا تُضطرّوا

أن تقـولوا هكذا نقلنا فتكون منزلتكم منزلة الناسخ الذي ينقل صور الحـروف ولا يعلم ما وراءهـا. واعلموا أنكم متى أبحتم لأنفسكم نقل ما لا تعلمون ورَّطكم ذلك في شعابٍ حَرِجة وأوردكم موارد وبيلة لما تعلمون من كثرة المتهافتين على التأليف بقصد الشهرة أو الكسب فَهموا ما ينقلونَه أم لم يفهموهُ فإذا لم تعتصموا بالبحث في كل مسئلة تتلقونها عن غيركم لم تأمنوا الوقوع فيما يعسر عليكم المخرج منهُ وكنتم سبباً في نشر الأوهام وذريعةً في إفساد العلم ولا سيما ونحن في عصرٍ قلَّ نُقَّادهُ فيفشو الغلط من غير نكير وتتلقاهُ الناس من وجه الثقة فيعمّ الفساد.

وكلكم يعلم بما صارت اليهِ حالة العلم في هذه الأقطار وما نحن فيهِ مذ مئات من السنين من التخلف والوقوف حالة كون غيرنا من الأمم التي رقيت بعدنا في معارج المدنية لم تزل عاكفةً على إدمان البحث والتحقيق دائبـةً في سبيل الكشف والاستنباط إلى أن بلغوا من البسطة في العلم والتبحر في مداركهِ واستقصاء غاياتهِ ما هو معلوم وزادوا عليهِ وفرَّعوا منهُ ما لا يقف عند حدّ ولا يحيط بهِ احصاء وكل ذلك مما خلت كتبنا ومدارسنا عنه فضلاً عن ذهاب ما كان في خزائننا من بقايا علوم السلف إلا ما لا غنـاء به مِما لا يتعدى آداب اللسان. فنحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى استرجاع تلك الذخائر ونقل هذه المستحدَثات الى لساننا العربي لنلحق بأولئـك القـوم ونستأنف خطواتنا في السبيل الذي تقدمونا فيهِ. فإذا عمدتم إلى شيءٍ من التأليف فليكن فيما دعت اليه الحاجة مما ذكر تذرُّعاً إلى بثّ مثل هذه العلوم في البلاد لما تعلمون من أننا قد انتهينا إلى عصرٍ لا يُجتزَأ فيهِ من الحقائق بقواعد النحو والبيان ولا يُستغنَى من الاختراع بابتكار معاني الغَزَل والمديح وكلكم آخذ بطرفٍ صالح من ألسنة أولئك القوم وعندكم من أصول العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ما يمكّنكم من نقل كثير من الفوائد المحتجبة وراء ظل العجمة تردُّونها في قالبٍ عربي وتنشرونهـا في البلاد فتتوفر بذلك علوم الوطن وتتزيَّن مكاتب اللغة بما تزيدونها من مثل هذه التصانيف المرسومة فيها أسماؤكم بما يضمن لكم الثناء والذكر الباقي على الأحقاب.

وليس من غرضي فيما ذكر أن أصرفكم عن الاشتغال بآداب العربية والتوفر على اتقان علومها وإحكام الجري على أسلوبها ولا سيما مع بعثة اللغة في هذا العصر وإقبال المتأدبين وأهل العلم من كل أوب على اقتباس فنونها واحراز أعلاقها علماً بما لها من المزية التي انفردت بها عن سائر اللغات فضلاً عن أن اتقان اللغة عند كل أمة مقدَّم على جميع العلوم إذ هي القالب الذي تُسبَك فيهِ المعاني والمرآة التي تمثّل فيها صور الخواطر فمتى كان ذلك القالب أجمل تكويناً وتلك المرآة أصفى ماءً جاءت المعاني أبدع والخواطر أظهر وأنصع. ولذلك كان اشتغالكم بها واحكامكم لعبارتها وأسلوبها والتعمُّق في معرفة مفرداتها وأحكام مجازها واشتقاقها من أعون الذرائع لكم على بلوغ الغرض من التأليف فيها ونقل العلوم المذكورة اليها لأنكم بذلك تستطيعون أن تصوّروا المعاني بصُوَرها وتلبسوها أثوابها الخليقة بها وتستنبطوا لها الألفاظ التي لم يسبق لها وضع في هذه اللغة مما حدث بعد عهد أربابها. وإنما الذي ينبغي أن تجتنبوهُ فيها الايغال في تقصّي مذاهب النحاة واستقراء ما قيل في كل مسئلة مما لا فائدة فيهِ للعقل ولا زيادة تبصرة في الاستعمال إذ وجه الاستعمال على جميع الأقوال واحد والمُجمَع عليهِ من الوجوه الفصيحة منصوص عليهِ في أماكنهِ مما عرفتموهُ. ويتصل بذلك التنقيب عن الأنواع والجناسات البديعية وتوخيها في صوغ الكلام من النظم والنثر فإن ذلك هادمٌ لأركان البلاغة مشوّهٌ لمحاسن وجوه الفصاحة لما يقتضيه على الغالب من التكلف والخروج بالكلام عن وجههِ إلا ما جاء منهُ اتفاقاً أو على غير كلفة فإنهُ يُعَدّ من المحسِّنات وحسنهُ يكون بقدر قربهِ من النظم الطبيعي. إلا أن هذا قلما يُعتدّ بهِ في نظر البليغ إذ العبرة بأُصول المعاني التي يُبنَى عليها الكلام لا بالتحسينات اللاحقة الواردة مورد الزينة على ما نبهت على ذلك كلهِ علماء البديع. ولهذا كانت المحسّنات المعنوية أعلى من المحسّنات اللفظية لرجوعها إلى المعنى الذي هو المقصود من الكلام فضلاً عن أن اللفظية كثيراً ما يكون المعنى فيها مستعبَداً للفظ لاقامة الجناس أو الفاصلة وإنما يطلبها على الغالب من لا غناء عندهُ في المعاني فيموّه على

الأسماع بهذه السفاسف التي لا تثبت على النقد ولا محصول منها في الفهم.

ولقد رأيت من الناس من التزم السجع والجناس حتى في التقريرات العلمية وكتب التاريخ ونحوها مما قُيِّد الكاتب فيه بأغراض وحقائق لا متَّسع لهُ عنها ولا محل فيها للزخرفة والخيال وبهذا تعلمون قدر ما أُولع الناس بهذا المذهب السمج. ولا حاجة بعد هذا إلى ذكر ما بلغوا إليه من ذلك في الخطب والشعر مما استغرقوا فيه المذاهب ولم يتركوا غايةً إلا أتوها حتى صار السامع إذا تُلي عليه كلام كثير من أولئك ظنهُ ضرباً من تصريف الكلم أو باباً من أبواب الاشتقاق وأصبحت المعاني الشعرية كأنما مُسخت فاستحالت جناساتٍ وأنواعاً وصار من تناول منها شيئاً تاه على امرئ القيس وابن أبي سُلمَى ولم يعدّ المتنبي ومن في طبقته شيئاً. ومهما يكن من مذاهب الشعراء فإني لا أرى لأحدٍ منكم أن يتعلق قول الشعر ويضيع أوقاتهُ في معاناته لأن أحدكم أحوج إلى علم يستزيدهُ وليس في أحدكم فضلةٌ لأن يُخرِج من قريحته ما يأخذهُ الناس عنهُ. وإذا لم يكن في الشعر ما يستفاد من حكمةٍ أو أدب أو ما يعجب من ابتكار معنى أو ابتداه نكتة وكان قُصارَى ما يدور عليه الوزن والتقفية فما أقلها جدوى تُسهَر عليها النواظر وتُكَدّ فيها الخواطر ثم لا يكون وراءها إلا أصواتٌ يمكن أن يؤدَّى مثلها بنقر الدُفّ ووقع مطارق القصَّارين. وإذا كان فيكم الشاعر المطبوع يجيش في خاطره الشعر فلا يستطيع ضبطهُ فليصرفهُ في الأغراض الأدبية أو التاريخيَة أو وصف شيء من الأحوال والمشاهد الطبيعية أو ضبط شيء من قواعد العلوم دون التشبيب والمدح وما شاكل ذلك مما يذهب بالزمان سدىً ولا يُتناول منهُ فائدة.

واعلموا أن المرء مفتونٌ ببنات أفكاره فسواءٌ كتبتم شعراً أو نثراً فلا تعجلوا إلى نشر ما كتبتم ولا تكونوا من أنفسكم على ثقة وإن استحسنتم ما صدر من قرائحكم لأول وهلة ولكن ينبغي أن تكونوا لخواطركم متَّهمين وتراجعوا ما كتبتم مراجعة الناقد المتعنت وإن أصبتم في كلامكم ما ينبغي اطِّراحهُ فلا تبتئسوا من ضياع جهدكم فيه ولا تحرصوا على كثرة أبيات

القصيدة ولا على توفُّر الجمل وتعدُّد السطور فإنهُ لم تُعَب قصيدةٌ قطّ بقلة أبياتها ولا مقالةٌ بقصر لفظها ولكنها تعاب بغلطةٍ واحدة أو لفظٍ ركيك أو معنىً في غير محله فتسقط لذلك برمتها. ولا بأس عليكم أن تضعوا كلامكم بين يدي من تثقون بعلمهِ لينبهكم إلى ما فيهِ من العيوب فإن نقد واحد من الأصدقاء ومناصحتهُ في الستر خيرٌ من تنديد جماعاتٍ من الأعداء والحساد على رؤوس الأشهاد. وكلكم يذكر شأن الشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى وما كان يفعلهُ من عرض قصائدِه على أصحابهِ الشعراء والتوفر على تنقيحها حتى يأتي على القصيدة منها حول كامل ولذلك لُقِّبت قصائدهُ بالحوليات ولم يكن يستحيي من ذلك ولا أُتي من جهتهِ قط فضلاً عن أنهُ كان معدوداً في جملة فضائلهِ يؤثر عنهُ إلى هذا اليوم.

وفي الختام أوصيكم بالمحافظة على ولاء هذه المدرسة التي هي موضع نشأتكم ومجمع أَشُدّكم وفيها غُذِيَت أحلامكم ومنها نبضت لكم مناهل الدراية والرُشد ومن أشعتها اقتبست بصائركم ما تسيرون في ضوئهِ سحابة العمر وعلى الجملة فهي التي أتمَّت لكم ما رزقكم الله من نعمة العقل وأكملت فيكم فضل النطق ووصلت أيديكم بأسباب النجاح ونهجت في وجوهكم سبيل الفلاح وأرسلتكم رجالاً يتدرجون في مراقي الفضل والعرفان ويحلون محلهم من أندية العمران واعلموا أنها لن تزال عصمةً لكم تأوون منها إلى ركن عزيز كما آوتكم من قبل في حرزٍ حريز فكونوا عند ما يفرضهُ عليكم الوفاء من تذكر نعمائها وما تتقاضاكم الذمة من الاقامة على صدق ولائها ولا تغفلوا عن عرفان ما لغبطة مؤسسها العلّامة المفضال من الأيادي البيضاء واجمال الثناء على تشييدِه لكم هذا المقام الذي فيهِ تعلمتم صوغ الكلام وتحبير الثناء وتعهُّدِه لكم بالعناية وجميل الرعاية في حالتي المشهد والمغيب وإفاءة ظل فضلهِ عليكم وإحسانهِ إليكم ليبلّغكم من الفوز أوفى نصيب لا زال كوكباً للشرق تُرسَل أشعة هديهِ في الأقطار وتسير بفضل نوره متحيرات الأبصار.

وهذا اليوم موعد تفرُّقكم الذي بِهِ ينحلّ عقد هذا النظام وينوب اجتماع كلٍّ منكم بذويهِ عن اجتماعكم في هذا المقام فكونوا على القرب والبعد

إخوان صدقٍ تجمعهم نسبة الأدب ووحدة الطلب وتضمهم رابطة الوطنية وجامعة العثمانية حتى تكونوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضهُ بعضاً في احياء آثار العلم والتفنن وتوثيق أسباب الحضارة والتمدن في ظل دولتنا العلية الباذخة الأركان القائمة تحت لواء مولانا السلطان عبد الحميد خان أيّد الله دولتهُ وأيَّد بهِ دعائم العدل والأمان وجعل أيامهُ تاجاً على مفرق الدهر كما جعل ذاتهُ تاجاً على مفرق الأكوان. اللهمَّ آمين.

٢

لغة

اللغة والعصر[*]

لم يبقَ في أرباب الأقلام ومنتحلي صناعة الانشاء من هذه الأمّة من لم يشعر بما صارت اليهِ اللغة لعهدنا الحاضر من التقصير بخدمة أهلها والعُقم بحاجات ذويها حتى لقد ضاقت مُعجماتها بمطالب الكتّاب والمعرّبين وأصبحت الكتابة في كثير من الأغراض ضرباً من شاقّ التكليف وباباً من أبواب العنت واللغة لا تزداد إلّا ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعُّب طرق التفنن في المخترعات والمستحدَثات الى أن كادت تُنبَذ في زوايا الإهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال ومسّت الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من الثُّلَم قبل تمام العفاء وقبل أن ينادي عليها مؤذّن العصر سبحان من تفرّد بالبقاء ويُختَم على مُعجَماتها بقصائد التأبين والرثاء.

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر الألسنة مادّةً وأوسعها تعبيراً وأبعدها للأغراض مُتَناوَلاً وأطوَعها للمعاني تصويراً قد أفضت اليوم إلى حال لو رام الكاتب فيها أن يصف حجرة منامهِ لم يكد يجد فيها ما يكفيهِ هذه المؤونة اليسيرة فضلاً عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ومنازل المُترَفين والأغنياء وشوارع المدن الغنّاء وما ثَمَّ من آنيةٍ وأثاث وملبوسٍ ومفروش وغير ذلك من أصناف الماعون وأدوات الزينة مما لا يجد لشيءٍ منهُ اسماً في هذه اللغة ولا يكون حظّ العربيّ من وصفهِ إلّا العِيّ والحَصَر وطيّ لسانه على معانٍ في قلبهِ لا يتسنى لهُ ابرازها بالنطق ولا يجد سبيلاً إلى تمثيلها باللفظ كأنّ المقاطع التي يعبّر بها عن هذه المشخَّصات لم يُخلَق لها موضعٌ بين فكّيهِ وليست مما يجري بين لهاتهِ وشفتيهِ فعاد كالأبكم يرى الأشياء ويميّزها ولا

(*) مجلة البيان، السنة الأولى، الجزء الرابع، ١ حزيران/يونيو ١٨٩٧.

يستطيع أن يعبّر عنها إلّا بالاشارة ولا يصفها إلّا بالايماء.

ويا ليت شعري ما يصنع أحدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ورأى ما ثمّة من المسميات العُضوية من أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن وعاين ما هناك من الآلات والأدوات وسائر أجناس المصنوعات وما تتألف منهُ القِطَع والأجزاء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات.

ثم ما هو فاعلٌ لو أراد الكلام فيما يحدث كل يومٍ من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماوية والفنون العقلية واليدوية وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلاً ولا دقيقاً إلّا تدلّ عليهِ بلفظهِ المخصوص.

لا ريب أنّ الكثير من ذلك لا يتحرك لهُ بهِ لسان ولا يعهد لهُ بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبّر بها عنهُ ولا يغنيهِ في هذا الموقف ما عندهُ من ثمانين اسماً للعسل ومئتي اسمٍ للخمر وخمس مئةٍ للأسد وألف لفظةٍ للسيف ومثلها للبعير وأربعة آلافٍ للداهية وما يفوت الحصر لشيءٍ آخر حرص مؤلف القاموس على استقصاء ألفاظِه حتى لم يكد يذكر مادّةً إلّا وفيها شيءٌ يشير إليه ويدلّ عليهِ.

على أن اللغة مرآة أحوال الأُمّة وصورة تمدّنها ورسم مجتمعها وتمثال أخلاقها وملكاتها وسجّل ما لها من علوم وصنائع وآداب وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيهِ حاجاتها في الخطاب وما يتمثل في خواطرها أو ما يقع تحت حسّها من المعاني. ومعلومٌ أن العرب واضعي هذه اللغة كانوا قوماً أهل بادية بيوتهم الشعر والأديم ومفرشهم الباريّ والبلاس ولباسهم الكساء والرداء وأثاثهم الرحى والقِدْر وآنيتهم القعب والجفنة إلى ما شاكل ذلك مما لا يكادون يَعدُونه في حلّ ولا ترحال فأين هم وما نحن فيهِ لهذا العهد من اتساع مذاهب الحضارة والاستبحار في الترَف واليسار وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق وأنواع الأثاث والزخارف وما نحن فيهِ

من التفنن في أحوال المجتمع والمعاش فضلاً عما بلغ اليهِ أهل هذا العصر من التبسُّط في مناحي العلم والصناعة مما كان أولئك بمعزلٍ عن جميعهِ إلّا ما حدث بعد ذلك في عهد استفحال الإسلام مما ذهب عنا أكثرهُ وما كان فيهِ لو بلغ الينا إلا غناءُ قليل.

ومهما يكن من حال أولئك القوم وضيق مُضطرَب الحضارة عندهم وما نجد في ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن فلا يتوهمنَّ متـوهمٌ أن ذلك واردٌ على اللغـة من هرمٍ أدركها فقعد بها عن مجاراة الأحوال العصرية وأناخ بها في ساقة الألسنة الحاليّة فإن معنى الهرم في اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد خلت ألفاظها عنها ثم تضيق أوضاعها عن إحداث ألفاظٍ تؤدّى بها تلك المعاني فيطرأ على اللغة النقص حيناً بعد حين إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها ولا تبقى صالحةً للاستعمال وحينئذٍ فلا يبقى إلّا أن يُلقَى حبلها على غاربها أو يستعان بغـيرها على سدّ ما عرض فيها من الخلل بما يغيّر من ديباجتها وينكّر أسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن وتصير على الجملة لغةً أخرى.

وليس بمنكرٍ أن ما وصفناهُ من هذه الحال يشبه في بادي الرأي ما نشاهدهُ من حال لغتنا اليوم وما لم نزل ننعاهُ عليها منذ حين من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية إلّا أن ذلك إذا استقريت أوجههُ وأسبابهُ وسبرت غور اللغة في نفسها وقست مبلغ استعدادها علمت أنهُ ليس منها في شيء وأيقنت أنها لا تزال في ريعان شبابها وطور ترعرعها وأن فيها بقيةً صالحة لأن تجاري أوسع اللغات وأكثرها مادةً ولكن ما أدركها من ذلك واردٌ من قِبَـل الأمّة وتخلّفها في حلبة الحضارة والمدنية إذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهرمهم وإنما هي عبارةٌ عمّا يتداولونهُ بينهم لا تعدُو ألسِنتهم ما في خواطرهم ولا تمثّـل ألفـاظهم إلّا صُورَ ما في أذهـانهم. وبديهيٌّ أن اللغة لم توضع دفعةً واحدة وإنما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء على قدر ما تدعو اليهِ حاجة المتكلمين بها وقد اختصّت هذه اللغة بمـزيّـةٍ عزّ أن توجد في غيرها وهي أن أكثر ألفاظها مأخوذٌ بالاشتقاق

اللفظيّ أو المعنويّ صارت إلى ما صارت اليهِ من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيهِ لغةٌ على كونها من أقلّ اللغات أوضاعاً إلا أنها من أكثرهنّ صِيَغاً وأبنية وهو السرّ في قبولها هذا الاتّساع العجيب فضلاً عما فيها من تشعُّب طرق المجاز على ما سنعود إلى بيانهِ بالتفصيل.

واعتبر ما ذكرناهُ من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليهِ اللغة زمن الجاهلية وفي صدر الإسلام ومقابلتها بما بلغت اليه على عهد الخلفاء من بني العبّاس بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح وتنبُّه الأمّة لطلب العلوم وتبسُّطها في فنون الحضارة بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية إلى أبعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك لم يكادوا يدخلون فيها لفظاً أعجمياً(٥) ولا اضطُرّوا فيها إلى وضعٍ جديد ولكنها خدمتهم بنفس أوضاعها التي وضعتها العرب فاشتقّوا منها ما لا عهد بهِ للعرب على وجههِ الذي نقلوهُ اليهِ ولم تتكلم بهِ أصلاً حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الأمم التي اجتاحوها شرقاً وغرباً وزادوا على ذلك كلهِ ما استنبطوهُ بأنفسهم واللغة مشايعةٌ لهم في كل ما أخذوه فيهِ لم تنضب مواردها دونهم ولا رأينا من شكا منها عجزاً ولا تقصيراً إلى أن أدركهم من تبدُّل الأطوار وغارات الأقدار ما وقف بهم عند ذلك الحدّ فوقفت اللغة عند ما نراهُ فيما وصل الينا من كتبهم وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأمّة وتتابعت دواعي الدمار حتى اندرست أعلام حضارتها وذهبت علومها أدراج الرياح فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أمّةٍ متمدنة ولا هو أهلٌ لأن يُبْلَغ به ما منزلتهُ تلك. ولذلك فإن كان ثمة هرمٌ فإنما هو في الأمّة لا في اللغة لأن ما عرض لها من الهجر والإهمال غير لاحق بها ولا ملحق بها وهناً ولا عجزاً وإنما هو عجزٌ في ألسنة الأمّة ومداركها وتأخرٌ في أحوالها واستعدادها ولو صادفت من أهلها البقاء على عهد أسلافهم من السعي في سُبُل الحضارة وتوسيع نطاق العلم لم تقصر عن مشايعتهم في كل ما فاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم إلى مجاراة العصر الحاضر.

ولقد أتى على اللغة مئاتٌ من السنين بعد ذلك لم يُزَد فيها حرفٌ بل لم

يكد يُحفَظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم بما طرأ على أهلها من الضغط والفاقة وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران وذهاب الحضارة من بينهم حتى عادت حوائج كثير من أهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدويّ والأكّار وما دامت المعاني التي يعبَّر عنها باللغة معدومة فلا سبيل إلى بقاء الألفاظ الدالّة عليها إذ اللفظ انما يُتَّخذ للعبارة عن الخواطر التي في النفس فلا يكون إلاّ على قدرها بالضرورة. وزاد على ذلك كله ذهاب ما كتب المتقدمون بعضهِ بالإحراق كما تمّ في مكتبة قُرطُبة وكأنّ هذا في مقابلة ما وقع من مثله بالاسكندرية وفارس... وبعضهِ بالاجتياح والنهب فلا بقي في مكانهِ فينتفع بهِ المتأخر ولا احتفظ بهِ الذي نهبهُ لجهلهِ قيمتهُ وبقي الشيء اليسير نجدهُ اليوم في مكاتب الأعاجم وأكثرهُ مما اشتُري من أيدينا بالذهب... فلا غرو أن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهاب هذه اللغة من ألسنة الأعقاب حتى لو رام أحدنا إثارة دفائنها وتعهُّدها بالتجديد والاحياء لما وجد منها في البلاد إلا الشيء النزر لا يعدو في الغالب علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد أهل بلادنا يحافظون على سواهُ.

أغلاط العرب(*)

يذهب بعض الناس الى أن العرب معصومةٌ في ألسنتها لا يجوز عليها ما يجوز على المولَّد من الخطأ والوَهَم وأن كل ما نطق بهِ البدويّ ينبغي أن يُتَّخذ سُنّةً يتابَع عليها من غير بحثٍ ولا انتقاد لأن لسانهُ لا يجري إلاّ بالصواب ولا يقع إلا على الصحّة. ولا يخفى ما في هذا القول من الخُرق والغلوّ لأنا لا نعلم وجهاً يعصم البدويّ عمّا رُكّب في طبائع سائر البشر من قبول السهو والشطط فضلاً عن كونه أدنى من غيرهِ إلى الوهم لأنهُ كان ينطق على السليقة المحضة ولم يكن لهُ من القوانين الصناعية ما يردّهُ إلى الصواب إذا شذَّ عنهُ. وأنت خبيرٌ بأن اللغة لم تُنقَل الينا منقحةً مصححةً ولا سبق للذين أُخذت عنهم ان اجتمعوا على ضبطها وتحريرها وإزالة ما

(*) مجلة الضياء، عدد نيسان/أبريل ١٩٠١.

فيها من مواضع الشبهات والمغالط ولكنها نُقلت الينا كما جرت على ألسنة المتكلمين بها حتى العجائز والصبيان فضلاً عن الخطباء والشعراء بل لو لم يكن فيما نُقلت عنهُ إلا الشعر وهو أوسع مصادرها واليه معظم شواهدها لكفى أن تكون مظنةً للشذوذ والخطأ لما هو معلوم من أمر الشعر وما يعرض فيهِ من الضرورات التي تقضي على الشاعر أن يعدل عن السَنَن المألوف في لسانهِ لاقامة الوزن أو القافية.

بلى لا تُنكر مزية العربيّ على المولَّد في أنهُ هو واضع اللغة وان المولَّد مقلدهُ فيها وانهُ ما دام منتحلاً لهذه اللغة فهو مقيَّد بمتابعة الواضع وكل ما خالفهُ فيهِ لم يُعَدّ من اللغة التي انتحلها وهذا أمرٌ لا سبيل إلى انكارهِ ولا جدال فيهِ. غير أن هذه المزية للعربيّ على المولَّد إنما هي في وضع ألفاظ اللغة وسَنْ أحكامها وضوابطها لأنهُ هو السابق اليها فليس لمن جاء بعدهُ أن ينازعهُ في ذلك ولا أن ينقض حكماً بناهُ ولا سيما بعد أن خُتم على اللغة بخاتم القرآن والسنّة وتعيَّن الجري فيها على ما انتهت اليهِ زمن التنزيل والنطق بالأحاديث النبوية وأما في استعمال الألفاظ والأحكام الموضوعة فالعربيّ وغيرهُ سواءٌ ليس للعربيّ أن يخالف قوانين لغتهِ كما أنهُ ليس للمولَّد أن يجري على غير ما تقلدهُ عنهُ وبهذا ميز علماء الأدب بين مطَّرد اللغة وشاذّها وفصيحها وركيكها ونبهوا على المذاهب الضعيفة في النحو وغيرهِ بل نقضوا أقوال بعض العرب أنفسهم وحكموا بخطأها لم يقيلوا لهم فيها عثاراً ولا سوّغوا القياس عليها فضلاً عن اتخاذها حُجّةً. وقد عقد السيوطي في المزهر باباً في معرفة أغلاط العرب نقل فيهِ عن ابن جنّي وابن فارس وابن دُرَيد وغيرهم ونحن نورد هنا شيئاً من هذا الباب ثم نردفهُ بما اتفق لنا الوقوع عليهِ من أغلاطهم مما لا يخلو من فائدةٍ وتبصرة للمطالع.

قال ابن جنّي فيما نقل عنهُ السيوطيّ بعد العنوان المذكور كان أبو عليٍّ يرى وجه ذلك ويقول إنما دخل هذا النحو كلامهم لأنهم ليست لهم أصولٌ يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به فربما استهواهم الشيء فزاغوا بهِ عن القصد فمن ذلك ما أنشدهُ ثعلب:

غدا مالكٌ يرمي نسائي كأنمـا   نسائي لسهمَـيْ مالـكٍ غَرَضان
فيا ربِّ فاترك لي جهيمةَ أعصراً   فمالـكُ موتٍ بالقضـاء دهانيَ

قال هذا رجلٌ مات نساؤهُ شيئاً فشيئاً فتظلم من مَلَك الموت وحقيقة لفظه غلطٌ وفاسد وذلك أن هذا الأعرابي لما سمعهم يقولون ملَك الموت وكثر ذلك في الكلام سبق اليه أن هذه اللفظة مركبة من ظاهر لفظها فصارت عندهُ كأنها فَعَلٌ لأن مَلَكاً في اللفظ في صورة فَلَك وحَلَك فبنى منها فاعلاً فقال مالك موتٍ وإنما مالك هنا على الحقيقة والتحصيل مافل كما أن مَلَكاً على التحقيق مَفَل واصلهُ ملأك إلى آخر ما قالهُ هنا وأشبع القول فيهِ. ثم قال ومن ذلك همزهم مصائب وهو غلط منهم وذلك انهم شبهوا مصيبة بصحيفة فكما همزوا صحائف همزوا أيضاً مصائب وليست ياء مصيبة بزائـدة كياء صحيفة ولكنها عينٌ عن واو وهي العين الأصيلة وأصلها مُصْوبة. ثم عدّ من ذلك أشياء منها قولهم حلأت السويق ورثأت الميت واستلأمت الحجر ولبّأت بالحجّ (أي بالهمز في ذلك كله يريدون حلَّيت السويق ورثيت الميت واستلمت الحجر ولبَّيت بالحج). قال ومن أغلاطهم ما يتعايون بهِ في الألفاظ والمعاني نحو قول ذي الرمّة «والجيد من ادمانةٍ عتودٌ» (كذا) وإنما يقال هي ادماء والرجل آدَم ولا يقال ادمانة كما لا يقال حمرانة وصفرانة وقال:

حتى إذا دوَّمَت في الأرض راجعها   كبرٌ ولو شاء نجَّى نفسهُ الهربُ

وإنما يقال دوَّى في الأرض ودوَّم في السماء. وقال ابن فارس في فقه اللغة ما جعل اللّه الشعراء معصومين يوقَّون الغلط والخطأ فما صحَّ من شعـرهم فمقبـول وما ابتهُ العربية وأصولها فمردود كقولهِ «ألم يأتيك والانباء تنمي» وقوله «لما جفا اخوانهُ مُصعَباً» وقولهِ «قفا عند ممّا تعرفان ربـوع»[1] فكله غلطٌ وخـطأ. وقال ابن دُرَيد في أواخر الجمهرة باب ما أجروهُ على الغلط فجاءوا بهِ في أشعارهم قال الشاعر (النابغة):

وكـلُّ صَمُوتٍ نثلـةٍ تُبَّعيـةٍ   ونسجُ سُلَيمٍ كلُّ قضّاء ذائـل

أراد سليمان. وقال آخر «من نسج داودَ أبي سلاّمِ» يريد سليمان

أيضاً ومثلهُ قول الآخر «جدلاءُ محكمةٌ من نسج سلّامِ». وقال آخر:

برّيةٌ لم تاكل المرقّقا ولم تذق من البقول الفستقا

فظن أن الفستق بقل. وقال رؤبة:

هل يُنجيَنّي حَلِفُ سِختيتُ او فضةٌ او ذهبٌ كبريتُ

قال وهذا مما غلط فيهِ رؤبة فجعل الكبريت ذهباً. انتهى المنقول عن المزهر باختصار وقد بقي أشياء كثيرة أضربنا عنها لطولها والكتاب مطبوع فمن أحبّ الوقوف عليها فليطالعها هناك.

قلنا ومن الألفاظ التي أخطأوا في معانيها قول خالد بن زهير:

وقاسمَها بالله جهداً لأنتمُ الذُّ من السلوى إذا ما نشورُها

أراد بالسلوى العسل ونشورها مضارع شار العسل إذا جناهُ. قال في لسان العرب قال الزجّاج أخطأ خالد إنما السلوى طائرٌ ثم قال قال الفارسي السلوى كل ما سلاّك وقيل للعسل سلوى لأنهُ يسليك بحلاوتِه.. يردّ بذلك على الزجاج ا هـ. قلنا وهذا لا جرم إحدى مزالق اللغة ودواعي فسادها وإذا كانت السلوى لا تُعرَف عند العرب بمعنى العسل فما الداعي إلى زيادة هذا المعنى فيها حال كونهِ غير متيقّن ولم يُسمَع إلا في هذا البيت وأي ضررٍ من القول بأن هذا الشاعر قد غلط. ومن هذا القبيل قول العجّاج:

بل بلدٍ مثل الفجاج قُتُمُهْ لا يُشترَى كتانهُ وجَهرَمُهْ

قال الوزير أبو بكر في شرح ديوان امرىء القيس غلط العجاج في الجهرم ظن أنها ثياب وهي بلدٌ بفارس ا هـ. وتمحل لهُ صاحب لسان العرب بأنهُ على اسقاط ياء النسبة أي أنهُ أراد وجهرميُّهُ على جهل الجهرميّ اسم جنس للثياب الجهرميّة وهي المنسوبة إلى هذا البلد وفيهِ تعسفٌ لا يخفى ثم نقل عن الزيادي عن ابن برّي انهُ قد يقال للبساط نفسهِ جهرم وما نظن الزيادي بنى قولهُ إلا على هذا البيت كما بنى صاحب لسان العرب تفسير الكبريت بالذهب الأحمر على قول رؤبة

المتقدم على أنهُ صرّح هناك بتغليط رؤبة عن ابن الأعرابي. قال ابن جنّي وقد حُكي عن رؤبة وأبيهِ يعني العجّاج انهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سبُقا اليها. ا هـ. ومن ذلك قول امرىء القيس في معلقته:

فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمها   لما نسجتها من جنوبٍ وشَمألِ

فاعل نسجتها ضمير الريح استغنى عن تقدم ذكرها بدلالة القرينة وقولهُ من جنوبٍ وشمألٍ بيان للريح. وفيه أن النسج إنما يكون بين الريحين المتعارضتَين كالجَنُوب والدَّبُور مثلاً تشبّه آثار احداهما بالسدى وآثار الأخرى باللُحمة قال في القاموس ونسجُ الريح الربع أن يتعاورهُ ريحان طولاً وعرضاً. ا هـ. والجنوب والشمأل لا تنسجمان لأنهما متناوحتان أي متقابلتان وهو ظاهر. قلنا ووقوع هذا الغلط من امرىء القيس في منتهى العجب على أن كل من روى معلقتهُ روى هذه اللفظة هكذا ولم نجد في شراح المعلقات ولا شرّاح الديوان من تعرّض لها وهو أعجب. والذي عندنا أن في الرواية تصحيفاً ولعلّ الصواب نسختها بالخاء المعجمة من قولهم نسخت الريح آثار الديار إذا غيرتها كما في لسان العرب والله أعلم.

اللغة العاميّة واللغة الفُصحى(*)

نشر بعضهم من سنواتٍ رسائل متتابعة يدعو فيها علماء العربية وكتّابها الى استبدال اللغة العاميّة من الفُصحى واعتمادها في الكتب والجرائد وغيرها ورسم لها حروفاً جديدة تُكتَب بها هي الحروف اللاتينية وقد وضع لبعضها علاماتٍ خاصّة للدلالة على المقاطع التي لا صُوَر لها في اللغات الافرنجية. وقد انتهى الينا بعض ما نشرهُ من تلك الرسائل وفيه أمثلةٌ من حكاياتٍ وغيرها باللغة العاميّة المصرية كتبها بالحروف المذكورة فكانت نوعاً من الكرشوني[٧] إلا أنهُ متفرنج كأكثر أهل الشرق في هذه الأيام وإذا قُرئت جاء لفظها أشبه بلفظ رجلٍ إفرنجي يتعلم العربية ولا

(*) مجلة الضياء، أعداد كانون الثاني/يناير، شباط١/فبراير وآذار/مارس ١٩٠٢.

سيما في أمر الحركات التي عبّر عنها بأحرف المدّ فإذا نطق بها العربي توهم سامعهُ أنهُ يقلّد كلام أحد الافرنج المقيمين في هذه الديار. وأغرب من ذلك أنهُ زعم أن تعلُّم هذه الحروف أسهل تناولاً على الأُميّ من أبناء مصر وانها أفضل ذريعةٍ لتعميم القراءة في القطر وكأنهُ توهم ابن مصر رجلاً من أبناء أمتهِ قد تعلّم القراءة بحروف لغتهِ فكان تعلُّم قراءة العربية بحرفٍ يعرفهُ أسهل عليه وأقلّ كلفةً من أن يتعلمها بحرفٍ جديد.. وإلاّ فان لم يكن بدٌّ لمتعلم القراءة من أن يتعلم أشكال ثمانيةٍ وعشرين حرفاً فمـا الفرق بين أن يتعلمها بهذه الصورة أو بتلك. وان قيل ان صورة الحرف الواحد تختلف أحياناً بحسب موقعهِ من الكلمة قلنا وهذا أيضاً لا تخلو منهُ الحروف اللاتينية بل قد تكون صورتا الحرف الواحد فيها أبعد مماثلةً.

على أن الأمر طُوي من ذلك الحين ولم يصادف من أحدٍ اهتماماً إلى أن ظهـر في هذه الأيـام كتـابٌ ألفـهُ المستـر ولمُور أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية على الطريقة المذكورة جمع فيه ما تسنَّى لهُ من قواعد اللغة العامية المصرية على وجهٍ يقرّب من الأجنبي تناولها والتكلم بها. والكتاب في هذا الحدّ يُعَدّ ولا جرم خدمةً جليلة خدم بها قومهُ ولا سيما انهم بعد أن رسخت أقدامهم في هذه الديار لم يبقَ بهم غنىً عن تعلُّم لغة البلاد فاختصر لهم الطريق إلى هذه البغية بحيث صار يمكن الانكليزي أن يتعلم العربية بحرف لغتهِ. ولهذا المعنى خصص هو وغيرهُ ممن عني بهـذا الأمر اللغة العامية المصرية وقد أفصح بذلك صاحب الأجبشن غازيت فيما استهلّ بهِ كلامهُ عند ذكرهِ لهذا الكتاب حيث قال ما معناهُ «إنـهُ في مدة هذه التسع عشرة سنة (أي منذ حلول الانكليز في القطر المصري) حاول عدة أناس من الانكليز أن يضعوا مؤلفاتٍ لقواعد العربية المحدثة ومفرداتها» إلى آخر ما ذكرهُ. ولكن المؤلف وبعض اخوانهِ ممن علّقـوا التعـاليق في الكتاب وممن قرظوهُ في جرائدهم لم يقفوا عند هذا الغرض من صنيع المؤلّف ولكنهم ذهبوا إلى ما وراء ذلك من وجوب نسخ اللغـة الفصحى من البـلاد واحـلال اللغـة العامية مكانها مع كتابتها

بالحرف اللاتيني على مثل ما ذهب اليه صاحب الرسائل المقدّم ذكرها. وحجتهم في ذلك أن اللغة الفصحى لغة قديمة ميتة قد انقطع عهد الألسنة بها من زمن مديد فلم تبقَ صالحةً لنشر المباحث والاكتشافات العلمية وإنما تنتشر فوائد العلم باللغة الحية التي تتفاهم بها الأمة لا باللغة التي لا توجد إلا في بطون الأسفار. وإذا كان ذلك ووجب استبدال اللغة العامية من اللغة الفصحى لزم تبديل أشكال الحروف أيضاً لأن حروف الهجاء العربية لا تؤدي الأصوات بتمامها إذ لا صورة بينها للحركات بل هي قد لا تؤدّي بعض اللفظ الجاري على الألسنة في اللغة العامية نفسها.

وهناك سببٌ آخر وهو أن الأجنبيّ الذي يتعلم العربية يرى في كتبها ألفاظاً لا يعرفها إلا المتعلمون فضلاً عما يجد من الصعوبة في لفظها لما تقدم من عدم وجود صور الحركات مرسومةً في هجاء الكلمات على مثل ما هو الحال في لغات أوربا.

ويؤخذ من كلام المؤلف وبعض الجرائد الانكليزية في القطر الايماء إلى لزوم إدخال هذه الطريقة في المدارس أي مدارس الحكومة مع جعل التعليم اجباريًّا بحيث انهُ لا يمضي زمنٌ قصير حتى يعمّ استعمالها في البلاد وتكون الضربة القاضية على اللغة الفصحى وأسفارها.

ولا يخفى أن الحجة الكبرى في ذلك كلهِ الفرق الذي حدث بين اللغة العامية واللغة الفصحى حتى صارتا في نظر الأجنبي كأنهما لغتان متباينتان بحيث يتعذر على العاميّ فهم اللغة المكتوبة. ولكن ذلك وهمٌ دسّهُ على أولئك القوم الجهل بلغة البلاد لأنهم لو كانوا يعرفون العربية كما يعرفها أهلها لعلموا أن معظم الفرق بين اللغتين مقصورٌ في الغالب على اهمال علامات الإعراب من اللسان العاميّ بحيث أصبح مسموع اللفظين متبايناً على الجملة. إلا أن هذا إنما تتنكر بهِ اللغة في سماع الأجنبيّ لا في سماع أهلها ألا ترى أن العامي منا لو سمع قائلاً يقول رأيت زيداً وجاء الرجلان والمؤمنون يذهبون لم يلتبس عليهِ لفظ زيد بسبب ما اتصل بهِ من التنوين ولم يجد فرقاً بين الرجلان والرجلين ولا بين المؤمنون والمؤمنين ويذهبون ويذهبوا وإنما هذا كلهُ مما يشكل على

الأجنبي الذي لم يتعلم الا لغة العامة. ومن أعظم الشواهد على ذلك أن العـامـة منـا يقرأون ويسمعون الجرائد وكتب الروايات والأقاصيص الحديثة والقديمة من مثل سيرة بني هلال وعنترة وأحاديث ألف ليلة وليلة وغيرها ويفهمونها ويروونها مع أن جميعها مكتوبة باللغة الفصيحة. أجل لا ننكـر أن العـامي لا يفهم بعض لغة الحريري مثلاً والمتنبي ولا لغة امرىء القيس وعُبَيد بن الأبرص إلا أن مثل كلام هؤلاء لا يدخل في هذا البحث لأن لغة الجاهلية قد أُهملت من زمن طويل فلا يكتب بها أحد بل أصبـح كثـيرٌ منهـا ممـا لا يفهمهُ حتى الخاصّة ولغة الحريري نسجٌ مخصوص قُصد بهِ التفنن في اللغة والايغال في غريبها والتبسط في فنون البديع والإكثار من الاستعارات والكنايات وغيرها ولكن هذا لم يكن مطرداً في جميع كتاباتهِ بل لا تكاد تجد لهُ شيئاً منهُ في غير مقاماتهِ. وقس على ذلك رسـائل الخاصة من مثل البديع والصابي والخوارزمي وهي أيضاً لغةٌ خاصـةٌ لهم يتـداولونهـا بينهم ويتأنقون في السجع ومذاهب البلاغة ولكنهم إذا كتبوا في غير ذلك من نحو رواية خبر أو تقرير مسئلة كتبوا بغير هذه اللغة كما تشهد بهِ كتاباتهم الباقية إلى اليوم. ومعلومٌ أن اللغة طبقات منها بعد عهد الجاهلية الكتابات التي تُقصَد بها الخاصة كالتي أشير اليها ومنها الكتابات التي تُلقى إلى جمهور المتأدبين مثل تعريب كليلة ودمنة وأخبار الأغاني ومقدمة ابن خلدون وما في هذه الطبقة يُتأنق فيها ولا يُبلَغ بها حدّ الغرابة ومنها ما يُلقى إلى العامة مثل كتاب ألف ليلة وليلة وكتب النوادر والأقاصيص المختلفة وهي الكتابة الشائعة في المخاطبات والمعاملات ومنها كتابة الجرائد ونحوها في هذه الأيام. وهذا النمط الأخير تفهمـهُ العامة بتمامه ولا يقف دون فهمها لهُ تبديل بعض المقاطع مما تحرَّف على ألسنتها وهو قليل أو تغيير شيءٍ من هيئة بعض الكلمات بسبب الاعراب وهو لا يلزم إلا نادراً وأما أوضاع اللغة الأصلية من الأسماء والأفعال والحروف فهي في كلام العامة الألفاظ الفصيحة بعينها ما خلا ألفاظاً قليلة من المرتجلة أو المنقولة عن اللغات الأجنبية وهي لا تغير جوهر اللغة ولا تلقي عليها صبغةً أخرى.

والذي عندنا أن السبب الواقعي في هذه الحركة والداعي إلى احداث هذا الانقـلاب العـظيم في الأمة هو السبب المذكور آخراً وهو ما يجدهُ الأجنبي في اللغة المكتوبة من الألفاظ التي لا يفهمها إلا المتعلمون وحينئذٍ كان يجد من نفسهِ أنهُ لا بدّ لهُ من تعلم اللغتين جميعاً لأنهُ لو تعلم اللغة العـاميـة وحدها بقيت اللغة الفصحى مبهمةً عليهِ ولو تعلم الفصحى وحدها سمع من ألفاظ العامة ما لا يفهمهُ لأن أدنى تغيير في صورة اللفظة يقف حجاباً بينهُ وبين فهم معناها. والقوم لا يستغنون عن كلتا اللغتين احداهما للمفاوضات اللسانية والمصالح اليومية والأخرى لفهم ما يُكتَب ولا سيما في الجرائد السياسية ولا نقول في أوراق الحكومة لأن لهذه لغةً ثالثة لا تُعَدّ من هذه ولا تلك ونعني بها اللغة المعروفة بلغة الدواوين... وهذه لا نعلم بأي طريقة ينوون أن يتداركوها.

وأما كون اللغة العامية أصلح لنشر المباحث العلمية فلعلهُ لا يخلو من الصحة والذي نقدّرهُ من معنى هذا القول أنهُ لما كانت هذه اللغة فاقدة الروابط وألفاظها غير مقيَّدة بأوزانٍ محرَّرة ولا معرَّضة للحركات الاعرابية كالصيغ الفصيحة كان من الممكن أن تُدخل فيها جميع الألفاظ الأعجمية المستحدثة في العلم والصناعة وغيرهما من غير حاجة إلى وضع مرادفاتٍ لهـا من العـربية أو إفراغها في قالبٍ من قوالب التعريب وحينئذٍ تكون منزلتها من هذه الجهة منزلة اللغة التركية في هذه الأيام. وهذا ولا جرم من الأمور التي ينبغي لكل عربيٍّ أن يعيرها نظرة اهتمام فإن اضطرارنا إلى إدخال علوم العصر في مدارسنا مما لا كلام فيه ولكن أكثر مصطلحات تلك العلوم لا لفظ لهُ في لساننا لأنهُ مما استُحدِث بعد انقطاع عهد العلم عند العرب بل ربما نشأ هناك فروعٌ من العلم لم يكن لها رسمٌ عندهم ولا عرفوا شيئاً منها كالكهربائية والبخار وغيرهما فضلاً عن العلوم التي تبدَّل رسمهـا كالكيميـاء والهيئـة وفضــلاً عن أسمــاء الآلات والمصطلحات الصناعية بحيث كان أكثر اللغة العلمية مما لا مرادف لهُ عندنا وأصبح لا يمكن التعبير عنهُ إلا بأحد وجهين اما بأن نستخدم الألفاظ الأعجمية عينها وهي تباين الأوضاع العربية في أوزانها ومقاطعها فتؤدي إلى تشويه

وجـه اللغـة وإفساد محاسنها وإما بأن نتكلف تعريب بعضها ووضع مرادفاتٍ للبعض الآخر وهذا على ما نرى لا موضع لهُ اليوم مع انقطاع أئمـة اللغـة عندنا إلى بعض صحف الأوائل ينقّبون في خلال سطورها ويبحثون عما تحت ألفاظها وحروفها من المغازي والأسرار ومع اشتغال الكتّاب منا بتقويم أوَد السياسة والذود عن حياض الشرق بأسنّة أقلامهم الماضية... وما دام أصحاب اللغة نائمين عن الاهتمام بسدّ ثُلَمها والمصير بها إلى مجاراة لغات العصر فهي ولا محالة صائرةٌ إلى أقبح مما أشار بهِ مؤلف الكتـاب ومَن على رأيـهِ بحيث أن اللغـة العلميـة ولغة الحديث ستصبح كلتاهما فرعاً من المالطية ولا تبقى اللغة الفصحى إلا في الجوامع والمحاكم وهذا معنى موت اللغة لا توصف اللغات الميتة بغير ذلك. فإن كانوا راضين بهذا فهو متسنٍّ لهم من اليوم ولا نرى وجهاً لاعتراض بعض الجرائد على صاحب الكتابة فانهُ قد صدقنا النصيحة ولم يُشِر إلا بما يعود الى ترقية عقول الأمة وإلا بقي ابن الشرق في القرن العشرين كما كان البدويّ في زمن الجاهلية.

وأمـا مسئلة الكتـابـة وعدم وجود صور لأصوات الحركات في رسم الهجاء العربي فمما لا يُبالَى به بالقياس الى الامة نفسها إن كان النظر اليها مجرداً ولو كان من أصعب العقبات بالقياس إلى الأجنبيّ الذي يروم تعلم اللغة والقراءة في كتبها. وهذا على الحقيقة من المشاكل التي يعسر حلّها لأن للحركات عندنا مقادير لا تتعداها فإذا رُسمت بالحروف كما هو الشأن في اللغات الأوربية جاء لفظ الكلمات منكَّرا وربما التبس بعضها ببعض فلم يبقَ فرقٌ بين سَلِم مثلاً وسالِم وسليم إذ يكون بعد السين ألف وبعد اللام ياءٌ في الكل وقد يجيء ما هو أنكر من ذلك كما في مثل قَتَل وقاتَل لما هناك من الاختلاف الفاحش في المعنى وحينئذٍ لا يبقى غنىً عن وضع علاماتٍ تميز الحركة من الحرف فعاد الأمر إلى الشكل وهو يغني وحدهُ بدون الحروف. وذلك فضلاً عما في التزام التحريك في الرسم سواءٌ كان بالحرف العربي أم اللاتيني من إطالة هجاء الكلمات واقتضاء الكتابة زمناً أطول إلى ضعفٍ آخر في الأقلّ. فجملة ما يقال ان الحركات في العربية

لا تُكتَب إلا بصورة حركات لأن لفظها ليس لفظ الحروف الكاملة ولا هي داخلة في بنية الكلمات وإنما الغرض الأصلي منها الانتقال من مقطع إلى مقطع لكن غاية ما هناك أنهُ يمكن استنباط طريقة تمكّن المطابع من وضع الحركات على وجهٍ أسهل وحينئذٍ لا يُشكّل إلا الحرف الذي يمكن التباسهُ ولو على الأجنبي فتكون مطبوعاتنا على مثال بعض الكتب التي تُطبَع للتعليم في المدارس وإن كان الأمر على كل حال فيهِ من الصعوبة ما فيهِ.

بقي أنهُ على تقدير خروج هذا الرأي إلى الفعل فإن ما يتخلص منهُ الأجنبيّ يقع فيهِ الوطنيّ بل يقع في أشدّ مضضاً منهُ على ما سنذكرهُ. ونعني بالوطني هنا المسلم الذي هو العنصر الغالب في البلاد فانهُ مع تعليمهِ قواعد اللغة العامية لا يستغني عن تعلم اللغة الفصحى لإحكام قراءة القرآن وتلقّي الحديث وفهم نصوص الشرع المبنية عليهما ولا بدّ لبلوغ هذه المنزلة من قراءة كتب النحو والبيان واللغة وسائر علوم الأدب. وهذه كلها إن لم يتعلمها في مدارس البلاد لزمهُ أن يتعلمها في مدارس أخرى خاصة أو يدرسها في منزلهِ وكلاهما لا يستطيعهُ إلا الأغنياء فضلاً عما فيهِ من المشقة وإضاعة الزمن. وكذلك يلزمهُ أن يتعلم قراءتين احداهما بالحرف العربيّ لتلاوة القرآن لأنه لا يجوز لهُ أن يكتبهُ بحرفٍ أجنبي إلا عند الضرورة على خلاف والأخرى بالحرف اللاتيني المصطلح عليه في البلاد لمطالعة ما يُنشَر فيها من الكتب والجرائد ولدراسة العلوم العصرية التي يرام كتابتها باللغة والحرف المذكورين على ما أشير اليهِ من التأليف ولا نخال التسليم بذلك كلهِ من الأمور المستسهلة. ومن هنا يعلم المؤلف وغيرهُ أن العربية لا تقاس في ذلك بالطليانية واليونانية إذ ليس في هاتين اللغتين شيءٌ من الأمر الديني الذي أشرنا اليهِ بل فيما حدث أخيراً في أمر ترجمة الانجيل إلى اليونانية الحديثة عبرةٌ كافية مع انتفاء المحذور الذي ذكرناهُ. وبقي وراء ذلك كله ما يترتب على هذا الانقلاب من الخسران الجسيم بضياع ما لا يُحصى من كتب العلم والتاريخ وغيرهما بحيث يتعذر نقل هذه الكتب بأسرها إلى الحرف الجديد ولا يبقى سبيلٌ للاعقاب إلى تناول ما فيها إذا تغير الحرف الذي يقرأون بهِ. ولذلك فالذي

نراهُ لواضعي هذه الطريقــة أن يقتصروا فيهــا على تعليم الأجنبيّ لغة البــلاد ولا يتجاوزوا إلى ما وراء ذلك من التبديل في شؤون الأمة فإن محاولة هذا الاحداث فيها ليس في شيءٍ من الحكمة ولا هو من الأمور التي يساعدها الإمكان.

تقدم لنا من القول في هذه المسئلة ما لم يبقَ معه محلٌ لمعاودة البحث فيها لولا ان رأينا من تحمس أرباب الأقلام عندنا وتضافرهم لصدّ هذه الغارة ما قدَّرنا معه ان الخواطر قد صارت متأهبة لقبول ما يُلقى إليها وما بشّرنا بأن القوم قد هبّوا من غفلتهم واستيقظوا للذود عن آخر ذخيرة ابقاها لهم الدهر بل آخر مظهر يمثّلهم في عالم الوجود ألا وهو اللغة التي هي عنوان الأمة والمعنى الذي يشخُّص به كيانها وتمتاز به عن سواها. وقد طالما كانت هذه النهضة مما تمنيناه وتابعنا نداءنا بالتنبيه إليه والحث عليه فلم نصادف إلاَّ عيوناً ساهية وآذاناً صماء فالحمد لله ثم للقاضي ولمور الذي بعث تلك الهمم من رقدتها ولو بدُفعة من الماء البارد...

ولقد كنا نتوقع بعد الذي شهدناه من استطارة الخواطر على أثر ما أعلنه المؤيد من رأي المستر ولمور ان نرى من القوم غير ما رأيناه من طرق الدفاع عن اللغة واتخاذ الذرائع التي تضمن بقاءها وتجعلها بمأمن من استئنــاف هذه الكرة ولكنا لم نجد في جميع ما وقفنا عليه من المقالات الطويلة والرســائل المتتابعة إلاَّ ما يستفاد منه تسخيف رأي الخصم والاعلان برفض ما عرضهُ على الأمة ثم مُسحت الأقلام على هذا القدر واكتفى القوم بما حجُّوا به المستر ولمور وأصحابه وبقيت اللغة بحالها وهي بادية المقاتل.

على ان مسئلة حياة اللغة أو موتها لا تتوقف على اقناع الخصم بقوة البرهان أو إفحامه بكثرة اللغَط ولا على رضى الأمة بما عرضهُ القاضي ولمور أو إبائها له فإنا لو فرضنا ان المشار إليه طوى كتابه أو أحرقه وأمّنا على اللغة من جهته لم نأمن عليها من جهة أخرى هي أشد خطراً عليها من كتــاب ولــمور وأعظم وبالاً ونعني بها جهة الأمة نفسها وبالحري جهة علمائها وأئمتها فإنهم هم المطالبون بحياة اللغة وإليهم ينتهي ما يكون

من بقائها أو اضمحلالها. على ان ما ذكره المستر ولور في مقدمة كتابه سواء كان الغرض منه مصلحة قومه كما تأوله المتأوّلون أم مصلحة الأمة المصرية كما هو ظاهر قوله فإنه لا يخلو من مواضع استبصار حريّة بأن لا يذهلنا عامل الحنق على المؤلف أو الاشفاق على اللغة أو الدين ان ننظر فيها ونعمل بما تقتضيه قطعاً للسان الخصم وتداركاً لحال الأمة. وأهم تلك المواضع أمران أحدهما كثرة تشعب قواعد اللغة واتساعها إلى ما يفوت الحافظة ويستغرق الزمن الطويل في تعلمها مما يكون عائقاً عن تحصيل سواها من العلوم والثاني قصور ألفاظها عن أداء المعاني العلمية والصناعية وسائر مواضعات الحضارة العصرية على ما أشرنا إليه فيما سبق وكلاهما لا ريب فيه ولا غنى عن تداركه.

فأما الأول فمن المعلوم ما بلغت إليه النحاة من كثرة المذاهب واختلافها وتعدد الأقوال في كل مسئلة وكثرة المفترضات والمستنبطات مما يتشتت به ذهن الطالب ويعجز عن استيعابه لكثرته وربما قضى عمره بطوله في درس قواعد النحو ومراجعتها ولا يزال شيء منها غائباً عنه حتى لا يأمن اللحن أحياناً من حيث لا يشعر. وذلك ان العرب كانت قبائل متفرقة لكل منها لغاتٌ ومذاهب تنفرد بها عن عامتها فلما جمع النحاة تلك اللغات تعين على المتأخر ان يتعلمها جميعاً ثم زادوا على ذلك كل ما سُمع في الشعر شاذاً عن القواعد حتى في لسان الشاعر نفسه وحينئذٍ فمنهم من أطلق القياس على هذا الشاذ ومنهم من قصره على الضرورة. قال الاندلسي في شرح المفصّل والكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه اصلاً وبوّبوا عليه بخلاف البصريين قال ومما افتخر به البصريون على الكوفيين ان قالوا نحن نأخذ اللغة عن حَرَشة الضِباب وأكلة اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواء وباعة الكواميخ[٨] ... قلنا وما ذُكر هو أصل الخلاف بين البصريين والكوفيين بل أصل هذا الفساد الذي طمى على اللغة والنحو حتى أصبح الخائض في مسائلهما كالخابط في ظلمات بعضها فوق بعض. وزد على ذلك ان منهم من كان يضع البيت من عنده يقصد به نصرة رأي ذهب إليه أو توجيه

كلمة صدرت منه فيتناوله الأئمة عنه ويحتجون به في تصانيفهم فازداد الخرق بذلك اتساعاً والطينة بلة وقد ذكروا ان في كتاب سيبويه خمسين بيتاً من هذا القبيل لا يُعرَف قائلوها.

وهناك شيء آخر يسمونه تركيب المذاهب وهو يشبه تداخل اللغات قال ابن جنّي وذلك ان تضمّ بعض المذاهب إلى بعض وتنتحل بين ذلك مذهباً ثالثاً.. فإذا سميت رجلاً بيَرَى (مضارع رأى) فمذهب يونس ان يصغّر على يُرَيئي بردّ الهمزة المحذوفة ومذهب سيبويه ان يصغّر على يُرَيّ مثل فَتَى وفُتَيّ لأنه يكتفي بالحصول على مثال التصغير. ثم ان يونس يمنع صرف يُرَيئي وسيبويه يصرف يُرَيّ فيقول من ركّب المذهبين رأيت يُرَيئياً بردّ الهمزة على مذهب يونس والصرف على مذهب سيبويه وهو مذهب المازني.

ويلحق بذلك كله من التعليلات والتوجيهات في كل مسئلة بين ان تُرَدّ إلى أصل كذا أو أصل كذا وان تجري على هذه اللغة أو تلك ما يفوت الحصر ويستوقف البصيرة حائرة دون الحكم. وانظر في ذلك إلى كلامهم في أصالة المصدر أو الفعل وفي عامل المنادى والمستثنى واسماء الشرط وتعيين نائب الفاعل في نحو قولك مُرّ بزيدٍ بين ان يكون الجارّ والمجرور أو المجرور وحده أو الجارّ وحده أو شيئاً آخر غير الجار والمجرور أي المصدر المفهوم من الفعل وفي مثل اعراب لا سيما وأجدك لا تفعل وكأني بك شاعرٌ ولا عاصم اليوم والفرق بين البدل والبيان ومسائل الصفة المشبهة إلى غير ذلك مما اختلفت مذاهبهم فيه ولم يدعوا وجهاً مما يمكن ان يتمثل للذهن أو يُتوصل إليه بقياس صحيح أو فاسد إلاّ طرقوه وجعلوه مجالاً للمماحكة والجدال. وهذا وأمثاله هو الذي صيّر أحكام اللغة إلى ما شاع عنها من الصعوبة والاشكال حتى صارت تُعدّ طلسماً من الطلاسم أو كنزاً من الكنوز المرصودة وهو كما ترى يرجع جلّه أو كله إلى مذاهب النحاة واختلافاتهم وليس من كلام العرب في شيء وانما هو صنيع من لا شغل له غير الصور اللفظية يقلّبها على ما تحتمله من الوجوه فلم يَدع في ذلك ولم يَذَر.

ولا يخفى ان هذا التوسع كله مما لا يحتمل اليوم فضلاً عن ان الكثير منه لا حاجة إليه إلّا في بعض الأحوال لتخريج آية أو حديث أو بيت من الشعر وهذا ليس مما يجب ان يحيط به كل طالب للغة وإلّا لزم تعطيل بقية العلوم والاقتصار على علوم العربية وحدها وهي لا تغني في مقام التنازع العصري شيئاً.

ولذلك فأول ما ينبغي الاهتمام به تأليف لجنة من ذوي البصائر السليمة والعلم الصحيح تتولى كتب النحو بمثل ما فعل مؤلفو مجلة الأحكام العدلية في الكتب الشرعية فيختارون من كل قاعدة أصح الأقوال وأمثلها لتكون مرجعاً لطلاب هذه الصناعة وتُنبذ بقية الأقوال الساقطة والمذاهب المرجوحة ويكون في ضمن ذلك اهمال كل ما يتعلق بالقراءات المختلفة واللغات الشاذة والضرورات الشعرية مما يُترك الكلام عليه للتصانيف المختصة به بحيث يتخلص النحو في الوجوه التي عليها الاستعمال ويكون ذلك ذريعة تتوحد بها قواعد اللغة كما توحدت اللغة بالقرآن.

ومثل ذلك يُفعل بكتب متن اللغة فتُنبَذ منها اللغات المتروكة والألفاظ الوحشية من كل ما لا يُرى في الكتب المتداولة لهذا العهد وما لا يجوز للفصيح استعماله على ما نص عليه علماء البيان لأن هذه كلها مما يقتضي الاطالة في الشرح إلى حد الملل ويكثِر التخليط على الطالب من غير فائدة. ثم يُنظَر في التعاريف المبهمة أو المهملة ولا سيما تعاريف أسماء الحجارة والجواهر وأنواع النبات والحيوان على قدر ما يمكن التوصل إليه ولو بالأدلة الوضعية والمناسبات الاشتقاقية وترتَّب الألفاظ على وجه سهل المراجعة لا يكلف عناء ولا بحثاً طويلاً بحيث تكون كتب اللغة عندنا على مثل ما هي عليه في اللغات الأوربية.

فإذا أمكن الوصول إلى ذلك كان ولا جرم وسيلة لتقريب منال اللغة على الوطنيّ بحيث لا يبقى بمعزل عنها ولا يُضطر ان يضيع الزمن الطويل في تعلمها وسهّل تناولها على الاجنبي فلا يجد فيها من العقبات ما يشكوه

اليوم. وفي ذلك فوائد أخر أهمها بعد ما ذُكر تكثير عدد المتعلمين في الأمة وبالتالي شيوع اللغة الفصحى بين أفرادها لتمكنهم من فهم كتبها وهذا ولا ريب من آكد الأسباب لتصحيح لغة الاقلام واللغة العامية جميعاً لأن الكاتب حينئذٍ يتحدّى ما يقرأه من الكتب الفصيحة وإذا تكلم تجافى ما استطاع عن الألفاظ السوقية والتعبيرات السخيفة مما يؤدي إلى ان تبطل شيئاً فشيئاً على تراخي الأيام.

وأما الأمر الثاني وهو قصور ألفاظ اللغة عن أداء الاغراض العلمية والصناعية وسائر المواضعات العصرية فمما لا خلاف فيه ولا ينكره أو يستخف بحاجتنا إلى تداركه إلاّ من غابت عنه أحوال العصر ولم يرَ من الكتب إلاّ ما انتهى إلينا من بقايا صحف الغابرين ولم يعلم من الشؤون الاجتماعية إلاّ ما يقرأه في جرائد الأخبار وكتب الروايات. ولو تسنى لبعض أدبائنا ان يقرأوا شيئاً من المجلات العلمية التي تصدر تباعاً من الآفاق الأوربية والأميركية أو يتصفحوا كتاباً من الكتب العلمية أو الصناعية في احدى لغات أولئك الأقوام ويروا ما هنالك من غرائب المصطلحات التي لم يمر طيفها بخلد أحدٍ من واضعي لغتنا ولا نجد فيما وضعوا لفظاً يعبِّر به عن شيء منها لارتفع لهم شيء من ذلك الحجاب ولعلموا ان ما يتعللون به من الدعاوي الفارغة يموّهون بها على أنفسهم وعلى القراء ليس إلاّ ضرباً من التغرير والاستسلام للقدر حتى يقضي قضاءه على أيديهم ويتخذهم اعواناً على أنفسهم وعلى بلادهم. بل حسب من ذهب به الغرور هذا المذهب ان يزور أحد باعة البضائع الافرنجية ويسأله عن اسمائها ثم ينظر بمَ يسميها من أوضاع لسانه بل حسبه ان يدخل ردهة منزله ويتفقد ما فيها من المرافق وأدوات الزينة ثم ينظر هل يجد لشيء منها اسماً عربياً. فإن قال ولكن هذه من مصنوعات الأجانب وُلدت عندهم وسُميت بألفاظهم قلنا فهل وُلدت ألسنتنا عندهم أيضاً وإلاّ فأين ما ندعيه من اتساع لغتنا ووفرة موادّها وصلاحيتها لتمثيل كل ما يراد من المعاني. على ان كل جديد اليوم يأتينا من عندهم فإن سمينا كل ما نتناوله عنهم بلفظه الموضوع في لسانهم فعلى لغتنا السلام وحينئذٍ فلا

نقف عند حد استبدال اللغة العامية من الفصحى ولكن تصبح لغتنا خليطاً من العربية وسائر اللغات الافرنجية على ما تقدمت لنا الاشارة إليه وعلى ما نرى مُثُله اليوم في الأحاديث اليومية حتى في لغة الفلّاح إذا سمى بعض أدواته فضلاً عن المباحث العلمية.

على ان دعوانا اتساع اللغة مما لا ينكره علينا منكر ولكن معنى اتساعها ان في أوضاعها ما يتسع لأن يُشتق منه ألفاظ لما شئنا من المعاني لا ان كل معنى له لفظ موضوع لأن أصحاب اللغة لم يتنبأوا بما سيحدث بعدهم من المسميات حتى يضعوا لها اسماء قبل وجودها. ولذلك لا بد لنا من النظر في وضع ما لم يضعوه واستدراك ما فاتهم مما حدث في العصور المتأخرة ولا يكفينا في هذا المقام ان نقول ان لغتنا كانت في بعض ما مرّ بها من العصور لغة علمية فإن العلم اليوم غير العلم في الزمن الأول فهو لا يُتلقى عن الأولين تلقي الأقوال المُنزلة فضلاً عن ان يبقى محصوراً في الحدود التي بلغوا اليها ولكن هذا العصر عصر بحث وتنقيب وقد انقلب فيه العلم وتبدلت حقائقه ومصطلحاته حتى لم يبق مما قرره الأولون إلّا رسوم واطلال فضلاً عما أحدث المتأخرون مما لم يكن للسابقين به عهد. وهذا قانون ابن سيناء المشهور كان يُعتبر إلى زمن قريب مجموع العلوم الطبية بأسرها وكان إليه مرجع جميع الأطباء والمصنفين في الشرق والغرب ومن زاد عليه شيئاً لم يتعد شرح بعض مسائله أو اختصار بعض فصوله ومثله كتاب المجسطي لبطلماوس في علم الهيئة وكتب ارسطاطاليس في الفلسفة ولكن هذه الكتب لم يبق لها ذكر اليوم إلّا في برنامجات المكاتب القديمة ولا يطلب علماء هذه الأيام الوقوف عليها إلّا بقصد الاطلاع على الشيء الغريب كما يحبّ أحدنا الاطلاع على عوائد أهل الصين مثلاً. ولذلك فإن ما وضعه السلف من الألفاظ العلمية لا يكاد يغني عنا شيئاً من المطالب العصرية حتى في العلوم التي بحثوا فيها ولكنه ولا ريب الدليل المقنع على ما ذكر من ان اللغة لا تضيق عن حاجتنا والحجة الناطقة بتقصير أئمة العلم منا واستسلامهم بأفضل ذخائرهم لعوامل الضياع. على أنّا اليوم في أول شوطنا وقد قرع اسماعنا

من التنبيه ما يكفي لأن يوقظنا من غفلتنا ويحثنا على المبادرة إلى سدّ هذه الثلمة وتدارك اللغة من الفوات فإن فعلنا وإلّا لم تلبث ان تلحق باللغات الغابرة ولا يبقى منها إلّا ما حفظته الخزائن من مصاحف الأولين.

وما استغربنا في هذا المقام إلّا كلاماً لبعض مكاتبي المؤيد يقول فيه ما نصه:

«واما اقتراح بعض الأفاضل «تشكيل» جمعية لاستبدال الكلمات الأعجمية بما يرادفها من الكلمات العربية فهذا أمر لا طائل تحته(!!) فإن تشكيل جمعية لأجل تغيير نحو مئة كلمة (كذا) فهذا يمكن «لجريدة» مثل جريدة المؤيد ان تقوم به»...

وأغرب من هذا ما جاء لمكاتب آخر في العدد التالي قال ما حرفيته:

«وقبل وضع القلم لا بد من التكلم على أمرين الأول تعديل اقتراح ذلك الفاضل في المؤيد بأن كل كاتب ممن «نوه عنهم» المقترح يكتب للمؤيد كل ما يراه بهذا الصدد وأقترح مع هذا ان يكون المؤيد حكماً... أما انتظار تأليف جمعية فأمر يطول وإليك ما أراه.

«تسمى عربة أوتوموبيل (جوابة) وعربة الترامواي (سيارة) والتلغراف بسلك (برق) والتلغراف بدون سلك (لمح) أو (شعاع) والتلفون (سفير) أو (الناقل) أو (النمام) والفنوغراف (سمير) والفتوغرافية (عين) أو (رصد) والسنتمواغرافية (خيال).. والياقة (رقبية) والحرملة (كتفيّة) والبنطو (ظهري) والبنطلون (ساقان) كخاقان»...

كذا ما قرأناه بحرفه ورسمه. فانظر بعيشك هل سمعت قط أو كنت تترقب ان تسمع مثل هذا الكلام وإذا كان هذا جلّ ما تنتظره الأمة من علمائها وكتّابها في مثل هذا المعترك فيا لفشل الأمة ويا لضياع اللغة بل هي البشرى للمستر ولمور وأصحابه بخروجهم من هذا المجال فائزين... وإلّا أفليس من الغريب ان يُنشر مثل هذا الكلام في جريدة هي أشهر جرائد العربية وأشيعها ثم لا يوجد بعد نشره من يردّ هذا القائل إلى هداه ويدفع عن القراء هذا التغرير الفاضح ولا سيما والمقام مقام مناظرة أو

كما يعنونه المؤيد تنازع بقاء والخصم واقف بالمرصاد يرمينا بالجهل والغباوة.

كلّا أيها الكاتب الخبير انها ليست «مئة كلمة» كما توهمت بل لو نظرت في احدى المجلات العلمية وقرأت أنباء ما يحدث كل يوم عند أولئك القوم من فنون الاختراع وضروب الاكتشاف لوجدت المئة كلمة في جزء واحد منهـا. ولا نكلفك الوقوف على معاجم المصطلحات العلمية والصناعية وأصغرها كمعجم بولياي المطبوع منذ نحو أربعين سنة يبلغ لا أقل من ١٨٠٠ صفحة كبيرة بالحرف الدقيق تتضمن الصفحة لا أقل من ٦ إلى ١٠ كلمات هي رؤوس المواد فضلاً عما يتخلل شرحها من التفاصيل وكل ذلك لا تجد عندنا منه ما يملأ عشرين صفحة والباقي مما يتعين علينا ترجمة بعضه وتعريب البعض الآخر. ولا نذكر ما حدث في مدة هذه الأربعين سنة التي أربت الاختراعات والاكتشافات فيها على كل ما سبق منها في السنين الغابرة ولا سيما في فنّي الكيمياء والكهربائية مما لا يدخل تحت حصر ولا تزال حلقاته متتابعة إلى هذا اليوم. وحسبنا من ذلك ان نشير إلى كتاب موسوعات العلوم الكبير الذي شُرع في طبعه منذ سنوات باللغة الفرنسوية وقد بلغ إلى الآن نحواً من خمسة وعشرين مجلداً كل مجلد منها لا تقل صفحاته عن الف صفحة كبيرة غالبها فيما ذكر وهو لم يبلغ ختامه بعد. على ان مؤلفيه لم ينتهوا إلى ما وصلوا اليه اليوم حتى صار يلزمهم ان يرجعوا فيه على حافرتهم ويزيدوا عليه ما حدث بعد طبع ما طُبع منه ثم هلمَّ جراً بعد ذلك إلى ما يعلم الله حدَّه. ومع هذا كله فإن من أدبائنا من يقول إن تأليف جمعية لتعريب الألفاظ التي فاتتنا أمر لا طائل تحته وهل من طائل أعظم من هذا ان استطعنا ان نبلغ منه ولو القدر الذي تدعو إليه أمسّ حاجاتنا الحاضرة وكان فينا رجال قوّامون بمثل هذا العمل الكبير. أم سبق إلى وهم هذا الكاتب ان كل جمعية لغوية ـ بل كل جمعية وطنية ـ تكون على مثال «المجمع اللغوي» المشهور... اللهم ان كانت الجمعية التي أُشير بعقدها ستجري على خطة المجمع المذكور فنحن أول من يشير بتركها تفادياً من تجديد ذلك الوسم المعيب

والجمع بين عار التقصير وعار الفشل.

على ان الاقدام على انشاء جمعية لغوية يوكل إليها تعريب كل ما نحتاج إليه من الكلمات وتتولى سدّ هذا النقص العظيم في اللغة ليس بالأمر السهل ولا بالعمل الذي يُفرَغ منه في مدة من الزمن او ينتهي إلى حد معلوم ولكنه لا بد له من تعيين جمعية عاملة تستمر على تراخي الزمن وتدوم ما دامت الأمة ويكون فيها أناس من العارفين بالعلوم العصرية ولو بالقدر الذي يفهمون به مصطلحها ويقدرون على شرحه أو بيان معناه الوضعي وينضم إليهم جماعة من علماء الأمة ممن يكونون راسخي القدم في معرفة أوضاع اللغة ومعاني المشتقات ووجوه المجاز وبعبارة أخرى يكونون على بيِّنة من طريقة العرب في الاشتقاق والنقل وغيرهما حتى يحذوا حذوهم ويجروا على سننهم. وفوق ذلك فإن هذا العمل يقتضي نفقات طائلة ذات مورد لا ينقطع لأن القائمين به ينبغي ان يقفوا عليه أيامهم يقضون معظمها في البحث والتنقيب وتدوين ما يوفقون إليه وطبعه ويكونون مرجعاً للكتاب وأهل العلم في كل ما يعرض لهم من مسائل اللغة ومشكلاتها. وأنّى لنا ذلك كله وأين الرجال الذين يضطلعون بهذه الاعباء ويكفوننا هذه المؤن. أنرجو مثل ذلك من الشبان المتخرجين في مدارسنا وأعلاها لا تتجاوز تعليم الهندسة لتولي أعمال الحكومة في البلاد. أم من علمائنا وأطولهم اشتغالاً بالعلم من قضى سنيه في تحرير إعراب البسملة. أم من كتّابنا وأشدّهم تحرياً في اللغة لا يكلف نفسه نظرة في كتبها ليعلم الفرق بين الصفحة والصحيفة. أم من اغنيائنا وأحدهم ينفق الألوف من الدنانير في حفلة زفاف أو ابتياع لقب صبياني ولا ينفق الدرهم في عمل من الاعمال النافعة. أم نعوّل في ذلك على حكومتنا وقُصاراها ان تقف سُدّاً دون العلم إلاّ في المقدار الذي يكون به المتعلم أهلاً لخدمتها بل أهلاً للوقوف على أبوابها المزدحمة بالمتذللين والمتوسلين... على ان هذا المقدار الذي تسمح به في مدارسها لا يكون إلاّ باحدى اللغات الأجنبية دون العربية حتى أصبحت دروس هذه اللغة لا تتعدى بعض الأسئلة التافهة التي يلقيها الممتحنون على الطلبة في كل سنة من مثل تثنية المقصور

واعراب المستثنى... ولا يغرّننا ما أوعزت إلى بعض اساتذتها بتلفيقه من كتب النحو والبيان فإن تلك الكتب لم تكن إلاّ آلات لتقويض أساس اللغة وسلاحاً للاجهاز عليها لما في وضعها من التعقيد والالتباس والحشو والاغراب بحيث انها تنفّر الطالب من علوم اللغة وتمثلها له في أبغض الصُور لما يجد في معاناتها من الصعوبة وما يقاسي من كدّ الذاكرة في حفظ أشياء لا يفهمها... ومن غريب ما يُذكر في هذا المقام ان التلميذ بعد ان يكابد ما يكابده في درس هذه الكتب حتى ينال الشهادة التي تؤهله للدخول في خدمة الحكومة إذا قُبل في احدى وظائفها أُمر بإهمال كل ما تعلمه والجري على لغة الدواوين المعهودة وفي ذلك سر لا يخفى تأويله على اللبيب... وأغرب من هذا ان المدارس الوطنية أيضاً جارية على نسق تعليم الحكومة وفي نفس كتبها حرصاً على ما علمته من أمل الدخول في الوظائف بحيث صار موظفو نظارة المعارف منا وأرباب المدارس الوطنية وآباء الدارسين كل اولئك اعواناً على اللغة لا تجد لها بينهم من حزب ولا نصير.

على ان داء الحرص على طلب الوظائف والتهافت على الدخول في خدمة الحكومة ليس خاصاً بالأمة المصرية فهذه الأمة الفرنسوية على وفرة ما عندها من أبواب الأعمال واتساع مذاهب العلم وتوفر المساعدات عليه قد ابتليت بالمرض نفسه على ما ندّد به المسيو دمولان في كتابه سر تقدم الانكليز وعدَّد مضارَّه بالأمة وتبعه في ذلك الخطباء والكتّاب من كل اوب. وأي ضرر أعظم من حصر مدارك الناشئين في حيّز واحد من العلم وتقييد عقولهم بحركة استمرارية مثلها حركة الدولاب وعقارب الساعة وقصر مطامعهم على راتب ينالونه فيما لا يعنيهم منه سوى ذلك الراتب وأقل ما في هذه الأمور تضييق نطاق العلم في البلاد واطفاء نور الذهن وإبطال ملكة النظر والحكم في اطراف المعقولات واقعاد الهمم عن السعي والاقدام والتصرف في أنحاء المطالب. وزد على ذلك كله ما في هذه الحال من الذلّ الذي يميت النخوة ويُذهب الأنفة ويَمْني النفوس بالصغر إذ يكون الانسان رهيناً لمشيئة غيره وأعماله موقوفة على ما يراد منه لا على ما يريد

بحيث لا يبقى له اعتداد بنفسه ولا يكون وجوده إلّا صورة يتمثل فيها وجود قيّمه كالحرف معناه في غيره. وإنما يتهالك قومنا على طلب الوظائف لأمرين أحدهما ما يتوهمون فيها من الشرف ولو كان رداؤه المذلة والاسترقاق والثاني ما فيها من توسّد مهاد الراحة والخلو عن السعي والمزاحمة في ابتغاء الرزق. ولا يخفى ما في ذلك من الاغراء بالكسل والقعود حتى يكون المرء عيالاً على غيره فلا يخرج من حجر والده حتى يدخل في حجر الحكومة وقد جعل لحياته حدّاً لا تخرج عنه ولنظره أمداً لا يتجاوزه. لا جرم ان هذا هو العجز بل الموت بعينه وإذا كان كل متنور في الأمة هذا سبيله فلا نخطىء إذا قلنا انه شكل من أشكال موت الأمة. هذا على ان الذين يفوزون بالوظائف ليسوا إلّا عدداً يسيراً من اولئك الطلبة والدارسين وسائرهم وهم معظم شبان البلاد ومن ينبغي ان يكونوا موضع آمالها وساعد نهضتها لا ينقلبون عن أبواب الحكومة وقد مسحوا عن جباههم غبار التمرغ على عتباتها حتى يصيروا على أبواب الحانات ومواضع القمار والمنكر فيتمرغوا في حمأة المخازي والكبائر ويخرجون وهم يُزَجّون امامهم مطايا الفقر ويجرّون وراءهم أذيال التبعات.

وقد كدنا نخرج عما كنا فيه فنعود إلى توفية الكلام في امر الجمعية او المجمع وهو ما أبنّا ان لا حياة للغة إلّا به ولكن إذا كان حال أقطاب الأمة وحكومتها على ما وصفنا وبودّنا ان نكون مخطئين فيه فاللغة سائرة ولا ريب في سبيل الاضمحلال قائمة على شفير الزوال إلّا إذا قُيّض لها من يتداركها من طريق آخر. والذي نراه انه إذا كان للأمل عرق ينبض وكان للأمة ان تتوسم وجهاً للنجاح ولو بوضع أول حجر من هذا البناء فمن هذه الجمعية التي عُقدت من عهد قريب ونعني بها جمعية الكتّاب المصريين التي سيأتي ذكرها في هذا الجزء فإنهم هم الواقفون على كنه هذا الداء الشاعرون بوجوب مداواته لأنهم مدفوعون إلى الكتابة في كل معنى على ما هو شأن الصحافي وليس بهم غنى عن تعريب كلام الجرائد والمجلات الأوربية والامـيركانية سياسة كان أو علماً أو صناعة فهم مضطرون بطبيعة عملهم إلى نقل تلك المعاني بأسرها إلى لغتنا وليس من

ينكر ان كل لفظة حدثت في اللغة في هذا العهد فهي من آثار أقلامهم. على انّا لا ننكر ان الغناء بمثل هذه الجمعية قليل لاعتمادها على قوم يتعيشون من شق القلم فليس بهم سعة للقيام بنفقات العمل الذي نحن في صدده ولا في طوقهم التفرغ لهذا الشغل الكبير لأن غالبهم لا يملك مهلة بين حركة فكره وحركة يراعه ولكن لا أقل من ان يضعوا الكلمة بعد الكلمة ويعرّبوا الحرف بعد الحرف على قدر ما تدفعهم إليه الحاجة وتهيئهُ لهم المقدرة ثم ان يكونوا مهمازاً لعلماء الأمة وصوتاً حياً يقرع اسماع اغنيائها ومثريها عسى ان يفتح له مجرى في أصمخة آذانهم ويجد مساغاً إلى أبواب خزائن سخائهم المزدحمة بما هناك من رسل المطالب المختلفة مما تقدم شرحه.

التعريب(*)

لم يمر بالكاتب العربي عصر كانت الكتابة فيه أصعب مزاولة ولا أوعر سبيلاً وأكثر عقبات من العصر الحالي ولا أتى على اللغة عهد هي فيه أضيق مجالاً وأشد عقماً بمطالب أهلها من هذا العهد. وذلك ان لغة كل قوم إنما هي عبارة عما يدور بينهم من المعاني والاغراض وما يقع تحت حسّهم من الاشباح وينطبع في مخيلاتهم من الصور لا تعدو ما هم فيه من ذلك أو ما شاكله. ولا يُنكر ان اللغة لا تثبت على حال واحد فهي أبداً عُرضة للتغيير تارة والزيادة أو النقص أخرى تبعاً لأحوال أهلها وتنقُّلهم في الأطوار إلاّ ان ذلك إنما يتم مع الأيام ويقع الشيء منه بعد الشيء جرياً على الحال الطبيعي في كل موجود ومن قابل حال اللغة اليوم بما كانت عليه لعصر الجاهلية ثم ما كانت عليه بعد ذلك لعهد الدول العربية قضى العجب مما تقلب عليها من التفاوت والاختلاف. بيد ان هذه الأطوار الثلاثة كانت متداخلة بعضها في بعض لا حد بينها ولا يتعين لأحدها مفصل يبتدىء منه أو ينتهي إليه ولم يكد أهل اللغة يشعرون بما يقع من ذلك لتراخي حدوثه وجريه في خفاء وتؤدة فمَثل اللغة في ذلك مَثل الانسان يشبّ ويهرم

(*) مجلة الضياء، عدد نيسان/أبريل ١٩٠٠.

ولا يشعر من نفسه بتبدُّل في بنيته ولا قواه. ولكنك إذا نظرت إلى حال الأمة العربية في هذا العهد وما انتشر بينها من التمدن الغربي وجدت انها قد أفضت إلى حال انتقلت فيها عن أفقها الأول دفعة واحدة وهجمت على تمدن فجائي قد نبت في غير أرضها ونمى في غير جوّها ولم يبلغ إليها إلاَّ وهو على تمام أشدّه وكمال كيانه فكان انتقالها إليه والحالة هذه أشبه بالطفرة ووجدت بين أيديها من أنواع الملبس والمفرش والماعون وأدوات الترف والزينة ومصطلحات العلم والتجارة والصناعة والسياسة وفنون الأحاديث والتصورات وغير ذلك ما هو مباين لما عندها وأصبح الكاتب منها مضطراً إلى وضع مئات بل آلاف من الاسماء التي لا يجد لها رديفاً في لسانه ولا في وسعه نقل تلك الألفاظ بصورتها إلى لغته لشدة التباين بين طبيعة هذه اللغات ولغات اولئك الأقوام لأن الألفاظ فيها محصورة الأوضاع محدودة الصيغ لا تقبل الزيادة عليها إلاَّ منها ولا يمكن ان تُدَسّ اللفظة الأجنبية بينها إلاَّ بعد ان تجانسها وتؤاخيها.

ولا يخفى ما في مزاولة هذا العمل الطويل من الصعوبة وبُعد المنال إذ لا يُتصوَّر من كل كاتب ان يكون محيطاً بألفاظ اللغة عالماً بأوضاعها واشتقاقاتها ولا في سعة كل منشىءٍ ان يتفرغ لتقليب صحف اللغة وتتبع موادّها حتى يتولى وضع ألفاظ لهذه الأشياء بنفسه وما كان أحوجنا إلى مجمع لغوي يوكل إليه البحث في هذه الأوضاع ويناط به احياء اللغة وإلحاقها بسائر لغات أهل العصر بل احياء الأمة نفسها إذ لا حياة لأمة إلاَّ بلسانها كما أوضحناه في غير هذا الموضع. وهذا ما طالما حثثنا عليه همم العلماء من أهل هذا القطر لعلمنا انه محط رحال العربية ومنبثق أنوار علومها لو صادفنا منهم أذناً واعية ولكن القوم في شغل شاغل من الأمر السياسي الذي عرفته بل الحلم المضحك المبكي الذي تشاغلوا به في هذه الأيام وكان مثلهم فيه مثل من اهتم بتسوير أرضه وجدران بيته متداعية...

ومهما يكن هناك فإن الأمر قد أصبح أجلّ من ان يُتغاضى عنه لأن هذه الألفاظ تزداد يوماً بعد يوم بما يتوالى من المخترعات والمكتشفات على ما

نراه كل يوم في جرائد القوم ومجلاتهم فإذا لم نبادر إلى سن طريقة يمكن بها وضع ألفاظ لهذه المستحدثات أو سبك ألفاظها في قالب عربي لا تتشوه به هيئة اللغة لم نلبث ان نرى الأقلام قد تقيدت عن الكتابة في هذه الأمور بتة أو أصبح أكثر اللغة أعجمياً إلاَّ إذا طبنا نفساً عن علوم العصر ومصنوعاته ورجعنا بحضارتنا إلى الحد الذي كنا عليه منذ خمسين سنة أو فوقها وهي المنزلة التي يحاول بعض القوم ان يردّونا إليها ونعم المصير.

ولقد تواترت علينا في هذه الأيام مكاتبات بعض الاخوان من مشتركينا الأدباء يسألوننا الخوض في هذا البحث لما رأوا من الضرورة الماسة إليه وهو البحث الذي كنا شرعنا فيه في مجلة البيان تحت عنوان اللغة والعصر ثم انقطعنا عنه للسبب الذي ذكرناه في محله. وهو يتضمن عدة مباحث منها الاشتقاق وقد استوفينا ما حضرنا من الكلام عليه هناك ومنها المجاز والنحت وسنعود إليهما ان شاء الله ومنها ما نحن فيه من أمر التعريب نقدّمه في هذا الموضع اجابة للطلب والله المستعان.

واعلم ان التعريب شيئان أحدهما تعريب الكلمات المفردة وهو ما تقدم ذكره ومرجعه إلى اللغة وفيه كلامنا الآن والآخر تعريب الجمل باعتبار تركيبها ومؤداها وهو يرجع إلى الصيغ البيانية وسنفرد له فصلاً مخصوصاً ان شاء الله.

وتعريب الكلمة المفردة قد يكون بما يرادفها من الكلم العربية ويسمى بالتعريب توسعاً وقد يكون بإدخال الكلمة الاعجمية نفسها في الاستعمال ونظمها بين الألفاظ العربية حتى تكون كأنها منها وهو المفهوم من اصطلاحهم كما سنذكره. قال في الصحاح وتعريب الاسم الاعجمي ان تتفوه به العرب على منهاجها تقول عرّبته العرب وأعربته أيضاً. وقال في المصباح والاسم المعرّب الذي تلقته العرب من العجم نكرة نحو ابريسم ثم ما أمكن حمله على نظيره من الابنية العربية حملوه عليه وربما لم يحملوه على نظيره بل تكلموا به كما تلقوه.. وان تلقوه علماً فليس بمعرَّب وقيل فيه أعجميٌّ مثل ابرهيم واسحق. ا.هـ. وفي هذا الأخير كلام

سيأتي. وقال في المزهر قال أبو حيان في الارتشاف الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام قسم غيرته العرب والحقته بكلامها فحكم ابنيته في اعتبار الاصلي والزائد والوزن حكم ابنية الاسماء العربية الوضع نحو دِرهَم وبَهرج وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها فلا يُعتبر فيه ما يُعتبر في القسم الذي قبله نحو آجُرّ وسيسنْبر وقسم تركوه غير مغير فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعد منها وما ألحقوه بها عُدّ منها مثال الأول خُراسان لا يثبت به فُعالان ومثال الثاني خُرَّم أُلحق بسلَّم وكُرْكُم أُلحق بقُمقُم. ا.هـ.

وفيه قال أئمة العربية تُعرَف عجمة الاسم بوجوه أحدها النقل بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية. الثاني خروجه عن أوزان الاسماء العربية نحو إبْرَيْسَم. الثالث ان يكون أوله نون ثم راء نحو نرجس. الرابع ان يكون آخره زاي بعد دال نحو مهندز. الخامس ان يجتمع فيه الصاد والجيم نحو الصولجان والجِصّ. السادس ان يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق. السابع انْ يكون خماسياً أو رباعياً عارياً من حروف الذلاقة وهي الباء والراء والفاء واللام والميم والنون. انتهى باختصار وفي بعض ما ذكر خلاف. وزاد صاحب شفاء الغليل بعد الرابع ان تجتمع فيه السين والذال نحو ساذَج معرَّب ساده بالمهملة وسذاب معرَّب سداب.

وفي المزهر أيضاً وقال بعضهم الحروف التي يكون فيها البدل في المعرَّب عشرة خمسة يطَّرد ابدالها وهي الكاف والجيم والقاف والباء والفاء وخمسة لا يطّرد ابدالها وهي السين والشين والعين واللام والزاي (كذا وفي شفاء الغليل والراء ولعل الصواب والذال). فالبدل المطّرد هو في كل حرف ليس من حروفهم كقولهم كُربَج الكاف فيه بدل من حرف بين الكاف والجيم فابدلوا فيه الكاف أو القاف نحو قُربَق أو الجيم نحو جورب. وكذلك فِرند هو بين الباء والفاء فمرة تُبدل منه الباء ومرة تُبدل منه الفاء. وأما ما لا يطّرد فيه الابدال فكل حرف وافق الحروف العربية كقولهم اسماعيل ابدلوا السين من الشين والعين من الهمزة[٩] ... وقال أبو عُبيد في الغريب المصنَّف العرب يعرّبون الشين سيناً يقولون نيسابور وهي

نيشابور وكذلك الدشت يقولون دست فيبدلونها سيناً[١٠]. انتهى المقصود منه.

وقال في شفاء الغليل اعلم انهم قد يغيرون الكلمة الأعجمية فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً وربما ابعدوا الابدال في مثل هذه الحروف وهو لازم لئلا يدخل في كلامهم ما ليس منه فيبدلون حرفاً بآخر ويغيرون حركته ويسكنونه ويحركونه وينقصون ويزيدون... ثم نقل عن سيبويه انهم يبدلون مكان آخر الحروف التي لا تثبت في كلامهم الجيم وذلك نحو كوسه وموزه وبنفشه أي يقولون فيها كوسج وموزج وبنفسج. وهنا كلام مظلم يتخلص من جملته انهم قد يبدلون من هذه الجيم قافاً فيقولون في كوسج كوسق وفي كُربَج كُربَق وفي كيلجة كيلقة. قلنا وربما زادوا ألفاً قبل القاف كما في رُستاق معرَّب رسته وهو نادر.

وجاء في مقدمة ابن خلدون ما نصه بعد كلام ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم. ثم ان الكتّاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء إلى آخر الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله أو بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله. ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في اسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتفِ برسم الحرف الذي يليه فاصطلحت في كتابي هذا على ان أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارىء بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته. وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الاشمام كالصراط في قراءة خَلَف فإن النطق بصاده متوسط بين

الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافاً وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من فوق أو اثنين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف.. ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه عن مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيّرنا لغة القوم. انتهى.

هذه زبدة ما وقفنا عليه من كلامهم في هذا المعنى وسنردفها ان شاء الله بما يعنّ لنا من الايضاح والتفصيل مع ذكر سائر الأحكام التي يسوق إليها البحث للوصول إلى تمام هذا المقصد والله الموفق إلى السداد.

السيارة(*)

هي اللفظة التي اختارها حضرة صديقنا الفاضل أحمد زكي بك الشهير لتعريب كلمة اوتوموبيل وزفها إلى جرائد القطر ومجلاته بغية استعمالها في مكان الكلمة الأعجمية. وقد أكثر كتّاب الجرائد ومكاتبوها من الكلام في هذه اللفظة فمنهم من استحسنها وجرى عليها في كتابته ومنهم من اختار استبدالها بالجوّالة أو الجوّابة أو الدوّارة أو الدوّامة أو.. الخذروف أو المغزل..... ورأينا أمس كلاماً لأحد الأدباء في جريدة المؤيد الغرّاء يقول إنه قرأ في القاموس أي في المعجم الفرنساوي العربي تعريب كلمة اوتوموبيل بعربة سبوح وهو الذي يسبح بيديه في سيره (كذا) إلى غير ذلك مما يطول استقراؤه وبيانه.

ونحن لا نحب ان نتعرض هنا للتفضيل بين هذه الألفاظ ولا كان من رأينا الدخول في هذا البحث لولا ان وردنا من حضرة صديقنا المشار إليه كتاب يتقاضانا فيه ان نقول كلمتنا في هذا الشأن فأقامنا بين أمرين كلاهما علينا عزيز. على انه لا يخفى ان كل واحدة من هذه الكلمات لا

(*) مجلة الضياء، المجلد الثالث (ص ٧٥٦ ـ ٧٥٧).

تؤدي المعنى الوضعي للفظة الأعجمية ولا ذلك مما يمكن في لغتنا لأن هذه اللفظة مركبة من كلمتين كما سبق لنا الكلام في غيرها فلا سبيل إلى التعبير عن مدلولها بلفظة واحدة فضلاً عن ان أوضاع اللغة لا يمكن ان تتناول جميع المعاني ولكن المدار في أكثرها على العُرف والمجاز كما هو معلوم وحينئذٍ فأي لفظة وقع الاختيار عليها وتواطأ الكتّاب على استعمالها بهذا المعنى أدته بلا خلاف ولا التباس. على انه لا بد والحالة هذه من اختيار أقرب الألفاظ إلى المعنى المقصود بحيث يصح نقلها إليه على أقل ما يمكن من التكلف وهذا لا بد لتحقيقه من ان يتولى البحث فيه أناس من ثقات علماء اللغة الواقفين على سرّ وضعها واشتقاقها بحيث يكون لهم فيه الحكم الفصل الذي لا معقّب عليه.

ولا يخفى ان مثل هذا لا يمكن الحصول عليه بواسطة الجرائد اما أولاً فلما في ذلك من تعريض هذا البحث لأن يتناوله من ليس من أهله إذ ليس كل كتابنا عارفين بأسرار اللغة ومعاني الأوضاع فيكثر اللغط على غير فائدة. وأما ثانياً فلأن البحث على هذا الوجه لا يلبث ان يصير مناظرة إذ كل من يبدي في احدى المسائل رأياً ويعلن به في الجريدة لا بد ان يتعصب لرأيه ويودّ تأييده وحينئذٍ يصبح البحث عقيماً بل مضراً لأنه يؤدي إلى ضياع الأمر بتة وذهاب السليم بجريرة السقيم. ولكن إذا كان ثمة نهضة صادقة لتلافي أمر اللغة وسد ما طرأ عليها من الثُلم فالذي عندنا ان الأمر لا يستغني عن تأليف مجمع لغوي يُختار له اناس من جهابذة أهل اللغة والعلم ويوكل إليهم النظر في هذه المسائل فيدور البحث فيها بين جدران المجمع لا على صفحات الجرائد وما يقع الاجماع عليه يُعلَن به في الجرائد أو في كتاب مخصوص ليكون عليه الاستعمال لا ليجري فيه البحث والجدال وإلاّ فليضع كل كاتب ما يتفق له ويُترك الحكم فيه لاختيار ذوي الأقلام وهذا القدر كافٍ في هذا المقام والسلام.

تدوين اللغة العامية(*)

وردتنا نسخة من مقالة لحضرة الاستاذ الفاضل الدكتور مرتين

(*) مجلة الضياء، المجلد الاول (ص ١٤٨ ـ ١٤٩).

هرتمن[11] مدرس اللغـات الشرقيـة في برلين ينتدب فيها الأدباء وأرباب الأقلام في الآفاق العربية للاهتمام بجمع الألفاظ العامية وتقييدها تذرّعاً بذلك إلى الاستدلال على القبائل العربية التي تعدّت حدود جزيرة العرب قديماً واستولت على ما يجاورها من بلاد الروم والعجم. وهذا ولا شك من المقـاصد العلمية الجليلة وقد لا يخلو من دليل تاريخي على ما يتوخاه الاستاذ إذ اللغة أصدق مخبر عن أصول الأمم وانسابها كما ينبىء عن حضارتها وعلومها وأديانها وسائر ما يتعلق بها. وفيما نذكر اننا كنا وقفنا على رسـالة في مثل ذلك لحضرة الفاضل حفني أفندي ناصف تلاها في المجمـع الشرقي في استكهلم ضمّنهـا المقابلة بين لهجات بعض سكان القطر المصري فرد كل قوم إلى عنصرهم من القبائل التي دخلت مصر في زمن الفتح الاسلامي استدلالاً بما بقي في الفاظهم من الأثر المتسلسل إلى هذا العهد.

بيد اننا لا بد ان نصرّح بأن دون الوصول إلى هذه الغاية عقبات قد لا تُجاز بالقياس إلى حالة البلاد الحاضرة منها انك تجد لكل بلد أو قرية بل لكل جانب من البلد الواحد لغة خاصة بأهله فكان ثَمَّ ما لا يحصى من اللهجات التي لا تتسنى الاحاطة بها إلّا بأن يتجرد لها من كل مدينة أو من كل ناحية من يعكف على التقاطها من الأفواه وتدوينها في الصحف وهيهات ان يُظفر بمثل ذلك مع ما هو معلوم من حال الأمة وتخلفها في أكثر أنحاء البلاد حتى في معرفة الكتابة فضلاً عن ان يوجد فيها من يوثق به في صحة التدوين والتمييز بين اللهجات وردّ كل واحدة إلى نصابها. ومنها ان مثل هذا العمل لم يستتبّ في أوربا نفسها مع توفر العلم فيها وامتداده إلّا بأن بسـط أُلو الأمر أيديهم للمساعدة فيه كما ورد بيانه في المقالة المشـار إليهـا فبذلوا له الأموال وأقاموا له لجاناً عينوها تحت رعايتهم وتدبيرهم تبثّ الرسائل في الوجوه وتتلقى الأجوبة وترتبها وتطبعها وأين في بلادنا من يُتوقع منه مثل هذه العناية.

على ان الاستاذ وعد في مقالته ان ينتدب لهذا الأمر بنفسه فيتلقى الرسائل التي ترده من الاقطار العربية فيما عساه ان يُرسل إليه من هذه

الفوائد ويرتبها لتُجمَع أخيراً في مؤلف مخصوص وسيطبع في ذلك اسئلة يبثها في البلاد يضمنها كلمات وجملاً من الفصيح يطلب مرادفها من العامي ويكلف من تُرسل إليه ان يدوّن بجانب كل سؤال جوابه.

فنحن نثني على حضرته ثناء جميلاً لما بذله من الرغبة والاهتمام في خدمة لغتنا والبحث عن تاريخ سلفنا ونأمل في مواطنينا الأعزاء من كل بلد ان يؤازروه في هذا المقصد الحميد العائد شرفه عليهم وبالله التوفيق.

الكتابة العربية(*)

لا يخفى ان العرب كانوا قوماً أُميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة فكانوا يتناقلون أخبارهم واشعارهم حفظاً على ظهر القلب ولم يُعرَف شيء كُتب عندهم قبل المعلّقات ولذلك ذهب من شعرهم شيء كثير ولم يُحفظ منه إلّا ما كان في أواخر عهد الجاهلية وهو ما قيّده علماء الاسلام في الدواوين والدفاتر وأقدمه لا يتجاوز مئة سنة قبل الهجرة. ولعل أول قصيدة كتبت وعُلّقت كانت معلّقة امرىء القيس لأنه اسبق أصحاب المعلقات عهداً وكانت وفاته سنة ٥٣٩ للميلاد إلّا انه لا ينبغي ان يؤخذ من هذا ان الكتابة لم توجد عند العرب إلّا من ذلك العهد بل لا بد انها كانت قبل ذلك بزمان إلّا ان تاريخها مجهول ويقال إن في رومية اليوم كتابة من عهد طراجان في أوائل القرن الثاني للميلاد فيها ذكر ناسخ بالخط العربي.

وكان أول خط عُرف عند العرب الكتابة المعروفة بالمُسند الحميريّ وهي كتابة أهل اليمن لتقدمهم في الحضارة على سائر العرب إلّا انها كانت محصورة فيهم لا يعلّمونها أحداً ولذلك لم تكن معروفة عند سائر القبائل حتى نشأت الكتابة المعروفة بالجزم وهي التي خُطّت بها المعلّقات وكُتِب بها القرآن والحديث وسائر الكتب الاسلامية لذلك العهد. وأما واضع هذه الكتابة فقد اختلفت الروايات فيه قال السيوطي في المزهر والمشهورَ عند أهل العلم ما رواه ابن الكلبي عن عوانة قال أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم مُرامِر بن مُرّة وأسلم بن سدرة وزاد غيره عامر بن جدرة ذكر هذا الأخير صاحب القاموس في (ج د ر) قال وعامر بن جَدَرة محركة أول من

(*) مجلة الضياء، عدد تشرين الأول/اكتوبر ١٩٠٠.

كتب بخطنا قال المرتضى في تاج العروس قال شيخنا وسيأتي له في (م ر ر) ان أول من كتب بالعربية مرامر وجزم به جماعة وتوقف جماعة هل هو خلاف أو يمكن التوفيق. قال وهذه الأولية فيها خلاف طويل الذيل أورده ابن عساكر وغيره. قال صاحب التاج وهذه العبارة مأخوذة من الجمهرة لابن دريد قال فيها أول من كتب بخطنا هذا عامر بن جَدَرة ومرامر بن مرّة الطائيان ثم سعد بن سبل غير ان المصنف أي صاحب القاموس فرّق فذكر كل واحد فيما يناسب ذكره في محله. ا.هـ. وقال صاحب القاموس في (م ر ر) ومُرامر بن مُرّة بضمهما أول من وضع الخط العربي. قال المرتضى قال شرقيّ بن القطامي أول من وضع خطنا هذا رجال من طيّء منهم مرامر بن مرة قال الشاعر:

تعلمتُ باجاداً وآل مرامر وسوّدتُ أثوابي ولستُ بكاتبِ

قال وإنما قال آل مرامر لأنه كان قد سمى كل واحد من أولاده بكلمة من أبجد وهم ثمانية. قال ابن برّي الذي ذكره ابن النحاس وغيره عن المدائني انه مرامر بن مروة قال المدائني أول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من أهل الأنبار ويقال من أهل الحيرة ويقال انه سُئل المهاجرون من أين تعلمتم الخط فقالوا من الحيرة وسُئل أهل الحيرة من أين تعلمتم الخط فقالوا من الأنبار. ا.هـ. ولم يذكر أحد من أولئك اسلم بن سدرة لكن جاء في تاريخ ابن خلّكان في ترجمة ابن البواب ما نصه وروى ابن الكلبي والهيثم بن عديّ ان الناقل لهذه الكتابة من الحيرة إلى الحجاز هو حرب بن أُميّة بن عبد شمس القُرَشي الاموي وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة. وقالا قيل لأبي سفيان بن حرب ممن أخذ أبوك هذه الكتابة فقال من اسلم بن سدرة وقال سألت أسلم ممن أخذت هذه الكتابة فقال من واضعها مرامر بن مرة. ا.هـ. وقال الشيخ أبو النصر الهوريني بعدما ذكر أولئك الثلاثة انهم تعلموه أي الخط من كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام ثم علّموه أهل الأنبار ومنهم انتشرت الكتابة في العراق فتعلمها بشر ابن عبد الملك أخو اكيدر ابن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان له صحبة بحرب بن أمية من قريش لتجارته عندهم في بلاد العراق فتعلم

حرب منه الكتابة ثم سافر معه بشر إلى مكة فتعلم منه جماعة من أهل مكة فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قُبيل الاسلام ولذلك قال رجل كندي من أهل دومة الجندل يمن على قريش بذلك:

لا تجحدوا نعماء بشرٍ عليكمُ فقد كان ميمون النقيبة ازهرا
أتاكم بخطّ الجزم حتى حفظتمُ من المال ما قد كان شتّى مبعثرا
فاجريتم الاقلام عوداً وبداة وضاهيتمُ كتّاب كسرى وقيصرا
واغنيتمُ عن مُسنَد الحيّ حِمْيراً وما كتبت في الصحف أقلام حميرا

ا.هـ. بتصرف قليل. والجزم قال في القاموس هذا الخط المؤلف من حروف المعجم لأنه جُزم اي قُطع عن خط حمير. وقال البطليوسي في شرحه على أدب الكاتب ان الجزم كان اسماً للخط الكوفي قبل وجود الكوفة لكونه جُزم أي اقتطع وولّد من المسند الحميري. ا.هـ. وفي رأي بعض المحققين من علماء الافرنج ان الخط الكوفي أُخذ عن الكتابة السريانية بأدلّة منها المشابهة بينه وبين الحرف السرياني ومنها ترتيب الحروف العربية على حروف أبجد وهو الترتيب السرياني والعبراني ومنها ان مرامر بن مرة كان من أهل الانبار أو من أهل الحيرة وهما من مواطن النساطرة من السريان. وزاد بعضهم على ذلك لفظ مُرامر قال فإن شطره الأول الذي هو مُر يشبه ان يكون سريانياً ومعناه سيدي قال وهو من الألفاظ التي كانت تطلق على القسوس ا.هـ. وعلى هذا يمكن ان يكون أصله مور أمورو أي سيدي المعلّم ثم عُرّب. وذهب قوم منهم إلى ان السرياني هو أصل المسند لأنه أقرب شبهاً به من الكوفي فيكون منقولاً عن المسند والمسند منقولاً عن السرياني. وقيل المسند منقول عن الخط الفينيقي أخذوه عن الفينيقيين حين هاجروا إلى نواحي البلاد العربية فنزلوا بشواطىء البحر الأحمر ولهم على ذلك أدلة نضرب عن ذكرها حب الاختصار.

على أن الكتابة كانت قبل الاسلام شائعة ولا بد بين اليهود والنصارى ولا سيما الكهنة والقسوس منهم لاقامة الصلوات والعبادات وتلاوة الأقوال الكتابية لكن لا يُعلَم بأي صورة كانت لأن العرب كان فيهم كثير من اليهود والسريان والحميريين والحبشة وكان كل فريق من هؤلاء يكتب

بحروف لسانه فلا يبعد ان يكون العرب كانوا يستخدمون كتابة أقوام منهم. ويقال ان وَرَقة بن نوفل وهو أشهر كتبة العرب لزمن الرسول كان يزاول كتابة العربية بالحرف العبري ولا ينافي هذا ما جاء عنه في الأغاني حيث قال وكان يكتب الكتاب العربي فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء ان يكتب فإن العبرة باللفظ لا بصورة الحرف. وشاعت بعد ذلك حروف الجـزم فلبث العرب يكتبون بها ما يزيد على ثلاث مئة سنة وبها كانت تُضرَب السكة لأوائل عهد الدول الاسلامية إلى ان جاء ابن مقلة فكان أول من نقـل الخط الكوفي إلى الصورة المتعارفة اليوم فأُعجب الناس بخطه واستحسنوه وبعد ظهوره أُهملت الكتابة الكوفية وصار الناس يكتبون بقاعدة ابن مقلة. قال ابن خلكان ولما شاهد أبو عُبَيد البكري الاندلسي صاحب التصانيف خط ابن مقلة أنشد:

خطُّ ابن مقلة مَن ارعاهُ مقلتَهُ   ودَّت جوارحهُ لو اصبحت مُقَلا

ثم جاء بعده أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب البغدادي فهذَّب طريقته ونقحها وكساها طلاوة وبهجة وفي خزانة الأزهر اليوم مجلد من خط ابن هلال من أصل الكتب التي وقفها ورثة المرحوم سليمان باشا أباظه على مكتبة الجامع المشار إليه وخطه قلما يُفرَق عن الخط النسخي المتعارَف ليومنا هذا.

وكانت الكتابة في أول الأمر عارية عن الشكل فلما سرى الفساد إلى ألسنة العرب بمخالطة الأعاجم وضع أبو الاسود الدُؤلي أنواع الشكل فقال للكاتب الذي كان يملي عليه إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه وان ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت ذكر ذلك ابن خلكان في ترجمة أبي الأسود وزاد غيره فإن أتبعت ذلك شيئاً من الغُنَّة يعني التنوين فاجعل مكان النقطة نقطتين. وفي ابن خلكـان في ترجمـة الحجـاج حكى أبـو أحمد العسكري في كتاب التصحيف ان الناس عبروا يقرأون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفاً وأربعين سنة إلى ايام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف

وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه وسألهم ان يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النُقَط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها فعبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلّا منقوطاً فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام فكانوا يُتبعون النقط الاعجام فإذا أُغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم توفَ حقوقها اعترى التصحيف فالتمسوا حيلة فلم يقدروا فيها إلّا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين. انتهى. وفي هذا الكلام إبهام لا يخفى فإن المفهوم في الاصطلاح ان الاعجام هو النقط لقولهم الدال المهملة مثلاً لما لا نقط عليها والذال المعجمة للمنقوطة وكذا السين المهملة والشين المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة وهلمَّ جراً. لكن جاء في المصباح اعجمتُ الحرف ازلت عجمته بما يميّزه عن غيره بنقط وشكل فتبين من هذا ان الاعجام يتناول الشكل أيضاً وهو مقصود العسكري. على انه قد مر بك من اصطلاح أبي الأسود انه رمز إلى حركات الحروف بالنُقَط فلعل نصر بن عاصم لما ميز الحروف بالنقط ميز الحركات بعلاماتها المعروفة اليوم لئلا تلتبس علامة الحرف بعلامة الحركة فجعل علامة الضم واواً صغيرة وعلامة الفتح ألفاً كذلك عرضها فوق الحرف وعلامة الكسر نفس علامة الفتح اكتفى بوضعها تحت الحرف فدل بمكانها على لفظها. والظاهر انه تناول هذا الاصطلاح عن السريانية فإنه يُدلّ فيها على الحركات بما يوافقها من الحروف اليونانية ثم مضى على هذا الاصطلاح في سائر العلامات فدل على التشديد بسين مقطوعة يومىء بها إلى الشين من شدة وإلى همزة القطع بعين مقطوعة وإلى علامة الوصل بصاد وإلى علامة المد بألف معروضة مثل علامة الفتح إلّا انها أكبر منها. وهناك علامات أخر اصطلحوا عليها للدلالة على الامالة والنقل والاشمام وغير ذلك من المصطلحات الخاصة بالقراء على نحو ما فعله اليهود في الأسفار العبرية.

بقي هنا التنبيه إلى اختلاف يسير تجده بين مصطلح المشارقة والمغاربة منه في النقط وهو ان المشارقة ينقطون الفاء بنقطة من فوق

والقاف بنقطتين والمغاربة ينقطون الفاء بنقطة من تحت والقاف بنقطة من فوق ومنه في الشكل وهو انه إذا كان الحرف المشدّد مضموماً أو مفتوحاً فالمشارقة يضعون علامة التشديد بين الحرف والحركة والمغاربة يضعون الحركة بين الحرف وعلامة التشديد. ولا يخفى ان هذا الاصطلاح الثاني غير سديد لأن الحركة انما هي للحرف المكرَّر المعبَّر عنه بعلامة التشديد فحقها ان تكون فوق الشدة لتتنزل من التشديد منزلتها من الحرف نفسه كما هو ظاهر والله أعلم.

٣
صحافة

بسم الله المبدىء المعيد(*)

خير ما افتُتحت به الأقوال والأفعال وقُدّم رائداً بين يدي الاعمال والآمال حمد الله جلّ جلاله على ما أنعم واستلهامه الهداية إلى الطريق الأقوم. وبعد فإن خير ما انفق العاقل فيه أيامه علم يتسع به نطاق عقله وأفضل ما اشتغل به العالم السعي في بث منافع العلم وتعميم فضله. إذ هو السُلّم التي تتدرّج بها الأمم في مراتب الارتقاء والمركب الذي يضمن لها الفوز في حلبة تنازع البقاء والركن الذي تتوثق به دعائم الحضارة والعمران، والأُسّ الذي تشاد عليه قواعد الفلاح راسخة البنيان بل هو مجمع أشعة العقول والافهام وتأريخ ما فُتح به على الانسان من تجربة أو إلهام ومستودع ما وعته خزائن الغابرين من كنوز الحقائق عصراً بعد عصر وسجل ما رسمته أقلام الحكمة في لوح اليقين باقياً على وجه الدهر.

وقد خصص الله للعلم في كل زمن رجالاً يقفون في سبيله الاعمار ويصلون في خدمته آناء الليل بأطراف النهار فكانوا مصابيح الظُلَم وهُداة الأمم ورافعي أعلام النجاح وناهجي معالم الفلاح وبهم أدرك العقل أشُدّه وعرف الانسان حدّه وفتحت له الطبيعة خزائن كنوزها وأسرارها وكشفت له عن غوامض رموزها وآثارها حتى أصبح ربّها وقيّمها يسخّرها فيما يشاء ويستخدمها في خلق ما لم تخلق من الأشياء فاتخذ له خيلاً ليست من حيوانها وناراً ليست من جَزْلها وعيدانها واضواء ليست من شمسها وبدرها وماء ليس من سحابها وبحرها بل ربما استمطرها بغير سحاب واصطاد صواعقها برؤوس الحراب وقبض فيها على الخيال فهو سجين لا يطمع في الخلاص وأسر الصوت فقيّده كما تقيّد صوادح الطير في الاقفاص وجسّم ما لا شبح له عند الحسّ فمثّله للأبصار واستشفّ ما وراء الجرم الكثيف فإذا هو ماثل بغير ستار بل ربما استشفّ ما يمرّ بالمخيلة من المعاني والاشباح فقرأه فِقَراً مرقومة أو تمثله صُوَراً مرسومة

(*) مجلة البيان، عدد آذار/مارس ١٨٩٧.

على الألواح إلى غير ذلك مما يطول استقراؤه ويتعذّر احصاؤه.

بيد ان القائمين بأمر العلم لم يبرحوا في كل أُمة نفراً قليلاً وسائر الأمة لا يكاد يدرك منه إلّا أثراً ضئيلاً أو رسماً مُحيلاً. فكان العلم بذلك أبطأ نماء وأقل اتساعاً، وكانت الأمم به أبطأ تقدماً وأقل انتفاعاً إلى ان نهض رجال العلم في هذه الأيام، فعكفوا على بثّ أشعته في سماء الافهام وتقريب مناله على المُريدين حتى صار منهم على طرف الثمام فما عتّموا ان هبت بهم رياح العلم من كل جانب وانتشرت طلائعه في أطراف المشارق والمغارب، وكان منهم الباحث والمصنّف والمستنبط والمستكشف ومن آزر العلماء في اقتداح زناد الفكر ومن جاذبهم أهداب الشهرة وبقاء الذكر ولم يبق يوم لا تتلقى الاسماع فيه خبر اكتشاف جديد أو اختراع مفيد حتى عاد العصر حافلاً بصنوف المعجزات والغرائب وأصبح غرّة العصور بل كان على الحقيقة عصر العجائب.

وغير منكر انه ليس في الذرائع الموصلة إلى سرعة انتشار العلم أعون من هذه المجلات العلمية على أصنافها الموكلة بنشر كل ما يحدث في عالمي العلم بأنحائه والصناعة بأطرافها فانها لم تبرح العامل الأعظم في شيوع المباحث العلمية بين طبقات الناس على العموم وتقريب مداركها على غير المتعلم فضلاً عمن شدا شيئاً من العلوم إذ هي تلقّن العلم أجزاء متفرّقة يتناولها المطالع من أيسر سبيل وتلقي إليه زبدة الحقائق محصلة دون ان تكلفه معاناة التحصيل وذلك مع ما فيها من تنوُّع الأغراض بحيث يجد فيها كل وارد مشرعاً وتشعُّب طرق البحث بما لا يعدم منه كل رائد منجعاً، فهي جليس العالم واستاذ المُريد والموعد الذي يتلاقى فيه المفيد والمستفيد بل هي خطيب العلم في كل ندوة وبريده إلى كل خلوة والمشكاة التي تستصبح بها بصائر أولي الألباب والمنار الذي تأتمّ به المدارك إذا اشتبهت عليها شواكل الصواب.

ولقد كنا ممن عانى هذه الخطة حيناً من الدهر في مجلتنا المسماة بالطبيب فأودعناها كل ما تمثلت لنا فيه فائدة للبيب أو فكاهة للأديب مما لم تبرح الرغبات متواصلة إلينا في استئنافه والحوادث تمنع من تلقي هذا

الطلب بإسعافه إلى ان قُيِّض لنا الطروء إلى هذه الديار فألفينا فيها من انتشار العلوم والآداب ووفرة المؤلفين والكتّاب والمطابع الحافلة بالمصنّفات والجرائد والأسفار الغاصة بالمطالب والفوائد وكثرة المتطلعين إلى المباحث العلمية والعملية والمتشوفين إلى الحقائق العقلية والنقلية والعاكفين على تتبع الاكتشافات والاختراعات واستبطان أسرار العلوم والصناعات ما استنهض هممتنا إلى استئناف تلك الخطة ومعاودة الانتظام في هذه الخدمة فانشأنا هذه المجلة التي دعوناها بالبيان نضمنها من ذلك كل ما فيه تثقيف للأذهان أو تحضيض على الجد في سُبُل العرفان وننشر فيها جميع ما يتصل بنا من مبتكرات هذا العصر الزاهر وما طواه كرور الأيام من حسنات الدهر الغابر خصوصاً ما كان من مآثر الأمة العربية وما لها من الآثار العلمية والأدبية مع إعمال الجهد في احياء لغتها التي هي أفصح ما اختلج به لسان وتدارك ما طرأ عليها من النقص بما اعتوَر أوضاعها من الإهمال والنسيان أو ما خلت عنه من الأوضاع العصرية التي زادت بزيادة مدارك العلم ومطالب العمران. والله المسؤول ان يوفّقنا إلى سلوك محجة السداد وييسر لنا ما نتوخاه من النفع في خدمة الأمة والبلاد ويصرف أقلامنا عما لا تجمل آثاره ولا يحسن في الغابرين تذكاره ويجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وذريعة إلى الفوز بمرضاته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

الجرائد في القطر المصري(*)

من ورد الديار المصرية في هذه الأيام ورأى ان في القاهرة وحدها ما ينيف على خمسين جريدة بين يومية واسبوعية وشهرية وغير ذلك ثم قابل بين حالها اليوم وما كانت عليه من زهاء عشرين سنة حين لم يكن فيها إلّا جريدة واحدة هي الجريدة الرسمية تبين المسافة التي جازها هذا القطر في هذه المدة اليسيرة وما حدث في نفوس أهله من النهضة الأدبية واقبال القراء منهم على المطالعة واقتباس الفوائد من خلال السطور وما نجم فيه

(*) مجلة الضياء، المجلد الأول (ص ٤ ـ ١٢).

لا جرم ان هذا من سريع الانتقال الذي قلّ ان تجد له نظيراً في تواريخ الأمم مما يدلّك على وجود الاستعداد الفطري في الأمة تنزع به إلى قديمها وان عنصر تلك النفوس النبيلة والأذهان النيرة ما زال متسلسلاً في دماء الخلف كامناً في طبائعهم متأهباً للظهور إذا صادف ما ينبهه كالنار تظهر عند الاقتداح. بيد انك إذا تفقدت تلك الجرائد وجدت أكثرها بعيداً عن المنزع الذي تقتضيه حالة القطر غير متلقٍّ تلك النهضة بما يرفع الأمة من كبوتها ويقتادها في الوجهة التي هي طريق سعادتها وفلاحها لأن أكثرها على تعدّد نزعاتها واختلاف مذاهبها لا خطة لها إلَّا أحاديث السياسة ومزاعم أربابها تتلو على القراء في هذا القطر ما يُتحدَّث به في مجالس لندرا وبرلين وما يتخرص به سياسيو باريز وبطرسبرج وتقصّ عليهم تفاصيل المواقع الحربية بين الصين واليابان وشروط الصلح بين اسبانيا والولايات المتحدة إلى غير ذلك مما لا يهم المصري في حالته الحاضرة الوقوف على شيء منه ولا هو في شيء من حاجاته ومصالحه فضلاً عن ان هذه المباحث إنما هي من غايات المدنية لا من مبادئها وانما تتلقاها الأمة بعد ان تستوفي قسطها من ضروريات العلم وتستعد لفهم ما يُلقى إليها من ذلك بعد معرفة المقدمات التي تفيد تصوّره. ويا ليت شعري ما الذي يقع في ذهن العامي من مكاشفته بأسرار الممالك وسياسات الدول وأفكار الوزراء والقوّاد وهو لم يسمع من أمر تلك الممالك إلَّا بأسمائها ولم يقف على شيء من تواريخها وسائر أحوالها وكيف يستطيع ان يتمثل وقائع حرب بين أمتين وهو لا يعلم موقع بلادهما من الأرض وإذا سردت عليه اسماء بعض الأماكن التي حدثت فيها تلك الوقائع لم يعلم في أي البلادين هي وهل هي اسماء ثغور أم جزر أم سفن أم قوّاد.

ثم على تسليم ان ذلك كله سائغ وان المقصود به الفئة المتنورة من الأمة وهي أقل من القليل فما الداعي إلى وجود عشرات من الجرائد تكرّر الخبر الواحد مع وحدة المشتركين في أكثرها على ما هو معلوم وأيّ منفّر للذوق وداعٍ لكساد الصحف وسقوط الرغبة في مطالعتها أعظم من ان يرى المطالع الخبر الواحد في جريدتين او ثلاث أو خمس وكثيراً ما يكون

ذلك الخبر بالعبارة الواحدة لأنه في جميعهن معرَّب عن جرائد الأجانب حتى ما يتعلّق بسياسة القطر نفسه.. ولا نقول ذلك على جهة التنديد بجرائدنا ولا كتّابنا ملومون فيه لما هو معلوم من بُعد مواقفهم عن المراكز السياسية بل خروج البلاد بأسرها عن معترك أهل السياسة العامة والخاصة والقضاء عليها بأن تكون تبعاً لما يراد بها لا لما تريد.. بل في أوربا نفسها لا تجد من أقطاب السياسة في أصحاب الجرائد وغيرهم إلّا نفراً معدودين ممن ترشحوا لها ونشأوا على دراستها وانفقوا أيامهم في مخالطة أهلها والوقوف على أبواب مجالسها مع تلقُّن أسرارها من دهاقنتها وأصحاب العقد والحل فيها ولذا ترى كلمة الجريدة المعتبرة منها يرن صداها في مسامع كبراء الأرض وأعاظم ملوكها ووزرائها لعلمهم بأنها صادرة من مقام هو وراء مقام كاتبها وأسمى منه كثيراً. فما الذي يبلغ إليه كتّابنا من مثل ذلك وما عسى ان يكون علم السياسي منا ورأيه وهذه أخبار النظارات وهي بين ظهرانيهم لا يكادون يتعلقون بالنبأ التافه منها إلّا استراقاً أو استشفافاً من وراء حجاب وهذه أخبار مواقع السودان وهي متصلة بمصر وفيها جيش مصر وأموالها تتناولها جرائدنا عن جرائد انكلترا أو غيرها فلا تصلها إلّا بعد ان تقطع البر وتخوض البحر وتأتيها عن طريق هو أبعد من السودان بمراحل. فإذا كان هذا الشأن في السياسة الخاصة وأخبار وقائع القطر وما جاوره وهي تهم كل فرد من أفراده فما الظن بسياسات الدول العظام والممالك القصيّة وأي مجال لنا فيما ينوي منها سياسيّو أوربا وما يقدّرونه من تصريفها في أنحاء المعمور وما يخططونه منها للمستقبل وفي بعيد الأقطار.

ثم أين نصيب العاميّ من تلك الجرائد وعليه أكثر رواجها وحزبه هو العدد الأكثر من مشتركيها وهل يكتفي منها بما تسرده بعد ذلك من خبر زفاف أو نعيّ وما يقع في البلاد من قتل أو سرقة وما يتوخاه الكاتب أو المكاتب من اطراء بعض ذوي الشأن لغرض في النفس أو الوشاية ببعض المستخدمين حقّاً أو زوراً أو الاعلان بنقل حانوت فلان وضياع ختم فلان أو ما أُولع به بعض تلك الجرائد من نفث سموم التعصب والشقاق.. أين

الكلام فيما ينمي ثروة البلاد والبحث فيما تُصلَح به عناصر تربتها ويزكو ما فيهـا من زرع وضرع ومتى رأينا فيها حضّاً على احياء الصنائع أو كلاماً في بعض فروعها أو ترغيباً للمتمولين في إنشاء المعامل والاستغناء بها عن المصنوعات الأجنبية. ثم أين الفصول المطوّلة في تهذيب أخلاق العامة واصلاح آدابها وعوائدها على كثرة ما فيها من المفاسد والموبقات والتنبيـه على ما ألفته من سوء التربية الحسية والمعنوية مما فشت به العاهات والآفات وتفاقمت الرذائل والمنكرات ومن تصدّى لتنوير أذهانها بما يكشف عن بصائرها ظلمات الأوهام والأضاليل وما رسخ في عقولها من الخرافات والأباطيل التي يتناولها الخلف عن السلف حتى صارت كالحيوان الأعجم أو أضلّ سبيلاً.

لكنك تجد كل ما هناك من الخلل في أحوال الأمة والفساد في أخلاقها وآدابها مسكوتاً عنه لا تكاد تذكره الجرائد إلّا عندما تلطخ وجوهها بشيء من سيئات بعض الجهلة وما يجري على أيديهم من المنكرات والفظائع ثم لا تجري له من بعد ذكراً ولا تتنبه لشيء تُدخله على نفوس قرّائها وتدعوهم للتنبُّه إليه والتضافر عليه سوى ما أومأنا إليه قبلُ من الطامة التي سال سيلها في البلاد وامتدت بها أعراق الشرّ والفساد ألا وهي ما أُولع به بعض الصحف الحـاليـة من دسّ روح الشقاق في صدور الأمة وايقاد نيران التعصب الديني الذي هو احدى آفات الشرق بل أعظم أسباب ما لحق به من الدمار والاضمحلال ومنبع ما انبثق عليه من الشؤم والوبال كأن تلك الصحف لم تجد في ما ذكرناه من المفاسد المحيقة بالبلاد ما هو حقيق بأن تتداركه بالتعديل والاصلاح سوى هذه المصافاة بين القلوب ترميها بالمنافرة والشقاق وهذه الهوادة في الدين تبدلها بالتعصب والتحمس على ما بين القـوم من التلازم والجوار وعلى ما ببعضهم من الجهل والتهوُّر وأنهم ليس عندهم من معرفة حدود الدين والائتمار بأوامر العقل ما يقف بهم عنـد حدّ الرفق والاعتدال وكأنها لا ترى في كل ما ناب البلاد من التأخر والوهن والتهافت في دركات الخمول والهوان والانغماس في ردغات الذلّ والفقر مصرفاً لتلك الأقلام عن هذا السبيل الذي يزيد الأمة على

وهنها وهناً ويفتّ في اعضاد جامعتها ويوهن ركن اتحادها ويفصم عروة اجتماعها ويقذفها في هوّة الخراب. فدست هذه الآفة في صدور السواد الكبير من أهل هذه الديار على كونهم من سنوات قلائل وبعبارة أخرى من قبل انتشار تلك الجرائد بينهم كانوا غافلين عن هذه المفسدة لا يعرف أحدهم إلاَّ ما يعالجه من تربة ويبذره من زرع ويربيه من حيوان ويأوي إليه من مسكن وعيال ويرى جاره فلا يتوهم فيه إلاَّ الأنس والمصافاة والتعاون على الدهر حتى جاءهم من حرّك فيهم ذلك الساكن ثم لم يزل به يوماً بعد يوم وشهراً اثر شهر حتى عصف إعصاره في القلوب وثار غباره في العيون فأظلم به الجو بين الرجل وجاره وتقارض القوم بينهم النظر الشزر واستحكم بينهم الشنآن على غير جناية ولا اثم وأصبح لبعضهم عند البعض ثارات لا يعلمون ما هي وان شعروا منها بحزازات لا تُشفى وجراح لا تبرأ.

ومعلوم ان للجرائد أثبت تأثير في نفوس قرّائها لأنها الجليس الدائم والعشير الملازم يقرأها الرجل في ناديه ويأنس بها في خلوته ويختلف إليها في أوقات فراغه ويتكرر عليه حديثها في كل يوم حتى تنطبع حروفها في مخيلته وترتسم ألفاظها على أسلة لسانه فإذا تكلم نطق بما تتلو عليه وإذا تناجت خواطره لم يمر بها إلاَّ ما تلقن من أقوالها إلى ان تنتقش خطتها في صفحة اعتقاده ويسترسل إليها برأيه وهواه ولا سيما إذا لم يسبق إليه من العلم ما يزاحم آراءها ولم يكن بين يديه ما ينصرف إلى تلاوته دونها بحيث تكون هي المورد الوحيد الذي تستمد منه بصيرته فإن ما يرد عليه منها يمتزج باجزاء نفسه ويرسخ فيه رسوخ طباعه حتى يصير من الضروريات التي لا تقبل الزوال ولا تعترضها الشبهات.

وهذا الذي ذكرناه هو الغالب على أهل هذا القطر لما انهم قوم غالبهم على الفطرة لم يقفوا على شيء من أحوال الأمم وسياساتها وآدابها الاجتماعية فإذا وقع إلى أحدهم حديث احدى الجرائد كان ذلك أول ما يخرج إليه من المباحث المتداولة بين أهل طبقات المجتمع ولخلوّه من أداة الحكم في صحة ما يُلقى إليه مع اعتقاده العلم والاخلاص في كاتب

الجريدة لا يتوقف عن الاسترسال إلى ما يتلوه فيها من غير ان يتطرّق إليه أدنى ريب وحينئذٍ فمن البديهي ان ما انطوت عليه تلك الجريدة ان كان خيراً ثبت ذلك الخير في طبائع قارئيها واقتبسته ملكاتهم وتمثلت صورته في نفوسهم وأخلاقهم وأفعالهم فكانوا محلًّا للخير وقدوة له بين مواطنيهم وأهل طبقتهم وإلَّا كانت هي الشرّ المحض والبلاء الفاشي تقذف بمريديها في مهاوي الشر وتقتادهم في شعاب الغيّ والضلال وكانت كالجرب في الأمة يعدي بعضها بعضاً. فليراقب كتّابنا الله فيما يملون على الأمة وليعلموا ان ما يخطّونه في خلواتهم إنما يجرون به أقلامهم على صفحات قلوب تنطبع فيها كلماتهم بحروف لا تُمحى فليكن ما يطبعونه فيها للخير وليكونوا من هداة الأمة إلى الصلاح ليحسن أثرهم فيها ولا تلزمهم تبعتها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وزد على ذلك ما تراه في بعض صفحات الجرائد عندنا من المثالب الشخصية والوقوع في الأعراض والتطاول على الاحساب والخروج إلى الشتم والبذاء مما يفسد الأخلاق ويودي بالآداب ويهتك حجاب الحشمة ويجرّىء الاغرار والسفهاء على مقامات كبراء الناس وذوي الحرمات منهم ومعلوم ان الجرائد انما وُضعت لتكون خادمة لمصلحة الجمهور لا لمآرب أصحابها وإنما يشترك فيها المشترك لفائدة يتناولها أو أدب يستمدّه لا ليتخذها نسخة للمعايب والنقائص ولا ليكون مشايعاً لكاتبها في اهوائه يجتذبه حيث شاء وشاءت أغراضه وإنما ذلك باب من أبواب التغرير والتدليس فضلاً عن كونه مضرّاً بالجرائد عامة صادّاً للقراء عن اقتباس ما فيها من الفوائد بما يبعث في نفوسهم من النفور عنها والاعراض عن مطالعتها فتبور بذلك المصلحة المقصودة منها وفضلاً عما فيه من اسقاط حرمة هذه الخطة الشريفة التي من أخص مزاياها ان تكون قيّمة على الآداب العمومية ذائدة عن الاحساب والاعراض كما انها قيّمة على الأحكام ذائدة عن المصالح والحقوق. بل لا جرَم ان مثل هذه الصحف تُعدُّ لطخة عار على الأمة بأسرها لما لا يخفى من ان الجرائد عند كل قوم تُتخذ عنواناً على منزلتهم من العلوم والآداب والأخلاق والعادات لأنها

المرآة التي تتجلى فيها صور هذه المعاني كلها وتتمثل بها درجة الكاتب والقارئ جميعاً لأن الكاتب إنما يكتب على مكانة علمه وذوقه وإنما يختار من المباحث ما يعلم انه يقع من قارئه موقعاً مقبولاً وإلاَّ سقطت جريدته من نفسها فقُضي عليها بالاهمال.

ولا نذكر هنا الجرائد التي نزعت عن هذه المناحي كلها إلى ما لا يُعرَف له منحى من الخلط والهذيان والتكلم بألفاظ السكارى والحشاشين مما لم يسبق له ضريب في شيء من بلاد الله ولا سمع ان مثل هذا الكلام مما يُكتب ويُطبع ويُنشر وتباع الألوف منه في كل اسبوع إلاَّ في هذه البلاد بلاد الغرائب إلاَّ انها على كل حال أقلّ شرّاً من بعض الجرائد التي مرّت الاشارة إليها وان كانت خالية من المنافع.

والحاصل ان الجرائد بما هي عليه من كثرة الانتشار والتداول بين أيدي القرّاء وتواصل ظهورها على الأيام تُعدُّ من أعظم العوامل وأثبتها أثراً في أخلاق المجتمع وعوائده ومعارفه وطبقات مداركه حتى في لغته ووجوه التعبير عنده لأنها بتكرارها على الذهن واللسان ترسخ عبارتها في ملكة قارئها كما ترسخ خطتها المعنوية في معتقده حتى انه إذا رام الكتابة نزع بها إلى اسلوب الجريدة التي ألف مطالعتها وربما قلّدها عن غير قصد. بل قد رأينا أصحاب الجرائد أنفسهم لكثرة ما يطالع بعضهم جرائد بعض قد تعاوروا أنفاسهم بينهم وقلد بعضهم بعضاً حتى في اللحن والخطاء بحيث لا تكاد تجد كلمة محدثة أو تركيباً جديداً في واحدة من تلك الجرائد إلاَّ تجده بعد أيام قد انتشر في سائرها وأُلحق بتعابيرها الخاصة مما أصبحت فيه تلك الجرائد في كثير من ألفاظها واصطلاحاتها لغة بحالها وانتشر كثير من ألفاظها على ألسنة العامّة فيما يخوضون فيه من مباحثها. وهذا لا ريب من جملة الآفات التي ينبغي تلافيها لعموم البلوى بها وسنذكر من ذلك الشيء بعد الشيء فيما يأتي من أجزاء هذه المجلة ان شاء الله.

على اننا لا نعمم القول في شيء مما ذكرناه في هذه المقالة فإن بين كتّاب جرائدنا من الأفاضل ورجال العلم والاخلاص من يرتفع بهم قدر

الصحف ويحق الانتفاع بمسطورهم لولا ان فيهم قوماً من المتطفلين على مقامها العائثين في الأمة بفساد آدابهم وزيغ خطتهم ممن كدروا مشربها وأسقطوا منزلتها وكانوا عقبة في طريق نفوذها وعلوّ كلمتها. ولقد سرّنا وايم الله ما انتشر في جرائد هذه الأيام من ان الحكومة عندنا تنوي سنّ قانون للمطبوعات يتناول الجرائد على الخصوص ويقيّد أقلام العابثين بشرفها وآداب الأمة ولا ريب ان التقييد في مثل هذا المقام خير من الحرية فعسى ان تتمحض بعد ذلك للخير وتعتصب على ما يرفع شأنها بين القراء وفي عيون الحكومة نفسها فلا تكون مهملة كما هي ليومنا الحاضر والله الهادي إلى السبيل السواء.

المجاز[١٢]

هو البحث الذي كنا وعدنا به في الكلام على التعريب نورده في هذا الموضع وفاء بالوعد واجابة لما لم يزل يتواتر إلينا من رسائل الأدباء في تقاضيه وهو تتمة كلامنا فيما تقدم لنا في مجلة البيان تحت عنوان اللغة والعصر نعود فيه على ذلك البدء ولو تأخر موعده والأمور مرهونة بأوقاتها.

وقد قدّمنا هناك أن طرق الوضع يمكن ان تنحصر في ثلاث وهي الارتجال والاشتقاق والمجاز وقد مضى القول في الأولين وأما المجاز فالمراد به هنا المجاز اللغوي وهو المجاز في المفرد ويدخل تحته الاستعارة والمجاز المُرسل وفي كلا هذين كلام طويل نقتصر منه على ما يتعلق بغرضنا في هذا المقام.

فأما الاستعارة فهي ان يُستعمَل في الشيء لفظ شبيهه. واللفظ المستعار قد يكون اسماً لذات كما يسمى البياض الذي يغشى سواد العين بالكوكب أُطلق عليه لفظ الكوكب لما بينهما من الشبه في الهيئة. وقد يكون شيئاً من لوازم الذات اما جزءاً منها كتسمية الطُنُف الذي يُشرع خارجاً عن البناء بالجناح تشبيهاً له بجناح الطائر إذا بسطه في الهواء. واما معنى من المعاني المختصة بها نحو نطقت الحال بكذا أي دلّت عليه فإنه على تشبيه الدلالة بالنطق في الابانة والوضوح.

ثم الجزء المستعار قد يكون هو المقصود بالتشبيه كالجناح في المثال

فإن المراد منه تشبيه الطنف نفسه بجناح الطائر من غير نظر إلى الطائر ولا إلى ما اتصل به الطنف من البناء فهو من الاستعارة التحقيقية كما سيجيء لتحقق ما استغير له بحيث يجوز تضور كل من المشبّه والمشبه به مجرّداً عما اتصل به وليس من الاستعارة المكنية في شيء إذ لا معنى لتشبيه البناء بالطائر كما لا يخفى. وقد يُذهَب به إلى تشبيه ما أُثبت ذلك الجزء له بالذات التي هو مُنتزَع منها كقولهم فلان على جناح السفر إذا كان متأهباً له فإن المقصود من اثبات الجناح للسفر تشبيه السفر بالطائر في سرعة المزايلة لا تشبيه شيء من السفر بالجناح كما هو ظاهر فهو من الاستعارة التخييلية وفي السفر استعارة بالكناية.

والضابط في كون الجزء مستعاراً بنفسه أو قرينة على الاستعارة فيما يليه انه ان كان وجه الشَبَه حسّياً كما في جناح الدار فالجزء هو المستعار وما يليه قرينة على المجاز وان كان عقلياً كما في جناح السفر فالاستعارة فيما أُثبت له ولا مجاز في الجزء نفسه على الصحيح.

وأما ما كان المستعار فيه أحد المعاني المختصة بالمشبه به مثل النطق من قولنا نطقت الحال بكذا أي دلّت عليه فإنه يجمع الطرفين لأنه لا يخلو من وجود مشبَّه بإزائه من لوازم المستعار له كالدلالة فيما ذُكر فهو من الاستعارة التحقيقية. وهو مع ذلك يُثبَت لغير ما هو له كالحال في المثال فهو قرينة على الاستعارة فيما أُثبت له وهو ما يتناول من مذهب المحققين.

فتحصَّل من ذلك ان الاستعارة في الجملة على ضربين أحدهما ما يُذكر فيه لفظ المشبَّه به ويُترَك لفظ المشبه كما في استعارة الكوكب للبياض في العين ويقال لها الاستعارة المصرَّحة للتصريح فيها بلفظ المستعار منه. والثاني ما يُذكَر فيه لفظ المشبّه ويُترك لفظ المشبه به لكن يُكنَى عنه باثبات شيء من لوازمه للمشبَّه كما في استعارة الطائر للسفر في المثال المتقدم فإن الطائر لا ذكر له في اللفظ ولكن كُني عنه بإثبات الجناح الذي هو من لوازمه للسفر وتسمى الاستعارة بالكناية أو المكنيّة. ثم المشبه إما ان يكون من الأمور المتحققة أي التي يمكن تصورها والنص عليها كما في المثال الأول فتسمى الاستعارة تحقيقية وإما ان يكون لا حقيقة له كما في

المثال الثاني إذ لا شيء في السفر يمكن تشبيهه بالجناح كما تقدم وإنما ذُكر ليستفاد منه تشبيه السفر بالطائر على سبيل التخييل ويسمى اثبات هذا اللازم استعارة تخييلية. والمراد من كلتا الاستعارتين واحد وهو دعوى ان المشبه من جنس المشبه به إلاّ ان المكنية ولا شك أبلغ من المصرحة لأن قولك مثلاً رأيت رجلاً يفترس الأبطال أقوى في معنى الشبه من قولك رأيت أسداً يرمي النبال وان كان الحاصل من كلتيهما واحداً لأن الافتراس يقتضي الأسديّة فهي مفهومة ضمناً وقد زيد عليها الافتراس الذي هو من لوازمها فكانت كالدعوى ببيّنة. ومن هنا يُعلَم انه كلما كان اللازم في المكنيّة أخصّ بالمشبه به كانت الاستعارة أبلغ ولذلك كانت استعارة الجزء أبلغ من استعارة اللازم المعنوي. ولهذا المعنى فكثيراً ما يصرَّح بذكر الجزء مع ذكر اللازم فيقال في نطقت الحال نطق لسان الحال لأن اللسان أظهر في التشخيص إذ هو آلة النطق وجزء من أجزاء المشبَّه به ومثله قولك ركب فلان الباطل وركب متن الباطل وشحذ رأيه وشحذ غِرار رأيه وقس على ذلك ما اشبهه. وربما صُرّح بالذات المشبَّه بها رأساً فيقال نطق خطيب الحال مثلاً وركب فلان مطيّة الباطل وشحذ سيف رأيه وحينئذٍ فلا استعارة في الذات على الأصح وإنما هو ضرب من التشبيه المؤكد وهو الذي حُذفت أداته وأضيف فيه المشبه به إلى المشبه على حد لُجَين الماء وما جرى مجراه. وهذا كثير مستفيض في الاستعمال كقولك أجلتُ الرأي وأجلتُ قداح الرأي وانبتَّ شملهم وانبتَّ حبل شملهم وطويت الحديث وطويت بساط الحديث وأضرم الشر بينهم واضرم نار الشر واستصبحتُ بعلم فلان واستصبحت بنبراس علمه إلى ما أشبه ذلك.

واعلم ان الاستعارة من أدق أبواب البيان مأخذاً وأكثرها تفصيلاً بل لا يُبعد كثيراً من قال هي البيان كله. وللقوم في ضروبها ومناحيها وتحقيق أنواعها ولا سيما الاستعارة التخييلية منها ما تَسدَر من دونه البصائر وتكبو في مجاله جياد الخواطر ولذلك وقفنا فيها عند التقسيم الذي مر بك ولعله أقرب تناولاً وأوضح سبيلاً فضلاً عما فيه من استيعاب ما لم يتعرضوا له والله ملهم السداد.

أما الغرض من الاستعارة فحاصل ما يؤخذ من كلامهم انه ينحصر في ثلاثة أوجه أحدها المبالغة في وصف المشبَّه بالمعنى الذي اشترك فيه طرفا التشبيه كما في استعارة الأسد للرجل فإنها تتضمن الحاقه بجنس الاسود حتى صار كأنه واحد منها وهي غاية ما يمكن بلوغه في الوصف بالشجاعة. والثاني الزيادة في ايضاح المعنى بنقله من الصورة العقلية إلى صورة حسيّة كما في استعارة النطق للدلالة واثبات الجناح للسفر فإن فيهما من إبراز الدلالة العقلية في صورة اللفظ المسموع وتمثيل السفر بصورة ذي الجناح ما يزيد المعنى قوة وظهوراً. والثالث الاكثار من الألفاظ المترادفة تبسطاً في اللغة واسترسالاً في طرق التعبير وذلك كما تسمى الخوذة التي تُلبَس على الرأس بالبيضة وكما تسمى بالتريكة وهي بيضة النعام بعد ان يخرج منها الفرخ بجامع ما بين الطرفين من الشَبَه في الهيئة. وليس شيء من ذلك يصلح لغرضنا في هذا المقام لأن الوجهين الأولين يُقصَد بهما المبالغة في تصوير المعنى لا التعبير عنه باللفظ الموضوع له وبعبارة أخرى تأدية المعنى بلفظ أقوى دلالة من لفظه الوضعيّ فحاصل كليهما المعاورة بين ألفاظ موضوعة بعضها أقوى من بعض. والوجه الثالث مقصور على تعدّد الوضع في المعنى الواحد ففائدته تكثير الألفاظ على غير زيادة في مدلولاتها. ولا يخفى ان كل ذلك إنما هو من غرض البيانيّ دون اللغوي ومما يتوخاه الشاعر ومن في معناه لا الكاتب الذي يتطلب لكل معنى لفظه المخصوص به. وبقي هناك وجه رابع لم نجد من تعرّض له وهو التذرع إلى الوضع فيما لم يوضع له لفظ كما مر من تسمية البياض في العين بالكوكب فإن هذا البياض لم يوضع له اسم في اللغة فاستعير له لفظ الكوكب لما بين الطرفين من الشبه. وهذا هو المقصود من بحثنا في هذا الموضع لأن غرضنا الوصول إلى استنباط ألفاظ للمعاني التي طرأت بعد الوضع الأول وهو أحد طريقي العرب في توسيع لغتها بحيث ان ما لم يتهيأ لها تناوله من طريق الاشتقاق على ما تقدم ذكره في البحث السابق أخذته بالنقل من طريق المجاز وهو اشتقاق معنوي كما لا يخفى.

إذا تقـرر هذا عُلم منـــه ان الذي يصلح لما نحن فيـه الاستعـارة التحقيقية دون التخييلية والذي يصلح من الأولى ما كان وجه الشبه فيها يفيد تصوير المعنى بصورة تمثله للذهن على حقيقته أو ما يقرب منها لا ابرازه في صورة تعظّمه في الخيال وبعبارة أخرى ما كانت زيادة قوته في المشبه به على المشبه من حيث الوضوح لا من حيث المقدار. وذلك كما في استعارة الكوكب للبياض في العين فإن المقصود منها مجرّد المناسبة في الشكل إذ كل منهما نقطة بيضاء يحيط بها سواد إلاَّ ان هذه الهيئة في النجم أوضح وأشهر. والمراد بالتخييلية فيما ذُكر ما كانت فائدتها مجرَّد التخييل مثل جناح السفر فإن الجناح لم يشبَّه به شيء وإنما قُصد به تخييل ان السفر مشبه بالطائر فهو لا فائدة له في نفسه ولكن فائدته في غيره كما لا يخفى. وأما إن كان التخييل بشيء قد استُعير استعارة حقيقية مثـل نطقت الحـال فيكـون بحسب فائدة التحقيقية فإن أفادت مجرّد المبالغة مثل استعارة النطق للدلالة لم تكن من غرضنا أيضاً وإلاَّ اعتبرت الفـائـدة في اللازم وحـده وكان التخييل أمراً خارجياً. وأما الاستعارة بالكناية فلا كلام في انها لا تصلح لشيء مما نحن فيه لأن المدار هنا على استنباط لفظ للمشبَّه وهو مذكور فيها صريحاً لما علمت من ان الذي يُذكر فيها هو المشبه لا المشبَّه به فهي ليست من الاستعارة في شيء وإنما يُطلَق عليها لفظ الاستعارة توسعاً.

ولما كان المقصود من هذا البحث وضع ألفاظ لمعان لم يوضع لها لفظ في اللغة بحيث تكون تلك الألفاظ عرضة للاستعمال كلما احتيج إلى التعبير عن مدلولاتها لزم ولا بد ان تُلحق بأصل اللغة وتُستعمل استعمال الألفاظ المـوضـوعـة. ومتى صار اللفظ بهذه المنزلة واشتهر استعماله بالمعنى المجازي عُدّ حقيقة عُرفية وتنزّل من المعنى الحقيقي منزلة اللفظ المشترك وإذ ذاك يكون احتياجه إلى القرينة لمجرَّد التمييز بين معنى ومعنى كما تحتاج بقية المعاني معه لا لمنع ارادة المعنى الحقيقي كما يكون في سائر أنواع المجاز. وأكثر ما تجد هذا النوع من الألفاظ مما كان وجه الشبه فيه حسّيّاً لظهور العلاقة فيه وبداهة وجه الشبه بحيث يتبادر معناه المجازي

إلى الذهن ويـزاحم فيـه المعنى الحقيقي. وهـو إمـا ان يكـون الهيئة المشخَّصـة لذات الشيء كما في استعارة الكوكب فيما ذُكر وكما يسمى غضروف الأذن بالمحـارة أي الصدفة لمشابهته لها في الشكل ويقال له الصـدفـة أيضـاً وكتسميتهم الهُنَيّـة النـاشـزة في مقدَّم الاذن بالوتد واللحمتين المتدليتين في جانبي الحلق باللوزتين والبياض الذي في أصول الاظفار بالهلال وداخل الفم بالغار وهو الكهف واستعمالهم الماء للسيف والمرآة ونحوهما بمعنى ما فيهما من البريق والصفاء وكما تسمى العقدة في طرف السوط بالثمرة والخط المستطيل من الرمل بالحبل إلى غير ذلك.

واما ان يكون الصورة المشخَّصة للجزء من الذات كما يسمى طرف المرفق بالزُّجّ وهو الحديدة في طرف الرمح ومقدَّم السفينة بالجؤجؤ وهو الصـدر وخصَّـه بعضهم بصدر الطائر وهو أتمّ شبهاً. وكقولهم ذؤابة الرحل للجلدة المعلقة على آخرته وكذا ذؤابة النعل وهي ما أصاب الأرض من المرسل على القدم وكلتاهما من الذؤابة بمعنى الناصية وكما يقال فم القربة لمنفتَحها وكذا فم البئر والوادي وغيرهما وكقولهم شفة الكأس وعنق الابريق ويد الرحى والفأس وساق الشجرة وإبط الوادي ولعاب الخطميّ وغير ذلك وهو باب واسع. وقد علمت ان المقصود من ذلك كله التشبيه بالأشياء المذكورة لذاتها غير منظور إلى الذات التي هي أجزاء لها على ما بيّناه في جناح الدار وان جاز ذلك في بعضها اتفاقاً. وذلك ان قولهم فم البئر مثلاً ليس المراد منه تشبيه البئر بالحيوان إذ لا وجه لهذا التشبيه وكذا قولهم يد الفأس وذؤابة النعل لا يراد منه تشبيه الفأس بالانسان والنعل بالرأس وهلمّ جرّاً بخلاف قولك لسان الحال ومتن الباطل وجناح السفر على ما قدّمنا بيانه.

وأما اللوازم المعنوية والمراد بها المصادر وما يُشتق منها فقد يكون وجه الشبـه فيها حسيّاً كقولهم نبض البرق إذا لمع خفيفاً أُخذ من نبضان العِرق إذا تحرَّك وضرب والجامع بينهما الهيئة المحسوسة من كليهما وان اختلفت الحاسة. وكقولهم سبح الفرس إذا مدّ يديه في الجري تشبيهاً له بفعل السابح في الماء. ورنَّقت السفينة إذا دارت في موضع واحد لا تمضي

من ترنيق الطائر وهو ان يخفق بجناحيه ويرفرف ولا يطير. وخطر الرجل في مشيته إذا رفع يديه ووضعهما من خطران البعير بذنبه إذا ضرب به يميناً وشمالاً. ويقال أيضاً خطر بسيفه أو رمحه إذا رفعه مرة ووضعه أخرى وهو مجاز المجاز. وقد يكون عقلياً نحو سرد الحديث إذا أجاد سياقته مأخوذ من سرد الدرع وهو نسجها واستنبط المعنى أي أظهره من استنبط ماء البئر إذا استخرجه وأغضى عن الذنب أي تغافل عنه وهو من اغضاء الجفن ووعيتُ الحديث أي عقلته وحفظته من وعى الشيء في الظرف إذا جمعه فيه وهو كثير في اللغة بل أكثر اللغة يرجع إليه.

وكثيراً ما تجد في هذه الألفاظ ما يلتبس عليك فيه تمييز المعنى الحقيقي من المجازي كالجوالح لما تطاير من رؤوس القصب والبرديّ شبه القطن ولقِطَع الثلج المتهافتة من الجو وكالكمام والكمامة لغلاف النَوْر ولما يُشدّ على فم البعير وغيره لئلا يعضّ والدرع لما يُلبَس من الزرد ولثوب المرأة والعجاج للغبار وللدخان ومثله العُثان والعُكاب. وكقولهم جاش البحر إذا اضطرب وجاشت القِدر إذا غلت وحَذَق الخلُّ فاه أي حمزهُ والرباطُ يدَ الشاة أثر فيها وحشكت الناقة لبنها جمعته والسحابة كثر ماؤها وبزل الدنَّ ثقبه ونابُ البعير طلع. والأمثلة من كل ذلك في اللغة لا تُحصى وفي القدر الذي ذكرناه كفاية للمستبصر.

٤ شعر

الشعر(*)

عرّف العروضيون الشعر بأنه الكلام الموزون المقفّى وقيل هو كلام موزون على قصد مرتبط بمعنى وقافية. فخرج بالموزون النثر والاسجاع وبالقصد ما ورد في القرآن الكريم وغيره من الفقر الموزونة نحو ان كيد الشيطان كان ضعيفاً وبالمرتبط بمعنى ما لا معنى له من الموزون كقول القائل:

كاننا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماءُ

على ان هذا قد خرج بقولهم كلام لان ما لا معنى له لا يُعدّ كلاماً. وخرج بالقافية ما كان موزوناً بمعنى دون قافية كقول الآخر:

رُبَّ اخٍ كنتُ بهِ مغتبطاً أشدُّ كفّي بعُرى صحبتهِ
تمسكاً مني بالودّ ولا احسبهُ يزهد في ذي املِ

وبيّن ان هذا من التعريف الذي يستفاد منه تمييز الشعر من النثر دون شرح ماهية الشعر وبيان حقيقته لأن قولهم كلامٌ جنسٌ يدخل تحته الشعر والنثر وباقي القيود المذكورة بعد مُخرِجٌ للنثر وغيره مما ليس بموزون مقفًّى وما ليس بكلام أصلاً. وعليه فلو عمدنا إلى أي كلام شئنا من المنثور ووزناه وقفيناه لجاء شعراً. والظاهر من مذهب المحققين بل من صنيع الشعراء من العرب وغيرهم ان حقيقة الشعر غير هذا ولكنه يختص بأجناس من المعاني وضروب من الأساليب يتميز بها عن النثر كما يتميز عنه بما ذكر من الوزن والقافية.

قال ابن خلدون في الكلام على صناعة الشعر ما نصه.. ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها. ثم ذكر معنى الاسلوب فقال انه عبارة عن المنوال الذي تُنسج عليه التراكيب والقالب

(*) مجلة الضياء، المجلد الثاني (١٨٩٩). (ص ٢ ـ ٧) و(٦٥ ـ ٧٠) و(ص ٢٨٩ ـ ٢٩٦).

الذي تُفرَغ فيه وهو لا يرجع إلى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد على انحاء مختلفة. وذلك كأن يكون سؤال الطلول بخطابها أو باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال أو باستبكاء الصحب على الطلل.. وكأن يكون التفجع على الميت باستدعاء البكاء أو باستعظام الحادث أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده إلى غير ذلك. قال وإذا تقرر معنى الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حدّاً أو رسماً للشعر به تُفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض فإنا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول العروضيين في حدّه انه الكلام الموزون المقفى ليس بحدٍّ لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسمٍ له.. فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول. الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصَّل بأجزاء متفقة في الوزن والرويّ مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. انتهى المقصود منه باختصار وتصرف. قلنا وهذا أيضاً غير وافٍ ببيان حدّ الشعر لأن قوله هو الكلام البليغ جنس يشترك فيه الشعر والنثر على السواء وقوله المبني على الاستعارة والأوصاف ليس أيضاً بالفصل الذي يميزه لأن كلاً من الاستعارة والأوصاف يكون في النثر أيضاً وقوله المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والرويّ إلى آخر الرسم كله من القيود اللفظية وبقي الشعر على الحدّ الذي ذكره العروضيون فيما نقل عنهم لم يزد عليه إلّا التقييد بأسلوب العرب وهو أمر يتعلق بصناعة النظم لا بحقيقة الشعر كما لا يخفى.

وجاء في المثل السائر ان الصابيء سئل عن الفرق بين الكتابة والشعر فقال إن طريق الاحسان في منثور الكلام يخالف طريق الاحسان في منظومه لأن الترسل هو ما وضح معناه وأعطاك سماعه في أول وهلة ما

تضمنته ألفاظه وأفخر الشعر ما غمض فلم يُعطك غرضه إلاّ بعد مماطلة منه. ثم قال والفرق بين المترسلين والشعراء إنما أغراضهم التي يرتمون إليها وصف الديار والآثار والحنين إلى الأهواء والأوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء وأما المترسلون فإنما يترسلون في أمر سداد ثغر وإصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لمسئلة او دعاء إلى أُلفة أو نهي عن فرقة.. أو ما شاكل ذلك. قال صاحب الكتاب ولقد عجبت من ذلك الرجل الموصوف بذلاقة اللسان وبلاغة البيان كيف يصدر عنه مثل هذا القول الناكب عن الصواب الذي هو في باب ونصيّ النظر في باب ثم أخذ في تفنيد كلامه في تفصيل طويل محصله نفي الاختصاص بين هذين الطرفين في الوضوح والغموض وصلاحية كل منهما للأغراض التي تؤدّى بالآخر وجعل الفرق بينهما في ثلاثة أوجه الأول ان احدهما منثور والآخر منظوم والثاني ان من الألفاظ ما يعاب استعماله نثراً ولا يعاب نظماً والثالث ان الشاعر إذا احتاج إلى الاطالة لم يُجد في كل نظمه والكاتب يطيل ما شاء ويجيد. وأنت ترى ان كل ما ذُكر هنا غير داخل في شيء من حقيقة الشعر والنثر وإنما هي اعراض اضافية لا تقوّم فصلاً ولا تكمّل حداً.

وقد طالعنا طائفة من أقوال أدباء الأعاجم في هذا المعنى بين مختصرها ومطولها وقديمها وحديثها فوجدنا ثَمّ اضطراباً شديداً بحيث لم نكد نقع على القول الفصل في حد الشعر عندهم وبيان ماهيته وماهية النثر بما يقطع عرق اللبس بينهما. وقد اتفقوا على ان المرجع في تمييز الشعر من النثر هو ما يحدثه من التأثير في النفوس والتسلط على الوجدان ولكنهم اختلفوا في عامل هذا التأثير فمن قائل انه ما يرد فيه من اصناف المجاز والكنايات لما فيها من الافتتان في التعبير وايراد المعنى على غير صورته المألوفة في الخطاب وردّ بأن هذه انما هي حِليّ تزان بها المعاني الشعرية ولا تعلُّق لها بجوهر تلك المعاني لجواز ان يخلو الشعر عنها ولا يفقد من خاصيته ولأنها شائعة بين الشعر والنثر فلو كان الأثر لها لكان في النثر أيضاً. وقيل انه ما يقع فيه من المعاني المستنبطة من توليد القريحة

واختراع المخيّلة مما تتجرد له النفس عن طور الحسّ وتلحق بعالم الخيال وهذا أيضاً لم يسلَّم بكونه علة ما ذُكر من التأثير لأن القصص الموضوعة تكـون كذلك وهي تكتب بالنثر علي الغالب لا بالشعر. وقيل هو ما يُبنى عليه من الوزن الشبيه بالايقاع حتى يفعل في النفس فعل الغناء ورُدَّ بأن ذلك لا يخرج أيضاً عن كونه من الحلى التي تزيد في حسن الشعر وتكسبه طلاوة ورونقاً ولكنه لا يكون العامل لذلك التأثير لأن الشعر إذا خلا من المؤثرات المعنوية لم يكن مؤثراً بالوزن وحده كما ان من النثر ما إذا توفرت فيه شروط الفصاحة وزُيِّن بفنون المجاز فقد يعارض الشعر في ذلك مع خلوه من الوزن. والذي يظهر لنا والله أعلم ان التأثير في الشعر يعود إلى اجتماع هذه المعاني كلها فإن استنباط المعنى الجديد وإبرازه في حلة من المجاز أو الكناية مما يؤثر ولا شك على العقول ويأخذ بمجامع القلوب لما في المعنى الجديد من الغرابة التي يتنبه لها الذهن لخروجه عن طريق المألوف وصدوره على غير ترقب السامع ولأن تمثيله في قالب من المجاز يقضي باعمال الفكر لردّه إلى حقيقته فله هناك حركة ينطبع بها تأثيره في الذهن بأشد من انطباعه إذا أفضى إلى المدركة دفعة واحدة. ولذلك ترى الشعر السهل المأخذ الواضح المغزى ولا سيما ما خلا عن المجاز أو ما كان مجازه مطروقاً أضعف تأثيراً على السامع من الشعر الذي يحتاج إلى بعض الغوص على مراد قائله لما فيه من تشوق النفس إلى الوقوف على معنـاه ثم ظهور ذلك المعنى لها وهي متأهبة للانفعال به فإنها تجد في إدراكه من اللذة ما لا تجده فيما يأتيها عفواً. وذلك إذا تفقدته وجدته في كل مطلوب من المعاني وغيرها فإن الدرهم الذي يُنال على السهولة والدعة لا يكون له من الوقع ما لغيره مما لا يحصل إلاَّ بعد العناء وجهد الطلب. وكذلك أمر الوزن فإنه بلا ريب مما يزيد المعنى حسناً وتأثيراً لما فيه من التنـاسب بين أجزاء اللفظ مما يعلقه الطبع وتلهو به النفس عن داعي سائر الحواس على حد ما يحصل بالنغم.

على ان الظاهر ان الوزن ليس في شيء من أركان الشعر ولا دخل له في ماهيته وأصل وضعه لأنَّا إذا تفقدنا الشعر القديم كالوارد في بعض أسفار

التوراة والنبوءات لم نجده مبنياً على أوزان مطّردة ولا مفصلاً إلى أبيات مقدّرة كما هو المتعارَف اليوم وإنما كان يتميز الشعر عندهم بنباهة أغراضه وسموّ معانيه والاكثار فيه من الصور الخيالية والتفنن في أساليب المجاز مع توخي الألفاظ الفصيحة والتراكيب البليغة التي لم تألفها العامة ولم تُبتذل في استعمال غير الخاصة. وأما القافية فلم يُصطلح عليها إلّا في الأزمنة المتأخرة والظاهر من مباحث أهل التحقيق انها أول ما استعملت عند العرب وعنهم أخذ غيرهم من أصحاب سائر اللغات ولعل أول شعر مقفّى في العبرانية هو ما جاء في مقامات يهوذا بن سليمان الحريزي (براء مهملة ثم زاي معجمة) التي تحدى بها مقامات الحريري فإنه بناها على السجع وأتى بشعرها موزوناً على بعض الأبحر العربية كالوافر والسريع والرجز مع القوافي المطّردة. وهذا كله مما يدلك على ان الفرق بين الشعر والنثر إنما هو معنوي لا لفظي وان الوزن والتقفية لا يكفيان لصيرورة الكلام شعراً ما لم يكن مستوفياً للشرائط المعنوية حتى يكون شعراً بالمعنى قبل ان يكون شعراً باللفظ. وسنعود إلى تتمة الكلام في حقيقة الشعر واغراضه في الأجزاء الآتية ان شاء الله.

- ٢ -

تقدم لنا في الجزء الأول من هذه السنة كلام في حد الشعر وبيان الخصائص التي يمتاز بها عن النثر على قدر ما أدّى إليه البحث وأعانت عليه البصيرة. وتقريراً لما ذكرناه هناك نقول إن النثر هو القالب الطبيعي للكلام الموضوع للابانة عن المعاني التي تتمثل في النفس يتخاطب به العالِم والجاهل والذكي والبليد والكاتب والأُمي فوجب ان يكون بحيث تتفاهمه هذه الطبقات كلها ويعبر به عن المقاصد بأبين الصور وأوضحها وذلك يقضي ولا جرم بأن يُستعمل لكل معنى اللفظ الموضوع له بحيث يُنتقل من اللفظ إلى المعنى من غير واسطة. وبخلافه الشعر فإنه من الكلام الذي يُقصد به ما وراء مدلول اللفظ من مناغاة النفس ومناجاة الوجدان فتُورَّى فيه المقاصد تحت الصور الخيالية وتُبرز المعاني تحت ثوب من المجاز أو الكناية ونحوهما ولذلك اختص بمخاطبات البلغاء وطبقات الكتّاب والمتأدبين ونُحي فيه منحى البلاغة في المعنى والتأنق في الألفاظ

والأساليب وأكثر فيه من التفنن بالأنواع البديعية مما يجمع بعض أطراف المعنى إلى بعض بما يربطها من تناسب او تضادّ أو غير ذلك بحيث تتألف منه صور كاملة على حد ما يفعل المصور في تصوير الأشباح والمغني في تأليف النغم. والمقصود من كل ذلك الاستيلاء على قوى النفس وإلباس المعاني المتأدية إليها من طريق الحسّ أو العقل ثوباً من الخياليات بعد تلوينه باللون الذي يريده الشاعر تبعاً لغرضه.

والاغراض الشعرية ترجع في الغالب إلى مقصدين احدهما تجسيم المعاني والمبالغة في اظهارها وتمثيلها مما تكون به أشدّ انطباعاً في النفس واثبت أثراً في المدركة على ما تقدمت الاشارة إليه. والثاني التأثير في النفس بحدث من الأحداث كالسرور والانقباض والاستئناس والاستيحاش والحب والبغض والخوف والرجاء وغير ذلك. ومن هذا الثاني أخذ المناطقة ما يسمونه بالقياس الشعري وهو عندهم كل ما أثر في النفس بسطاً أو قبضاً وذلك كما اذا وصفت الخمر فقلت هي ياقوتة سيالة فإن النفس تنبسط إليها وتجد لها ارتياحاً وسروراً وكما اذا وصفت العسل فقلت هو مِرّة مهوّعة[١٣] فإن النفس تنقبض عنه وتجد منه اشمئزازاً ونفوراً. وقد أفصح عن هذا المعنى قول الشاعر:

الشعر نارٌ بلا دخانٍ	وللقوافي رُقىً لطيفه
كم من ثقيل المحلّ سامٍ	هوت به احرف خفيفه
لو هُجي المسك وهو أهلٌ	لكل مدحٍ لصار جيفه

وإياه أراد الآخر في قوله:

في زخرف القول تزيين لباطله	والحق قد يعتريه سوء تعبيرِ
تقول هذا مُجاج النحل تمدحهُ	وان ذممتَ تقل قيءُ الزنابيرِ
مدحٌ وذمٌّ وما غيَّرتَ من صفةٍ	حسن البيان يُري الظلماء كالنورِ

وبيّنٌ ان هذا الذي ذكرناه من تأثير الشعر غير خاص بالكلام المنظوم ولكن كل ما تضمن شيئاً من الاغراض المذكورة وأثر في النفس تأثيرها عُدَّ شعراً. وقد قدمنا ان غالب شعر الأقدمين لم يكن على وزن ولا قافية وإنما كان الشعر عندهم يمتاز عن النثر بشرف معانيه وجزالة ألفاظه ونوع

اسلوبه. على ان عندنا من الصيغ النثرية ما يُجزيء عن الشعر وهو هذا السجع المفصّل بما يشبه قوافي الشعر فإن رنة الفاصلة يكون لها نفس تأثير القافية نفسها فلا يبقى ثمة فرق إلاّ بالوزن ولذلك ترى لغة السجع على الغـالب تشبـه لغـة الشعـر من حيث التأنق في الألفاظ والتراكيب والاغراب في المعاني وتوخي الصور المجازية وغيرها مما تقدم ذكره. على ان السجع لا يعدم شبهاً من الوزن ونعني به مراعاة طول القرائن بحيث تكـون كل قرينتـين متسـاويتين أو قريبتين من التساوي فإن ذلك من المستحسنات في السجع بل قد يعاب عكسه إذا كان التفاوت بين الفقرتين كثـيراً. وهنـاك نوع آخر من السجع بُني على التوقيع وقُسّم إلى أجزاء عروضيـة قصـيرة وان لم يكن له وزن مخصـوص فكان له من الشبه بالموسيقى ما يقرب من شبه الشعر. ولم نر من هذا النوع إلاّ البنود الخمسة التي رصّفها ابن معتوق وقد أُلحقت بآخر ديوانه نورد منها قوله في البند الأول:

أيها الراقدُ في الظلمة نبّه طرْف الفكرة من رقدة الغفلة وانظر اثر القدرة واجلُ غَلَس الحيرة في فجر سنيِ الخبرة وارنُ إلى الفلك الأطلس والعرش ومـا فيـه من النقش وهـذا الأفق الادكن في ذا الصنع المتقن والسبع السمـاوات ففي ذلك آيات، هدى تكشف عن صحة اثبات، إلهٍ كشفت قدرتـه عن غُرر الصبـح وأرخت طرر النُجـح فغـدا يغسل من مبسمه الاشنب في مضمضتَيْ نور سنـاه لَعَس الغيهب واستبدلت الظلمة من عنبرها الأسود بالأشهب واعتاضت من مفرقها الحالك بالأشيب وهكذا إلى آخر البنود وهو فن لطيف.

واكثر ما تجد السجع الشعري في الخطب لما تدعو إليه من التفنن في المعاني والاشتقاق في الاغراض وتصوير الموصوفات والحوادث بما يميل بالسـامـع إلى غرض الخـطيب ويستدرجه إلى هواه. ومن أظهر امثلته الخـطب المتضمنـة لنـوع من أنواع المناظرة لما يكون هناك من معترك البلاغة وتصادم الحجج وتهالك كل من المتناظرين على ادراك الفَلَج فيلوّن كلامه بكل صبغة من المجاز ويصوّره بكل صورة من الخيال. وانظر في

ذلك مناظرة السيف والقلم للشيخ جمال الدين بن نباتة فانه أبدع فيها كل الابداع وأودعها من المعاني المتخيّلة والاختراعات الغريبة ما يقصّر عنه كثير من الشعر المنظوم وما لو نُظم لجاء من أعلى طبقات الشعر ولولا انها طويلة لسردناها في هذا الموضع وهي مذكورة في خزانة الأدب لابن حجة الحموي في الكلام على نوع التغاير فلتراجع هناك. وترى نموذجاً من هذا في البيان فيما صدّرنا به مقالة القمر وما جاء في صدر ترجمة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وخاتمتها ومثل ذلك ما جاء في وصف الزُهرة ومصير الأرض في مجلد السنة الأولى من الضياء مما تراه في أماكنه. وقد اتفق لبعض شعرائنا المجيدين نظم شيء من المقالات المذكورة لما وجدوا فيها من شبه الشعر فنظم المرحوم المأسوف عليه نجيب الحداد ما جاء من ذلك في مقالة القمر وزاد عليه في قصيدة بديعة نشرت في البيان. وانشدنا مرة حضرة الفاضل الالمعي مصطفى بك نجيب وكيل ادارة الداخلية في الحكومة المصرية أبياتاً ألمّ فيها ببعض ما ورد في صدر ترجمة السيد جمال الدين وكان يوماً يقرأ هذه الترجمة فمر به ما لم يتمالك عن افراغه في قالب النظم وقد علق بالمحفوظ شيء من تلك الأبيات نستأذنه في ايراده هنا قال حفظه الله:

نعت النعاة يتيمة الدهر	وخُلاصة الاحساب والفخر
امسى جمال الدين في جدثٍ	ضمَّ العلاء ورفعة القدرِ
ليت المنية اخطأت رجلاً	همدت بهِ نارٌ من الفكرِ
وعزيمة لا تنتهي صُعُداً	حتى تفوت معارج النسرِ
«دبّت على مجرى فصاحته	واتته بين الفكّ والنحرِ»
«عجبٌ لما فعلت ولا عجبٌ	ان يسكن السرطان في البحرِ»

ومن هذا القبيل ما نقله في خزانة الأدب من نظم ابن ابي الاصبع لاحدى خُطب الامام علي في مدح الدنيا والرد على من ذمها ولا بأس ان نروي هنا الخطبة والنظم جميعاً لقصرهما قال الامام (رضه):

أيها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها المخدوع بأباطيلها أتغتر بالدنيا ثم تذمها أأنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك. متى استهوتك أم متى غرتك أبمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى.. قد

مثلت لك بهم الدنيا نفسك وخيَّلت لك بمصرعهم مصرعك ان الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ودار موعظة لمن اتعظ بها. مسجد أحباء الله ومصلّى ملائكة الله ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها فمثلت لهم ببلاها البلى وشوقتهم بسرورها إلى السرور. راحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً فذمها رجال غداة الندامة وحمدها آخرون يوم القيامة ذكّرتهم الدنيا فتذكروا وحدّثتهم فصدّقوا ووعظتهم فاتعظوا. وهذه صورة النظم:

من يذمّ الدنيا بظلم فاني	بطريق الانصاف أثني عليها
نصحتنا فلم نرَ النصح نصحاً	حين ابدت لأهلها ما لديها
اعلمتنا ان المآل يقيناً	للبلى حين جدّدت عصريها
كم ارتنا مصارع الأهل والاحـ	ـباب لو نستفيق يوماً اليها
يومُ بؤسٍ لها ويوم رخاءٍ	فتزوّدْ ما شئت من يوميها
وتيقن زوال ذاك وهذا	تسلُ عما تراهُ من حادثيها
دارُ زادٍ لمن تزوّد منها	وغرورٍ لمن يميل اليها
مهبط الوحي والمصلّى الذي كم	عفَّرتْ صورةٌ بهِ خدّيها
متجر الاولياء قد ربحوا الجنّة	م منها وأوردوا عينيها
رغَّبت ثم رهَّبت ليرى كل	م لبيب عقباهُ في حالتيها
وإذا أنصفتْ تعين ان يثني	م عليها ذو البرّ من ولديها

-٣-

ومن تتبع كلام الشعراء وجد من تبسطهم في المعاني وتفننهم في تصويرها ما لا يحيط به الحصر ولذلك نكتفي بما أوردناه في هذه العُجالة للمقابلة بين المعنى الشعري والمعنى العامي ومن أراد الوقوف على أكثر مما ذكرنا فليرجع إلى كتب البديع فإن معظم مدارها على هذه الفنون.

على ان أكثر ما تجده من هذا التفنن في المعاني من مخترعات المولّدين وقد كان شعر المتقدمين عن الكثير منه بمعزل وإنما كانت عناية المجيدين منهم إذا أخذوا في شقّ من الكلام ان يجعلوه تاماً مستوفي الجهات وصفاً

كان أو غيره فيعطونه حقه من السرد والاحاطة مع مراعاة وجوه المقابلة بين أطراف المعاني والربط بينها بموافقة أو مضادة أو التقفية عليها بنحو استدراك أو تذييل مما لا يخرج عن السياق الطبيعي وذلك على غير قلق في التنسيق ولا غلو في الوصف ولا ابعاد عن الحقيقة خلا ما تزيَّن به أحياناً من الصور المجازية أو يُقرن بها من ضروب التشابيه التي هي نوع من الحقيقة وهو أظهر ما يمتاز به شعر المتقدمين عن شعر المولدين ونحن نورد هنا شيئاً من كلامهم يظهر به مذهبهم فيه كقول الحطيئة:

وفتيانِ صدقٍ من عديٍّ عليهمِ　　صفائحُ بُصرَى عُلِّقت بالعواتقِ
إذا ما دُعُوا لم يسألوا من دعاهمُ　　ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافقَ
وطاروا إلى الجُرد العتاق فألجموا　　وشدّوا على أوساطهم بالمناطقِ

الصفائح السيوف وبُصرَى بلدةٌ بالشأم اشتهرت بصنع السيوف والجرد الخيل القصار الشعر والعتاق الكريمة. يصفهم بالبسالة والتأهب للنزال والخفوف لنجدة الداعي على غير اهتمام بمعرفته ولا مبالاة بما وراءه من العظائم وهي نهاية ما يوصف به الشجاع وكل ذلك من الوصف الطبيعي كما تراه إلّا انه استوفى المعنى فيه إلى آخر دقائقه. وكقول عنترة:

ولقد شربتُ من المدامة بعد ما　　ركد الهواجر بالمشوف المُعلَمِ
بزجاجةٍ صفراء ذات اسرّةٍ　　قُرنت بأزهر في الشمال مفدَّم
فإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ　　مالي وعِرضي وافرٌ لم يُكلَمِ
وإذا صحوتُ فما اقصِّر عن ندىً　　وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي

وصف حال شربه ووقته وآنية شرابه ثم وصف نفسه في حال الشرب بأنه إذا سكر بذل ماله على أصحابه ولكنه لا يتهتك ولا يخرج عن تصوّنه وعفافه ثم أتمّ المعنى بأن ما ذكره من السخاء غير مقصور منه على حال الشرب ولكنه اذا صحا كان كذلك ومحصَّل المعنى انه سخيٌّ بمآله ضنين بعرضه وانه إذا سكر لم يخرجه السكر إلى التهتك وإذا صحا لم يخرجه الصحو إلى الشُحّ فاستوفى وصف نفسه في الحالين. ومن هذا قول حاتم الطائي:

بُلينا زماناً بالتصعلك والغنى　　وكلٌّ سقاناهُ بكاسيهما الدهرُ

فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقرُ

يقول إنهم تعوّدوا شدة الدهر ورخاءه فهم إذا كانوا في ثروة ويسر لم تبطرهم النعمة ولم يحملهم الغنى على البغي وإذا أدركهم الفقر ومسّتهم الضرورة لم يلجئهم ذلك إلى الضراعة ولم يُزر بأحسابهم. فترى ان كل واحد من هؤلاء الشعراء قد عمد إلى المعنى الواحد فاستوفى أطرافه وأحاط بجميع وجوهه حتى أصبح قائماً بنفسه لا يعتوره نقص ولا تصاب فيه ثلمة للنقد. وهذا أصل من الأصول المعتبرة في الشعر وهو محط البلاغة وسعة تصرف الخاطر ولذلك لا يكاد يهجم عليه إلّا أكابر الشعراء المجيدين من الجاهلية كانوا أو المولدين. وهو في شعر المولدين أقل لبعد مأتاه وخشونة مركبه مع انصرافهم عنه إلى العناية بالمعنى الجزئي وإبرازه في الصور الغريبة ومن أمثلته في كلامهم قول ابراهيم بن العباس الصولي وهو من شعراء الدولة العباسية:

ساشكر عمراً ما تراخت منيّتي ايـاديَ لم تُمنن وان هي جلّتِ
فتىً غير محجوب الغنى عن صديقهِ ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلّتِ
رأى خلّتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيهِ حتى تجلّتِ

خلتي فقري والقذى ما يقع في العين من غبارٍ ونحوه. وقول الشريف الرضي:

ولقد وقفت على ربوعهمِ وطلولها بيد البلى نهبُ
فبكيت حتى ضجَّ من لغبٍ نِضوي ولجّ بعذليَ الركبُ
وتلفتت عيني فمذ خفيتْ عني الطلول تلفت القلبُ

اللغب الاعياء والنِضو البعير المهزول. ومن هذا قول أبي الحسن الجُرجاني:

وقالوا توصّل بالخضوع إلى الغنى وما علموا ان الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال شيئان حرّما عليَّ الغنى نفسي الابيّةُ والدهرُ
إذا قيل هذا اليُسر ابصرتُ دونهُ مواقف خيرٌ من وقوفي بها العسرُ

وقول ابن حزم:

لئن اصبحتُ مرتحلاً بجسمي فقلبي عندكم ابداً مقيمُ
ولكن للعيان لطيفُ معنىً لهُ طلب المعاينةَ الكليمُ

ومن ألطف ما جاء من هذا النوع قول الوأواء الدمشقي:

بالله ربكما عُوجا على سكني ... وعاتباهُ لعل العتب يعطفهُ
وعرّضا بي وقولا في حديثكما ... ما بال عبدك بالهجران تتلفهُ
فإن تبسم قولا في ملاطفةٍ ... ما ضرَّ لو بوصالٍ منك تسعفهُ
وان بدا لكما في وجهه غضبٌ ... فغالطاهُ وقولا ليس نعرفهُ

فإنك ترى في هذه الأمثلة كلها من استقلال المعاني واستكمال أجزائها وارتباطها مع النظر في اعطاف كل معنى لاستنباط دقائقه ما لو استمر على مثله شعراء المولدين لم يتعلق بشعرهم شعر أحد من الجاهليين. وعندنا ان هذا هو الاسلوب الذي كان ينبغي ان ينبه عليه جهابذة هذا الشأن في النسج على منوال الأوائل وهو عمود الشعر الصحيح ومحط رحال بلاغته وميداء حلبة المجيدين فيه. وإذا استقريت شعر المولدين من أول صدر الاسلام فما يليه وجدت أوائله وما كان منه لعصر الأمويين وأوائل عهد العباسيين أشبه بشعر الجاهلية لجريهم فيه على ما تلقوه من أسلوبهم خلا ما فضلوهم فيه من التأنق في اختيار الألفاظ وما على شعرهم من مسحة الحضارة التي فاتت اشعار الأولين ثم تجده بعد ذلك يباينه عصراً بعد عصر بتبدُّل الذوق والخروج إلى الصنعة والوَلوع بالإغراب واستكراه القرائح على النظم إلى ان تجد أهله قد صرفوا دقة نظرهم إلى التشاغل بالمعاني الجزئية دون الربط بين جملة معاني الأبيات وصار معظم عنايتهم بالتفنن في الخيال المحض والامعان في ابتكار الغريب إلى ما يتصل بذلك من الفنون البديعية مما ترى شرحه وامثلته في أماكنه ثم انتقلوا إلى الاشتغال بالجناسات اللفظية والخطية لعجزهم عن استنباط المعاني وقصورهم عن الوصف الصحيح إلاَّ ما ندر بحيث أصبح الشعر صورة لا معنى لها إلى ما انتهى إليه في عصرنا هذا من الاكتفاء بالوزن والقافية على ما في كثير منه من الخلل حتى في هذا القالب المحسوس بحيث صرت ترى الزجل العاميّ وما اشبهه خيراً من كثير مما تسمعه حتى من شعر بعض الخاصة.

والسبب فيما ذكرناه ان المولدين لما اوغلوا في أودية الشعر وصار

صنـاعـة يُتكسب بهـا وأقبل الملوك والكبراء على الشعر وأغلوا سيمته وأجازوا أربابه الجوائز السنية اخذوا يتبسطون فيه وتناولوا اغراضه من كل صوب فاتسع لهم المجال فيه ولا سيما مع كثرة الاغراض واختلافها مع ما تقتضيه حال الملك والبسطة في الغنى واتساع آلات الدولة ومرافق المدنية وتواتر الغزوات والفتوح ومع اختلاف ما يكتنفهم من الأشياء التي كانوا يتناولونها في الاستعارات والتشابيه مما لم يكن للبدوي فيه يد ولم يقع تحت حسّه. وذلك فضلاً عن ان البدوي لم يكن يتكلم إلاّ في أغراضه الخاصة ووصف الشؤون التي وقعت له والشاعر الحضري لما كان مدعواً إلى النظم فيما هو وراء شأنه الخاص من وصف رونق الملك ومظاهر الأبهة وزخـارف الحضارة وأشياء الترف أخذ ينظر فيما حوله واختلق بدائع الصور وغرائب التماثيل فتفنن في المعاني بما لم يبلغه البدوي ولم يكن له إليه سبيل ولذلك غلبت على شعر المولدين الصنعة والتفنن في استنباط المعاني النادرة وإبرازها في القوالب الناصعة من اللفظ دون الصدور عن تلقين الطبع و وحي القريحة الصرفة. ولهذا فإنك كثيراً ما ترى تفاوتاً في شعر الشاعر الواحد بين ان ينظم في أغراض نفسه ويتكلم فيما يبعثه عليه طبعه او يتوخى مدحاً لأحد الرؤساء أو تهنئة أو غير ذلك من الاغراض المستدعاة التي يسخّر فيها قريحته للكلام في أمور ليست في شيء من غرضه ووجدانه أو يتوخى مباراة سائر الشعراء في اختراعاتهم للمعـاني وايغـالهم في طلب الغـريب منهـا. وهذا لا تكاد تراه في شعر المتقدمين لأنه لم يكن يعترض قرائحهم هوى ممدوح ولا إرضاء مستجدىً ولم يكن بينهم مباراة إلاّ في الكشف عن المعاني الطبيعية والاحاطة ببليغ الأوصاف وخفيّها مما تمثّل به الصورة الطبيعية بأبلغ ما تصل إليه الملكة اللسانية. وذلك لا يقتصر على المعنى الواحد ولكنه كثيراً ما يتعدى إلى تعداد صفات كثيرة يجرون بها على مثل ما ذكر وهذا ولا شك أعز منالاً وأوعر مسلكاً والفائزون بغرره قليل نذكر منه قول زينب بنت الطثرية ترثي أخاها يزيد:

فتىً قُدَّ قدّ السيف لا متآزفٌ ولا رَهِلٌ لبّاته وبآدله

المتآزف القصير الخطو الرَهل المسترخي اللحم واللبّات أعالي الصدر والبآدل جمع بأدلة وهي لحمة بين الابط والثندوة:

فتىً ليس لابن العمّ كالذئب ان رأى بصاحبه يوماً دماً فهو آكلهْ

يسرُّك مظلوماً ويرضيك ظالماً وكل الذي حمّلتهُ فهو حامله

إذا جدَّ عند الجدّ ارضاك جدُّهُ وذو باطلٍ ان شئت الهاك باطله

فتىً لا يرى ما فاتهُ مهلكاً لهُ ولا الخلدَ ما ضُمَّت عليهِ انامله

وقد كان يروَى المشرقيُّ بكفهِ ويبلغ اقصى حَجْرة الحيّ نائله

الحَجْرة الناحية والنائل العطاء.

إذا القوم امُّوا بيتهُ فهو عامدٌ لاحسن ما ظنُّوا بهِ فهو فاعلهْ

فانظر إلى هذه الأوصاف البديعة التي تمثل صاحبها في أشرف حال من كمال الخَلق والخُلق والاستيلاء على المحامد وعلوّ الهمة وكرم الخلال من غير ان ترى فيها شيئاً من الغلو الذي تراه في شعر المولدين. لا جرم ان مثل هذا الوصف أوقع في النفس وأجدى في باب المدح من تلك المبالغات السمجة التي ترى عليها مسحة من الكذب ولا تفيد شيئاً في تصوير صفة المدوح إذ لا يعيرها السامع جانب التصديق ولا يتصور فيها شيئاً من الحقيقة ولكنها مجرد تلاعب في الكلام لا يخرج في نظر الناقد عن باب الفكاهة والملحة بل ربما خرجوا بالكلام إلى حد الهذيان كقول المتنبي:

وأُقسمُ لولا انَّ في كل شعرةٍ لهُ ضيغماً قلنا لهُ انت ضيغمُ

يقول لولا ان في كل شعرة من ممدوحه أسداً أي لولا ان شجاعته تزيد على شجاعة الأسد بعدد شعر بدنه لسماه أسداً. وانظر أين هذا من قوله:

ولولا احتقار الأسد شبهتهم بها ولكنها معدودةٌ في البهائمِ

فإنه ذكر هنا وجهاً صحيحاً فضّلهم على الأُسد بالانسانية لا بكونهم أشجع منها فضلاً عن ان تقوم كل شعرة منهم مقام أسد. وكقول الآخر:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمتهُ لما رأيت عليها عقد منتطقِ

الجوزاء من صور الكواكب في وسطها ثلاثة أنجم مصطفة يسمونها

نطاق الجوزاء يقول لولا ان الجوزاء تنوي خدمة الممدوح لما عقدت النطاق في وسطها وهو كالمئزر يشدّه الخادم في وسطه. وأصحاب البديع يرون هذا من حسن التعليل وقد ذهلوا عما فيه من الافراط في الغلو حتى صار أشبه بالهزؤ منه بالمدح.

وقول أبي تمام:

بيومٍ كطول الدهر في عرض مثلهِ ووجديَ من هذا وهذاك اطولُ

أراد أن يبالغ في طول اليوم فجعله كطول الدهر ثم لم يكفه حتى جعل له عرضاً ولم يُسمع ان للزمان عرضاً إلَّا في هذا البيت. وأغرب منه قول الآخر:

اسكرُ بالأمس ان عزمتُ على الـ ـشرب غداً انَّ ذا من العجبِ

وصدق انه من العجب ولكن أعجب منه ان يخترع المرء مثل هذه الخرافة ثم يتعجب منها. ومن ذلك قول الحلي:

لو قابل الاعمى غدا بصيرا ولو رأى ميتاً غدا منشورا
ولو يشا كان الظلام نورا ولو اتاه الليل مستجيرا
آمنةُ من سطوات الفجرِ

وكل هذا مما لا يقبله العقل ولا يحسن في الذوق ولا فيه شيء من الاختراع إنما هو ان يعمد الشاعر إلى الأحوال الطبيعية وهي بين يديه وفي ذهن كل أحد فينقضها أو يخرجها إلى ما وراء حدودها فيقول فلان إذا زجر الريح مثلاً وقفت عن مسيرها وإذا غضب على الشمس لم تشرق ولو شاء لجعل البحر في كفه ولو ضرب بسيفه الجبل لقدّه وقس على ذلك مما لا يصعب على الفكر الانتقال إليه بل الذي عندنا ان كل ذلك مهما اختلفت صوره لا يُعدّ إلَّا معنى واحداً إذ حاصل هذه الصور كلها أمر واحد وهو اخراج الأشياء عن مطبوعها.

هوامش القسم الرابع

(١) هو من الحيوان ما لا يسمع لهُ صوت كالذرّ والنمل. قال رؤبة بن العجاج:

لو انني اوتيت علم الحكلِ ... علمَ سليمان كلامَ النملِ
كنتُ رهين هرمٍ او قتلِ

(٢) كذا في الاصل ولعل الصواب مع تيوفيلوس أبيهِ لأن ميخائيل ملك بعد موت المأمون.

(٣) عبارة أبي الفرج «بالشماسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق».

(٤) نشرت هذه الخطبة في ثلاثة أعداد متتالية من مجلة **الضياء**.

(٥) يستثنى من ذلك كتب الطب فانهم تسامحوا فيها بنقل كثير من أسماء العقاقير والمواد الطبية وأسماء الأمراض وغيرها بلفظها الاعجمي لأن بعضها لم يهتدوا إلى مرادفه بالعربية وبعضها لا مرادف له عند العرب فلم يضعوا لها لفظاً لما سيأتي في موضعه من أن أسماء الجواهر وأشباهها لا تنقل على الغالب إلا من طريق التعريب.

(٦) أي قفا عند ربوع مما تعرفان وهو من الغلط التركيبي ومثله قول الآخر:

لها مقلتا حوراء ترعى خميلةً ... من الوحش ما تنفك طَلٌ عرارُها

اراد لها مقلتا حوراء من الوحش ما تنفك ترعى خميلةً طلٌ عرارُها. وقول الآخر:

فقد والشكُّ بين لي عناءٌ ... بوشك فراقهم صردٌ يصيحُ

أي فقد بين لي صردٌ يصيح بوشك فراقهم والشك عناءٌ. وقول الآخر:

فاصبحت بعد خطَّ بهجتها ... كأنّ قفراً رسومها قلما

أراد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأنما قلماً خط رسومها. ومن هذا بيت الفرزدق الذي يستشهد به البيانيون في الكلام على التعقيد وهو قولهُ:

وما مثلهُ في الناس إلا مملكاً ... ابو امه حيٌّ ابوهُ يقاربه

أي وما مثلهُ في الناس حيٌّ يقاربهُ إلا مملكاً أبو أمهِ أي ابو ام ذلك الملك أبوهُ. على أن مثل هذا أن قصد به المعاياة فليس من هذا الباب غير انهُ على كل حالٍ مستهجن إذ لا نكتة فيهِ.

(٧) هو العربي المكتوب بالحرف السرياني.

(٨) الضباب جمع ضبٌ وهو دويبة برية تعرف بالحرذون وقيل الحرذون ذكر الضباب وحرش الضبّ صاده. واليرابيع جمع يربوع وهو دويبة نحو الفأرة. والكواميخ جمع كامخ بفتح الميم وفسره في شفاء الغليل بالمخلل يشهي الطعام.

(٩) من الغريب انهم أجمعوا على ان اسماعيل أصله اشمائيل وانهم أبدلوا من الهمزة عيناً ذكره سيبويه والجواليقي ونقله السيوطي في **المزهر** وغيره. وذكر صاحب القاموس ان معناه مطيع الله وزاد صاحب **تاج العروس** انه بالسريانية قال ولذا أي لكون معناه مطيع الله يكنى من كان اسمه اسماعيل بأبي مطيع. وفي **شفاء الغليل** قال السبكي ويستحب لمن رُزق ولداً في الكبر ان يسميه اسماعيل اقتداء بالآية ولأن معناه عطية الله ١.هـ. والصواب أن الاسم عبريّ الأصل ولفظه يشماعيل وهو مركب من كلمتين يشماع أي يسمع وايل (بالامالة) وهو اسم الله. وكم لهم من أمثال هذه التخرصات كقول السهيلي اسم جبريل عليه السلام سرياني ومعناه عبدالرحمن أو عبدالعزيز. قال في **تاج العروس** وذكر الجوهري والازهري وكثير من الأئمة =

= ان جبر وميك (أي من جبرائيل وميكائيل) بمعنى عبد وايل اسم الله وصرّح به البخاري أيضاً قال وردّه أبو علي الفارسي بأن ايل لم يذكره أحد في أسمائه تعالى. ثم قال: قال شيخنا ونقل عن بعضهم ان ايـل هو العبد وان ما عداه هو الاسم من أسماء الله كالرحمن والجلالة وايده باختلافها دون ايل فإنه لازم كما ان عبد دائماً يذكر وما عداه يختلف في العربية وزاده تأييداً بأن ذلك هو المعـروف في اضـافـة العجم وقد أشار لمثل هذا البحث عبدالحكيم في حاشية البيضاوي. ا.هـ. وهو من غريب الجرأة في البحث. والصحيح ان ايل اسم الله بالعبرية كما تقدم قريباً وجبر بمعنى رجل فمعنى جبرائيل رجل الله وميكائيل أو ميخائيل معناه من مثل الله لأن مي بمعنى من الاستفهامية والكاف بعدها هي كاف التشبيه منهم من يلفظها كافاً ومنهم من يلفظها خاء. وأما ما ذكره عن الاضافة عند العجم فهو في غير العبرية وإنما الاضافة فيها على حكمها في العربية.

(١٠) وبقي هنـا العكس وهو ابدال الشين من السين كما في فيلبش وبرشاوش وشيشرون وغيرها وأصلها بالسين المهملة. وهذان الحرفان كثيراً ما يترادفان بين العربية وبين العبرية والسريانية كما في الشفة والشمال وشهدَ وشنيء وغير ذلك مما جاء في هاتين اللغتين بالسين المهملة وهو عندنا بالمعجمة. وقد تبدل الشين المعجمة فيهما تاء عندنا كما في الثور والثكل وثمَّ بمعنى هناك وأصلها في العبرية بالشين المعجمة ومن ذلك الشَشقلة التي توقف فيها صاحب **الجمهرة** قال قيل ليونس بمَ تعرف الشعر الجيد فقال بالشَشقلة قال الشَشقلة ان تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل ولا أحسبه عربياً محضاً. ا. هـ. والصحيح انه عبري أو سرياني نقله العرب بلفظه وأصلهُ بشين واحدة فزادوا في أوله شيئاً أخرى. وعامة الشام يقولون شقشل الشيء فيـوسـطون القـاف بين الشينـين وهـو عندهم بمعنى رازهُ ومن هنا أخذ الشاقول وهو آلة للمهندسين يزنون بها السطوح.

(١١) مستشرق الماني (Martin Hartmann)، (١٨٥١ ـ ١٩١٨).

(١٢) نشر اليازجي هذا البحث عن المجاز، في ستة أبحاث نشرت على التوالي في الأجزاء الثاني والثالث والسادس والسابع والثاني عشر من المجلد الخامس تكتفي هنا بإيراد الجزءين الأول والثاني منها.

(١٣) المراد بالمرة الخلط المعروف بالصفراء والمهوَّعة المستفرَغة بالقيء.

الملاحق

ملحق رقم (١)

أعمال الجمعيّة السوريّة

تأسست سنة ١٨٤٧

تحرير المعلم بطرس البستاني

نقلاً عن: دار الحمراء للطباعة والنشر

بيروت ١٩٩٠

أعمـال الجمعيّـة السوريّـة

تحريـر: بطـرس البستانـي

أسماء أصحاب الوظائف في الجمعية السورية

الذين وقع عليهم الانتخاب في ٦ كانون ٢ سنة ١٨٥٢

الرئيس: الخواجة عالي سميث

الـنـوّاب

النائب الأول: الخواجة هنري دي فرست

النائب الثاني: الخواجة نعمة ثابت

النائب الثالث: الخواجة جرجس هويتن

الـكاتبـان

كاتب الوقائع: الخواجة بطرس البستاني

كاتب الرسائل: الخواجة نوفل نعمة نوفل

الامـيـنـان

امين الصندوق: الخواجة ميخائيل شحاده

امين المكتبة: الخواجة انطونيوس الاميوني

أعضـاء العمـدة العاملـة

الخواجات: عالي سميث الخواجات: نوفل نعمة نوفل

» هنري دي فرست
» نعمة ثابت
» جرجس هويتن
» بطرس البستاني
» ميخائيل شحادة
» انطونيوس الاميوني
» ابراهيم طراد
» الياس فواز

الأعضاء المستوطنون حسب ترتيب دخولهم

الخواجات: وليم طمسن
» كرنيليوس فنديك
» انطونيوس الاميوني
» نعمة ثابت
» نوفل نعمة نوفل
» سليم نوفل
» جرجس الجمّال
» طنوس الحداد
» الياس فواز
» خليل المنيّر
» عبدالله الوتوات
» ناصيف اليازجي
» عالي سميث
» بطرس البستاني
» الياس المنيّر
» جرجس هرتر
» يوحنا ورتبات
» ميخائيل الاميوني
» فردريك شلتس
» تشرشل بك
» كركور ورتبات

الخواجات: ابراهيم طراد
» ميخائيل شحادة
» جرجس هويتن
» ميخائيل عرمان
» نقولا المدور
» جبور الخوري
» سميلي رنصن
» يوسف كتافاكو
» خليل مشاقة
» ديمتري فيلبس
» ناصيف الشدودي
» يواكيم النجار
» نخلة المدور
» ميخائيل فرج الله
» كرلوس بلنج
» شكري نعمة الله الخوري
» سمعان كلهون
» عبدالله عرمان
» منصور كرلتي
» ليونيل مور
» نقولا الاميوني

الأعضــاء المراسلــون

الخواجات: ميخائيل مشاقة / دمشق
» يوسف دياب / طرابلس
» انطونيوس يني / طرابلس
» طنوس الصابونجي / بيروت
» طنوس كرم / صفد
» بتراجي / اوروبا
» ابراهيم نخلة / صيدا
» جبرائيل نصر الله / حيفا
» عبدالله نوفل / طرابلس

ملحق رقم (٢)

نقلاً عن أعمال الجمعية العلمية السورية

١٨٦٨ ـ ١٨٦٩

إعداد وتحقيق يوسف قزما خوري

دار الحمراء للطباعة والنشر بيروت ١٩٩٠

أعضاء الجمعية العلمية السورية
كما وردت في مجموعاتها (١١٦ عضواً)

[غ . م. = عضو غير محلّي؛ اش = اشتراك]

تأسست سنة ١٨٦٨

أبو حمد، سليم	
أبو خزعل، علي	(غ . م.)
أبو نكد، سعيد	(عبيه)
ارسلان، محمد أمين	
أرقش، بشارة	
أيوب، سليم	(زحلة)
أيوبي، عبدالنجيب	(الشام)
باسيلا، سيروفيم	
بحمدوني، أمين	(زحلة)
بدران، عبدالرحيم	
البستاني، بطرس	
البستاني، سليم	
بسترس، حبيب	
بيهم، حسين	
بيهم، محمد	
بيهم، محيي الدين	
ثابت، أيوب	
ثابت، خطار	
توفيق، أحمد	
تويني، جرجس	
التيان، حنا	
الجاهل، جرجس	
جبارة، غبريل	

يتبع

تابع

جرجس، رزق	(مصر)
جريديني، إسكندر	
جريديني، أمين	
الجلخ، حبيب	
الجلخ، يوسف	
جوده، اسماعيل	
حلاج، يعقوب	
حمادة، علي	(غ. م)
حمادة، محمود	(الشام)
خضرا، رزق الله	
خضرا، عبد الاحد	
الخمري، عبدالله	
خورشيد، آغا	(راشيا)
خوري، حنين	
الخوري، خليل	
الخوري، سليم	
خوري، موسى	
خير الله، ضاهر	
دبّاس، بولس	
دبّاس، فضل الله	
دبّاك، سابا	(الاسكندرية)
دوماني، حبيب	
الدوماني، نقولا	
راشد باشا	(والي ولاية سورية)
رسلان، حمود	
رسلان، خليل	
رسلان، عباس	
رسلان، مصطفى	
زحلاوي، ابراهيم	
زغيب، سليم	(الاسكندرية)
زغيب، نجيب	(الاسكندرية)
زوين، جرجس	
سراج، محمد	(مصر)
سرسق، ديمتري	
سرعت، علي	

يتبع

تابع

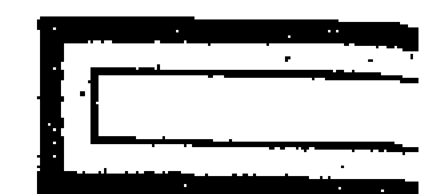
سوكه، الحكيم	
شارل، سليم	
شحاده، حنا	
شديد، بشارة	(الاسكندرية)
شقير، إسبر	
شقير، سعيد	
شقير، شاكر	
الصلح، عبدالرحمن	
صوايه، مخائيل	(الاسكندرية)
صوصه، عبدالله	
طرابيشي، عثمان	
طراد، إسكندر	
عبدالنور، جبران	
العيتاني، عبدالرحمن	
عبدالهادي باشا	(متصرف لواء بيروت)
غانم، خليل	
غرزوزي، حبيب	(الاسكندرية - وكيل)
فارس، ملحم	
فخري، إبراهيم	
فرانقو افندي	(مدير جمرك الغلطة)
فرانقو باشا	(متصرف جبل لبنان)
فراندل	(سفير دولة بلجيكا، غ. م)
فريج، سليم	
فريج، موسى يوحنا	
قباني، سعد الدين	
كركبه، إلياس	
كرم، جرجس	(الاسكندرية)
كرمه، جرجس	
كساب، سليم	
كستفليس، قيصر	(طرابلس)
كوسا، فتح الله	(اش)
كوسا، فؤاد	(اش)
كوسا، فيض الله	(اش)
كوسا، نصر الله	(اش)
كوسا، يوسف سعيد	(اش)

يتبع

تابع

لفلوفة، نعوم	(الاسكندرية)
محمد أفندي	(كاتب الطابور)
محمد بهجت أفندي	(اش)
مدور، نصر الله	
مرزا حسين خان	(سفير دولة ايران)
مسك، إسكندر	
مسك، بطرس	
مشاقة، مخائيل	(الشام)
مصطفى رفقي افندي	(بيك باشي الطليعة)
مصطفى فاضل باشا	(غ.م)
مظهر، علي	(مصر)
مقصود، مخائيل	
موسى، متري	(رشيد)
نجيب افندي	(البقاع ـ مامور رسومات)
نحاس، بشارة	
نصر، حبيب خليل	
نلسن (القس)	(الاسكندرية)
نوفل، إلياس	(الاسكندرية)
ورتبات، يوحنا	
اليازجي، ابراهيم	
الياقي، عبدالبديع	
يني، انطانيوس	
يوسف كامل باشا	(رئيس المجلس العالي)

ملاحظة: يقول جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية، (ج ٤، ص ٦٧) ان عدد أعضاء الجمعية لسنة ١٨٦٨ بلغ نحو ١٥٠ عضواً اكثرهم في بيروت. ويذكر ٤٥ اسماً فقط. أما طرازي في (تاريخ الصحافة العربية) فيذكر ٧٢ اسماً، بينهم اسماء القناصل الأجانب في بيروت وسواها من الولايات والحواضر.



المراجع

١ ـ البستاني، فؤاد افرام: **الشيخ ابرهيم اليازجي، الروائع**، عدد ٤٢ و٤٣ الطبعة الأولى، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٢.

٢ ـ جحا، الدكتور ميشال: ١ ـ **سليم البستاني**، منشورات رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٩.

٢ ـ الشاعرة وردة اليازجي (خنساء لبنان)، مجلة **الفكر العربي**، عدد ٦٤ (١٩٩١).

٣ ـ الجرّاح، توفيق: **الشيخ ابرهيم اليازجي ومجلة «الضياء»**، رسالة ماجستير، الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٧٧) (غير منشورة).

٤ ـ الجنان: مجلة **«الجنان»**، مجلد ٢ (١٨٧١).

الجندي، أنور: ١ ـ **الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والمجتمع**، (١٨٣٠ ـ ١٩٥٩)، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٩.

٢ ـ **المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مئة عام** (١٨٤٠ ـ ١٩٤٠)، مطبعة الرسالة، ١٩١٦.

٦ ـ حمزه، الدكتور عبداللطيف: **الصحافة والأدب في مصر**، محاضرات القاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية ١٩٥٥.

٧ ـ خوري، الأب سامي (اليسوعي): الشيخ ابرهيم اليازجي والمطبعة الكاثوليكية بين (١٨٧٣ ـ ١٨٨١)، مجلة **المشرق**، السنة الخامسة والستون، الجزآن الأول والثاني ١٩٩١.

خوري، الدكتور يوسف قزما: (ناشر) أعمال الجمعية العلمية السورية، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٠.

٩ ـ رستم، الدكتور أسد: **لبنان في عهد المتصرفية**، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٣.

١٠ ـ زيدان، جرجي: **مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، منشورات مكتبة الحياة بيروت (لا.ت.) في جزءين.

١١ ـ سابا، عيسى ميخائيل: **الشيخ ابرهيم اليازجي**، دار المعارف بيروت، ١٩٥٥.

١٢ ـ سركيس، سليم: **سر مملكة، غرائب المكتوبجي**، إعداد وتحقيق يوسف قزما خوري، دار الحمراء بيروت، ١٩٩٠.

١٣ ـ الشميّل، الدكتور شبلي: شيء عن الشيخ ابراهيم اليازجي، مجلة «**فتاة الشرق**»، مصر، الجزء الثالث ١٩١٢.

١٤ ـ صوايا، ميخائيل: **ابرهيم اليازجي حياته ـ آثاره**، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، طبعة أولى، ١٩٦٠.

١٥ ـ عبود، مارون: **رواد النهضة الحديثة**، دار الثقافة بيروت ١٩٦٦.

١٦ ـ فارس، الدكتور نبيه أمين: **يقظة العرب لجورج انطونيوس**، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عبّاس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢.

١٧ ـ فروخ، الدكتور عمر: **أربعة أدباء معاصرين: ابراهيم اليازجي، مصطفى لطفي المنفلوطي، ولي الدين يكن، وسليمان البستاني**، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت طبعة أولى ١٩٤٤، طبعة ثانية ١٩٥٢.

قازان، انطون: **أدب وأدباء** الجزء الثاني، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، ١٩٧٤.

١٩ ـ **مدوّنة الصحافة العربية**، المجلد الثالث (لبنان)، إعداد: الدكتور يوسف قزما خوري تحرير: علي ذوالفقار شاكر، نشر معهد الإنماء العربي بيروت، طبعة أولى ١٩٨٥.

٢٠ ـ مطران، خليل: **ديوان الخليل** (في أربعة أجزاء)، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٦٧.

٢١ ـ المعلوف، عيسى اسكندر: **المشايخ اليازجيين واصهارهم ـ مختصر من كتاب الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية**، المطبعة المخلّصية دير المخلص ـ قرب صيدا (لبنان)، طبعة ثانية ١٩٤٥.

٢٢ ـ المقتطف: مجلة **المقتطف**، مجلد ٢١ (١٨٩٧). ومجلد ٣٢.

٢٣ ـ المنار: مجلة **المنار**، المجلد العشرون (١٩١٧).

٢٤ ـ اليازجي، ابراهيم: ١ ـ **ديوان العقد بخط يده ليس له ناشر أو تاريخ**.

ـ طبع طبعة جديدة عن دار مارون عبود، لبنان ١٩٨٣.

٢ ـ مجلة **البيان**.

٣ ـ مجلة **الضياء**.

٢٥ ـ اليازجي، الدكتور كمال: **رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث** (١٨٠٠ ـ ١٩٠٠)، نشر مكتبة رأس بيروت لبنان ١٩٦٢.

٢٦ ـ ياغي، الدكتور هاشم: **النقد الأدبي الحديث في لبنان**، دار المعارف بمصر ١٩٦٨.

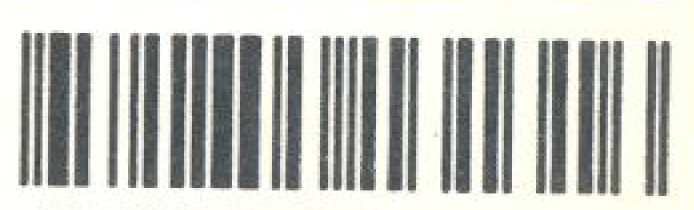
هذا الكتاب

في عداد سلسلة الأعمال المجهولة التي تصدرها الدار، يأتي هذا الكتاب الذي حققه ميشال جحا، ناشراً لأول مرة جزءً مهماً من تراث ابراهيم اليازجي في النثر والنقد واللغة اضافة إلى شعره ومساهماته الصحافية.

وهذا الكتاب الذي يتناول أحد رواد النهضة البارزين في لبنان والعالم العربي، يسلط الضوء على إسهام اليازجي، الذي نال شهرة واسعة، في خدمة اللغة العربية وإحيائها وضبط قواعدها ووضع المفردات والمصطلحات العلمية الجديدة.

وباسلوب متين وواضح، يأتي جهد ميشال جحا في هذا المؤلف ليسُد فراغاً لا يستهان به عن أحد أهم الذين ندين لهم في اصلاح اللغة العربية وآدابها.

كتاب هام يعيد إلى تراثنا القريب إرثاً يسيراً لم تتح له فرصة الظهور إلى ان اكتشفه وجمعه ميشال جحا وقدمه بدراسة وافية.



1855131315